المختار من

تفسير الشعراوى

للقرآن العظيم

لفضيلة الإمام / محمد متولي الشعراوي

الجزء الأول

تقديم / عمرو خالد إعداد / فريد إبراهيم

دار الروضة

طبع ــ نشر ــ توزيع

اسم الكتاب : المختار من تفسير الشعراوي للقرآن العظيم
إعداد : فريد إبراهيم
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٣٤٧٥ / ٢٠٠٩

تطلب كافة منشوراتنا :
مصر ــ القاهرة : دار الروضة للنشر والتوزيع ــ 2 درب الأتراك
خلف الجامع الأزهر . ت / 25913424 _ 25066884
0123608995

الطبعة الأولى
2009

تقديم

بقلم

الداعية الكبير/ عمرو خالد

قالوا: من أين يأتى الشيخ الشعراوى بهذه الخواطر التى لم تقرأها من قبلُ فى كتب التفسير؟

قلت: أنها فتوحات ربانية قد لا تجدوها فى الكتب ؛ لأنها تجليات لمن أمعن النظر القلبى فى كون الله ، مع الإبحار فى أسرار اللغة وما قدمه الأولون من تفسير ونظرات فى كتاب الله ، فكانت اللآلئ التى لم يتعرف عليها السابقون ولم يأت بها الكثيرون، والقرآن معجز غنى لا تنقضى عجائبه ولا تفنى جواهره ؛ لكن الله مُمن علينا فى كل زمن وفى كل جيل من يستخرج بعضًا من هذه الجواهر ٠

وما أرى إلا أن الله اختار الشيخ الشعراوى عليه رحمة الله فأجرى على عقله ولسانه من الفتوحات ما أرشد الملايين على محبة القرآن٠

وقد كنت واحدًا من الذين تابعوا فضيلة الإمام الراحل وتعلمت منه الكثير ، حيث اتخذت من منهجه فى الدعوة ، وتناوله للموضوعات ، وكذلك فن الإقناع الذى كان يستخدمه فى ثوب جديد لم نكن لنراه قبل ذلك ٠

واستطيع أن أقول بكلمات بسيطة أنه علم الدعاة جميعًا فن الوصول إلى المتلقى مهما كانت ثقافته ، فقد أقبل عليه لمتعلم

والعـــادى والمتخصـــص فـــى العلـــوم الإســـلامية والهـــاوى كـــل آخذ منه بنصيب ٠

رحم الله الشيخ ونفع بعلمه وجعله فى ميزانى حسناته٠

وأنه لشرف لمثلى أن ألبى دعوة الأســتاذ فريـــد إبـــراهيم بـــأن أكتب مقدمة هـــذه المختـــارات القيمـــة مـــن خـــواطر الشـــيخ ، فقـــد جمعها بعناية واختار منها السهل فى الفهـــم والوصـــول إلـــى القلـــب ثم استخدم قلمه الصحفى ليقدم كلمات الشيخ ليفهمها الجميع٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عندما انتقلتُ من مركز الأبحاث بجريدة الجمهورية للعمل بالقسم الديني بالجمهورية عام 1995 كنا مُقبلين على شهر رمضان، وكلّفني الأستاذ والكاتب الإسلامي الكبير **عبد اللطيف فايد** رئيس القسم الديني ونائب رئيس تحرير الجمهورية ورئيس تحرير مجلة منبر الإسلام آنذاك.

كلّفني آنذاك أنْ أختار من الكتب التي تصدر في تفسير القرآن للشيخ **محمد متولي الشعراوي** مقالات تُنشر في الصحيفة كلّ يوم جمعة، وطوال شهر رمضان.

ولا شكَّ أنني واحد من المُنبهرين بالشيخ، وأشعر وأنا أستمع إليه أنه لا يقدم تفسيراً كالذي نقرؤه ونرجع إليه، وإنما يقدم تجليات حقيقية ومواهب ربانية، يفيض بها الله على مَنْ يشاء من عباده.

وذلك بما قرره في الآيات الأولى التي نزلت من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾ [العلق]، فهذا هو الإكرام، والكرم أنْ يفتح الله على مَنْ شاء من عباده، فليس كلُّ مَنْ قرأ عرف، إلا أنْ يُكرمه الله سبحانه وتعالى، ويمُنُّ عليه من مِننهِ وعطاياه.

فالإمام يتحدث في موضوع طَرَقَه الأولون، وظلّ منهلاً وموردا عذْباً على مدى الأعصُر والأزمان، لكن الإمام يتحدث فتهفو له القلـــوب، ولا تجد ما يقوله مُعاداً مكرراً.

إنما هو رُؤىً جديدة ومعَانٍ تأخـــذ بالألبـــاب، ويســـتمع إليـــه العلمـــاء المُتخصِّصُون فيفيدون ويأخـــذون عنـــه، ويندهشـــون لمَـــا وقـــع عليـــه الشيخ من فَهْمٍ.

ويستمع إليه أيضاً البُسطاءُ فيفهمون، وتصـــل معانيـــه إلـــيهم دون صعوبة أو إغلاق في الفهم، وهذا هو سِرٌّ حديث القلب وكلام الموهوب من الله، الممنوح كرماً وعطايا.

لكني عندما عدتُ إلى كتب الشيخ وجدتُّها منقولةً نصاً مـــن كلامـــه، وكلُّنا يعرف أن هناك فارقاً كبيراً بين الحديث بالحوار والتفاعـــل بـــين المُتحدِّث والجمهور، وبين المقال.

فالمُتحدِّث يعتمد في حديثه على وسائل شتى في توصيل فكرته إلـــى جمهوره، مثل الإشارة باليد، ونغمة الصوت، وتعبير الوجه، والســـكتة الخفيفة، ورَفْع الصوت.

لذا عندما يُنقل الحديث إلى الورق فإنه يفقد أشياء كثيرة كانت مسئولة عن توصيله إلى الجمهور، وبالتالي يبدو أمام قارئه بشكل مختلف تماماً، لأن المكتوب من الموضوعات يعتمد على توصيل المعلومة من خـــلال الحروف فقط، فيكتب الكاتب وهو مُدرِكٌ لهذه الحقيقة، فيصـــيغ فكرتـــه لتصل إلى قاريء وليس إلى سامع.

هنا اكتشفتُ أنه من الصعوبة بمكان الأخْذ من الكتب مباشرة إلى الجريدة، ولذلك قُمتُ بالصياغة مرة أخرى لتتحقَّقَ فيه مواصفات المقال لكلِّ فكرة ننقلها عن الشيخ.

وظل هذا الأمرُ لسنواتٍ، وها هي المقالاتُ ترى النورَ في كتاب، ولكن بشكل جديد جعلها تُطبع في ثلاثة مجلدات تصدر تباعاً إن شاء الله:

أما الأول فهو: مختارات من خواطر الشيخ متولي الشعراوي حول القرآن الكريم من إعداد الأستاذ فريد إبراهيم.

وأما الثاني فهو: عن أسماء القرآن وصفاته، أما الثالث فهو: عن إعجاز القرآن، فهما من إعداد الأستاذ عادل أبو المعاطي.

وذلك على يد ناشرٍ مُحبٍّ لإمام الدعاة الشيخ **محمد متولي الشعراوي**، وهو الأستاذ **سامي الطرابيشي** الذي كان من عُشّاق الشيخ ومُحبِّيه، وعارفي مكانته وعلمه، وقد أصدر كثيراً من الكتب التي تتناول فِكْره وعطاءه.

فريد إبراهيم

القاهرة: في 1997 م

تمهيد

يقول إمام الدعاة في وَصْف خواطره عن القرآن الكريم:

خواطري حول القرآن لا تعني تفسيراً للقرآن، وإنما هى هِبَات صفائية، تخطرُ على قلبٍ مؤمنٍ فى آية أو بِضْع آيات، ولو أن القرآن من الممكن أن يُفسَّرَ لَكَان رسول الله ﷺ أوْلَى الناس بتفسيره، لأن عليه نزل، وبه انفعل، وله بلَّغ، وبه علَّم وعمل، وله ظهرتْ معجزاته.

ولكن رسول الله ﷺ اكتفى أنْ يُبيِّن للناس على قَدْر حاجتهم من العبادة، التى تُبيِّن لهم أحكامَ التكليف فى القرآن الكريم، وهى: افعل ولا تفعل. تلك الأحكامُ التى يُثابُ عليها الإنسانُ إنْ فعلها، ويُعاقب إنْ تركها.

هذه هى أُسس العبادة لله سبحانه وتعالى التى أنزلها فى القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض.

أما الأسرار المُكتنزة فى القرآن حول الوجود، فقد اكتفى رسول الله ﷺ بما عَلِمَ منها، لأنها بمقياس العقل فى هذا الوقت لم تَكُنْ العقولُ تستطيع أنْ تتقبَّلها، وكان طَرْحُ هذه الموضوعات سيُثير جدلاً يُفسد قضية الدين، ويجعل الناسَ ينصرفون عن فَهْمِ منهج الله فى العبادة إلى جَدلٍ حول قضايا لن يصلوا فيها إلى شيء.

والقرآن لم يأتِ ليُعلِّمنا أسرار الكون، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحةً وأسرار الوجود مُكتنزة، حتى تتقدَّم الحضاراتُ، ويتسعَ فَهْمُ

العقل البشري، فيكشف اللهُ سُبْحانه وتعالى من أسرار الكون ما يجعلنا أكثرَ فَهْماً لعطاءات القرآن لأسرار الوجود.

فكلما تقدَّم الزمنُ وكشفَ اللهُ للإنسان عن سِرٍّ جديد في الكون ظهر إعجازٌ في القرآن، لأن اللهَ سبحانه وتعالى قد أشار إلى هذه الآيات الكونية في كتابه العزيز، وقد تكون الإشارةُ إلى آية واحدة أو بضع آيات، ولكن هذه الآية أو الآيات تُعطينا إعجازا لا يستطيع العلمُ أنْ يَصِلَ إلى دِقَّتِهِ.

والقرآنُ الكريمُ حمل معه وقت نزوله معجزات، تدلُّ على صِدْق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى وعن صدق رسالة رسول الله ﷺ، وكانت أول معجزة أن القرآنَ كلامُ الله، فيه عطاءُ الله ما تحبه النفسُ البشرية ويستميلها.

إنه يخاطب مَلَكاتٍ خفيَّة في النفس لا نعرفها نحن، ولكن يعرفها اللهُ سبحانه وتعالى خالقُ الإنسانِ وهو أعلمُ به، هذه الملكَاتُ تنفعلُ حين تسمع القرآنَ فتلينُ القلوبُ ويدخل الإيمان إليها.

ولقد تنبَّه الكفار إلى تأثير القرآن الكريم في النفس البشرية تأثيرا لا يستطيع أنْ يُفسِّره أحدٌ، ولكنه يجذب النفسَ إلى طريق الإيمان، ويُدخِلُ الرحمةَ في القلوب.

ولكنَّ القرآنَ لم ينزل معجزةً لفترة محدودة، بل هو معجزةٌ حتَّى قيام الساعة، والقرآن هو كلام الله، والكون هو خَلْقُ الله. ولذلك جاء القرآنُ يعطي إعجازاً لكلِّ جيل فيما نبغُوا فيه.

إذا أخذنا العلومَ الحديثة التى اكتُشِفتْ فى القرن العشرين وأصبحتْ حقائقَ علمية نجد أن القرآنَ الكريم قد أشار إليها بإعجاز مُذهلٍ، بحيث إن اللفظَ لا يتصادم مع العقول وقْتَ نزول القرآن الكريم.

ولا يتصادم معها بعد تقدُّم العلم واكتشاف آياتِ الله فى الأرض، ولا يقدر على هذا الإعجاز المُذهل إلا الله سبحانه وتعالى.

ولو أن النبىَّ ﷺ تعرَّض لهذه الآيات الكونية تعرُّضا لا يتناسب مع استعدادات العقول وَقْتَ نُزول القرآن، فإنه ربَّما صرفَ العقولَ عن أساسيات الدين إلى جَدلٍ فى أسرار كَوْن لا يستطيع العقلُ أنْ يستوعبها أو يفهمها.

ولكن الحقَّ تبارك وتعالى ترك فى الكون أشياء لوثْبَاتِ العقول فى العلم، بحيث كُلما تقدم العلمُ وجد خَيْطاً يربط بين آيات الله فى الكون وآياته فى القرآن الكريم.

ولو أن رسول الله ﷺ فسَّر كَوْنيَّات القرآن وقتَ نُزوله لَجَمُدَ القرآنْ، لأنه لا أحدَ منَّا يستطيعُ أنْ يُفسِّر بعد تفسير رسول الله ﷺ، وبذلك يكون عطاءُ القرآن قد جَمُدَ.

ولكن تَرْك رسولِ الله ﷺ للتفسير أتاح الفرصةَ لعطاءاتٍ مُتجدِّدةٍ للقرآن الكريم إلى قيام الساعة، وهكذا كان المنعُ هو عين العطاء، وهذه معجزةٌ أخرى من إعجاز القرآن الكريم.



سورة الفاتحة

سُورَة الفَاتِحةِ

هدايةُ الدّلالة.. وهدايةُ المَعونة

شُكْراً لله

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة]

من العجيب أن الإنسان عندما يُفكر فى أنْ يشكرَ إنساناً آخرَ على جميل قدَّمه له يظل ينتقى كلماته، ويُعدّ نفسه ويفكر فى طريقة تقديم هذا الشكل حتى يكون فى مستوى الخدمة التى قُدِّمتْ له.

لكن الله جلَّتْ قدرته وعظمته نعمه لا تُعدُّ ولا تُحصَى علَّمنا أنْ نشكره بكلمتين اثنتين هما: الحمد لله.

ولعلّنا نفهم أن المبالغةَ فى الشكر للبشر مكروهةٌ لأنها تُصيب الإنسان بالغرور والنفاق، وتزيد العاصى فى معاصيه، فلنُقلِّل من الشكر والثناء للبشر، لاننا نشكر اللهَ لعظيم نعمه علينا بكلمتين، هما: الحمد لله.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علَّمنا صيغة الحمد، فلو أنه تركها دون أنْ يحددها بكلمتين لَكانَ من الصعب على البشر أنْ يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الإلهى.

فمهما أُوتىَ الناسُ من بلاغة وقدرة على التعبير فهم عاجزون أنْ يصلواإلى صيغة الحمد التى تليق بجلال المُنعم، فكيف نحمد الله والعقل عاجزٌ أن يدركَ قدرته، أو أنْ يُحصى نعمه أو يحيط برحمته.

ورسول الله ﷺ أعطانا صورةَ العجز البشرى عن حمد كمال الألوهية لله فقال: لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك.

وكَلمتَا (الحمد لله) ساوى اللهُ بها بين البشر جميعاً، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير، لكن عدله شاء أنْ نكون متساوين فى صيغة حمده.

لذلك فإننا نحمد اللهَ سبحانه وتعالى على أنه علّمنا كيف نحمده، لنظلّ دائماً حامدين، ويظل اللهُ دائماً محموداً، فالله محمود لذاته، ومحمود لصفاته، ومحمود لنعَمِه، ومحمود لرحمته، ومحمود لمنهجه، ومحمود لقضائه، الله محمود قبل أنْ يخلقَ مَنْ يحمده، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكرَ له في كلمتين اثنتين هما (الحمد لله).

والعجيب أنك حين تشكر بشراً على جميل فعله تظلّ ساعات وساعات.. تُعدُّ كلمات الشكر والثناء، وتحذف وتضيف، وتأخذ رأي الناس، حتى تصل إلى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر.

ولكن الله سبحانه وتعالى جَلَّتْ قدرته وعظمته نِعَمُه لا تُعدُّ ولا تُحصَى، علَّمنا أنْ نشكره في كلمتين اثنتين هما: الحمد لله.

ولعلنا نفهم أن المبالغة في الشكر للبشر مكروهةٌ، لأنها تصيب الإنسان بالغرور والنفاق، وتزيد العاصي في معاصيه.. فلنُقلِّل من الشكر والثناء للبشر، لأننا نشكر اللهَ لعظيم نِعَمه علينا بكلمتين هما: الحمد لله.

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علَّمنا صيغةَ الحمد، فلو أنه تركها دون أنْ يُحدِّدها بكلمتين لَكانَ من الصعب على البشر أنْ يجدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا اللهَ على هذا الكمال الإلهي.

فمهما أُوتيَ الناسُ من بلاغة وقدرة على التعبير فهم عاجزون عن أنْ يصلوا إلى صيغة الحمد التي تليق بجلال المُنعِم.. فكيف نحمد الله والعقل عاجز أنْ يدرك قدرته أو يُحصيَ نعمه أو يحيط برحمته؟

ورسول الله ﷺ أعطانا صورةَ العجز البشري عن حَمْد كمال الألوهية لله، فقال: ((لا أحْصي ثناءً عليك.. أنت كما أثنيتَ على نفسك)).

وكلمتَا (الحمد لله) ساوى اللهُ بهما بين البشر جميعاً، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد، لتفاوتتْ درجاتُ الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير، فهذا أُميٌّ لا يقرأ ولا يكتب، لا يستطيع أنْ يجدَ الكلمات التي يحمد بها الله.

وهذا عالم له قدرةٌ على التعبير يستطيع أنْ يأتيَ بصيغة الحمد بما أُوتيَ من علم وبلاغة، وهكذا تتفاوتْ درجاتُ البشر في الحمد.. طبقاً لقدرتهم في منازل الدنيا.

ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أنْ يُسوِّيَ بين عباده جميعاً في صيغة الحمد له، فيعلمنا في أول كلماته في القرآن الكريم أن نقول (الحمد لله) ليعطي الفرصة المتساوية لكل عبيده، بحيث يستوي المتعلمُ وغيرُ المتعلِّم في عطاء الحمد، ومَنْ أُوتيَ البلاغةَ، ومَنْ لا يُحسن الكلام.

ولذلك فإننا نحمد اللهَ سبحانه وتعالى على أنه علَّمنا كيف نحمده، وليظلَّ العبدُ دائماً حامداً، ويظل الله دائماً محموداً.

فالله سبحانه وتعالى قبل أنْ يخلقنا خلق لنا مُوجباتِ الحمد من النعم، فخلق لنا السماوات والأرض وأوجد لنا الماء والهواء، وَوضع في الأرض أقواتها إلي يوم القيامة.

وهذه نعمة يستحق الحمدَ عليها لأنه جَلَّ جلاله جعل النعمةَ تسبق الوجود الإنساني، فعندما خلق الإنسانَ كانت النعمة موجودةً تستقبله، بل إن الله جلَّ جلاله قبل أنْ يخلق آدم أبا البشر جميعاً سبقتْه الجنة التي عاش فيها لا يتعب ولا يشقى.

فقد خلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجوداً وجاهزاً ومُعداً قبل الخَلْق.. وحينما نزل آدمُ وحواءُ إلي الأرض كانت النعمةُ قد سبقتْهُما، فوجدا ما يأكلانه وما يشربانه، وما يُقيم حياتهما، ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنساني وخُلقتْ بعده لهلك الإنسانُ وهو ينتظر مجيء النعمة.

بل إن العطاءَ الإلهي للإنسان يُعطيه النعمة بمجرد أنْ يُخلقَ في رَحم أمه، فيجد رَحماً مُستعداً لاستقباله وغذاءً يكفيه طول مدة الحمل، فإذا خرج إلي الدنيا يضع اللهُ في صدر أمه لبناً ينزل وقت أنْ يجوع، ويمتنع وقت أنْ يشبعَ، وينتهي تماماً عندما تتوقَّف فترة الرضاعة.

ويجد أباً وأُماً يُوفِّران له مُقوِّمات حياته حتى يستطيعَ أنْ يعولَ نفسه، وكلُّ هذا يحدث قبل أنْ يصلَ الإنسانُ إلي مرحلة التكليف، وقبل أنْ يستطيعَ أن ينطقَ: (الحمد لله).

وهكذا نرى أن النعمة تسبق المُنعَم عليه دائماً، فالإنسان حيث يقول: الحمد لله. فلأن مُوجبات الحمد -وهي النعمة- موجودة في الكوْن قبل الوجود الإنساني.

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة]

من رحمة الله تبارك وتعالى أنه علَّمنا ما نطلب، وأول ما علَّمنا أنْ نطلبه هو الهداية، ففى قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾

[الفاتحة]

والهداية نوعان: هداية دلالة، وهداية معونة.

فهداية الدلالة هى للناس جميعاً، وهداية المعونة هى للمؤمنين فقط المتبِّعين لمنهج الله، والله سبحانه وتعالى هَدى كلَّ عباده هدايةَ دلالةٍ. أى: دلَّهم على طريق الخير وبيَّنه لهم، فمَنْ أراد أنْ يتبع طريق الخير اتبعه، ومَنْ أراد ألاَّ يتبعه تركه اللهُ لمَا أراد.

وهذه الهداية العامة هى أساسُ البلاغ من الله، فقد بيَّنَ لنا اللهُ تبارك وتعالى فى منهجه بـ (افعل) و (لا تفعل) مَا يُرضيه وما يُغضبه، وبيَّن لنا الطريقَ الذى نتبعه لنهتدىَ والطريقَ الذى لو سلكناه لَحقَّ علينا غضبُ الله وسَخطه.

ولكن هل كل مَنْ بيَّن له اللهُ سبحانه وتعالى طريقَ الهداية اهتدى؟

وقد بيَّن القرآنُ هذا فى كثير من المواضع فى حديثه عن السالفين ممَّنْ لم يستجيبوا للحق فقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

[فصلت]

أى: أن هناك من الناس مَنْ لا يأخذ طريقَ الهداية بالاختيار الذى أعطاه الله له، فلو أن اللهَ سبحانه وتعالى أرادنا جميعاً مهديين ما استطاع واحدٌ من خَلْقه أنْ يخرجَ على مشيئته ولكنه جلَّ جلاله خلقنا مختارين لنأتيه عن حب ورغبة، بدلاً من أنْ يقهرنا على الطاعة.

أما الذين اتبعوا طريقَ الهداية فيُعينهم اللهُ سبحانه وتعالى عليه، ويُحبِّبهم فى الإيمان والتقوى، ويُحبِّبهم فى طاعته، يقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

أى: أن كلَّ مَنْ يتخذ طريقَ الهداية يُعينه اللهُ عليه ويزيده تقوىً وحُبا فى الدين على عكس الذين جاءهم الهدى فتخلَّوْا عنه وابتعدوا عنه، فإن اللهَ تبارك وتعالى يتخلَّى عنهم ويتركهم فى ضلالهم.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزخرف] ويقول أيضاً: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه]

هذا صراطُ الله المستقيم

كثيراً ما يُردد الإنسانُ كلمةَ الصراط، وأكثر ما يُرددها فى صلاته وهو يقرأ فاتحة الكتاب: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة]

وفى القرآن الكريم أيضاً: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأنعام]، فما هو صراط الله؟

و (الصراط) هو الطريق السَّوىّ قد يكون مع استوائه مُعوجاً، لكن هذا الطريق مُستَو ومستقيم، ونعلم أن الطريقَ المستقيم هو أقصرُ الطرق المُوصلة للغاية، وعلى هذا فصراط لا تغنى عن مستقيم، ومستقيم لا يغنى عن صراط، بل لا بُدّ من صراط مُعبّد ومستقيم ليكونَ أقصرَ طريق إلى الغاية وبلا متاعب.

وإذا كان الصراط قد مهَّده الله فلا توجد له عَقَبة؟ طبعاً لا، إذن فهو طريق مستقيم. ولنلحظ أنه سبحانه قال: ﴿ صِرَٰطُ رَبِّكَ ﴾ لأنه جاء بها من ناحية الربوبية، والربوبية عطاءُ الرب، إنه سيد ومُرَبٍّ، وخالق الخَلْق، ويضمن لهم ما يُعينهم على مهمتهم فى الوجود معونة مُيسّرة سهلة.

وهكذا نعرف أن طريقَ الحق هو الصراطُ المُعبَّد المستقيم، أى: الذى يصل بين البداية والنهاية، فإنْ كان الطريق الذى نتبعه مستقيماً ومُعبداً، وسهلاً، فلماذا لا نتبعه؟


سورة البقرة

سورة البقرة

سِرٌّ قُرْآنِىٌّ

﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

من عَجَب أنْ يأتىَ بعد قرون طويلة مَنْ يُخطِّيء لغةَ القرآن ويتناول ألفاظه وتراكيبه بالنقد، وهو الوحى، الذى نزل على أساطين البلاغة.

فقد وقف الصحابةُ والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله ﷺ عند عطاء القرآن وقتَ نزوله فيما استطاعتْ عقولهم أنْ تُطيقه من أسرار الكون، ومن أسرار القرآن فلن تجد صحابياً يسأل رسول الله ﷺ عن معنى آيات الكون فى القرآن، أو عن عطاءات القرآن فى اللغة.

فمثلاً لم يسأل أحدٌ عن معنى: (الم) أو (عسق) أو (حم)، مع أن رسولَ الله ﷺ كان يستقبل كثيرين يؤمنون بكتاب الله، وكثيرين يكفرون بما أنزل الله، وكان هؤلاء الكفار يريدون أنْ يُقيموا الحجة ضد القرآن الكريم، فلم نسمع أن أحداً منهم، وهم الفُصَحاء البُلَغاء واللغةُ عندهم مَلَكة وموهبة وليست صناعة.

لم يَقُلْ أحدٌ منهم: ماذا تعنى فواتح السور؟ فكيف يمرُّ الكفارُ على فواتح السور هذه، ولا يجد أحدٌ فيها ما يستطيع أنْ يُواجه به رسولَ الله ﷺ ويجادله.

لقد كانت هذه فرصتهم فى المجادلة ولكنهم لم يفعلوا، وهو ما يــدلُ على أن الكفار انفعلوا بها، وإنْ لم يؤمنوا بها، وأنهم لم يجدوا فيها مـا يمكن أنْ يستخدموه لهدم القرآن أو التشكيك فيه.

ولو أن هذه الحروف فى فواتح السور كانت تخدم أهدافهم لَقَالوا ذلك للناس وجاهروا به، لكنهم لم يفعلوا، لأنهم أكثــرُ النـاسِ قـدرةً علـى الإحساس باللغة والبلاغة وأساليب القول.

أما الذين يتحدَّثون وينقدون لغةَ القرآن، بل يصل بهـم الأمـرُ إلـى تصورٌ أن بالقرآن أخطاء فى اللغة فأولئك عجزوا عمَّا فى القرآن مـن بلاغة وفنِّ قَولِ فوقعوا فيما يَهْرِفُون به.

أنْواعُ النَّاسِ

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

الناسُ فى الحياة ثلاثةُ أنواعٍ: مؤمنٍ، وكافرٍ، ومنافقٍ.

وقد أعطانا الله سبحانه فى أول سورة البقرة وَصْفاً للبشــر جميعـا بالنسبة لمنهج السماء، فوصف المؤمنين بقوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [البقرة]

أما الفئة الثانية فهى فئةُ الكافرين، وقد عرَّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝ ﴾ [البقرة]

أما المنافقون فقد تناولتهم ثلاث عشرة آية، وذلك لخطورتهم على الدين، فالذى يهدم الدينَ هو المنافقُ، أما الكافرُ فنحن نتقيه ونُحذِّره لأنه يعلن كفره فالمنافق يتظاهر بالإيمان، ولكنه يُبطن الشر والكفر.

يحسبه الإنسان مؤمناً، فيُطلعه على أسراره فيتخذها سلاحاً لطَعْن الدِّين، وطَعْن المؤمنين.

ولكلِّ صنف من الأصناف الثلاثة طبيعةٌ خاصةٌ، فالمؤمن مَلَكاته مُنسجمة مع نفسه، لأنه اعتقد بقلبه فى الإيمان ونطق لسانه بما يعتقد، فلا تناقضَ بين مَلَكَاته أبداً، فهو يعيش فى سلام مع نفسه.

أما الكافر فقد يُقال إنه يعيش فى سلام مع نفسه فقد رفض الإيمان وأنكره بقلبه، ولسانه نطق بذلك لكنه فقدَ السلامَ مع الكون ومع دواعى الإيمان داخله.

أما المنافقُ فقد فقد السلامَ مع مَلَكاته، ومع مجتمعه، ومع نفسه، فهو يقول بلسانه ما لا يعتقد قلبه ويُظهر غير ما يُبطن، ويخشى أنْ يكشفه الناسُ فيعيشُ فى خوفٍ عميق، وهو يعتقد أن ذلك شيء مُؤقَّتٌ سينتهى، ولكن هذا التناقض يبقى إلى آخر يوم له فى الدنيا ليواجه مصيره فى الآخرة.

وعاءُ اليقين

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ.. ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة]

لأن القلوبَ وعاءُ اليقين الإيمانى فإن الإنسان حين يملأ وعاء يقينه بالكفر يكون قد عَشق الكفرَ وجعله عقيدةً عنده، وتعوَّدتْ مَلَكاته عليه إلى درجة الانسجام يساعده اللهُ على مراده، فيطبع اللهُ على قلبه فلا يخرج ما فيه من الكفر، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإيمان الفطرى الذى خلق اللهُ الناسَ عليه.

لأنه قد سبق ووضع فى قلبه قضيةً يقينيةً على غير إيمان وأصول الإيمان أنْ يُخرجَ الإنسانُ ما فى قلبه من أىٍّ اعتقاد، ثم يستقبل الإيمان بالله.

يقول الله تعالى فى شأن الذين كفروا ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ.. ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة]

وهو ما يُفسّر للناس استغرابهم عندما يجدون شخصاً ما يتصرَّف فى الباطل وينسجم معه فى سهولة ويُسْر كأنه الطبيعى والفطرى ويصعب عليه ويُرهقه السير فى طريق الحق والنور إذا حاول أنْ يُغيِّر منهجه من الحرام إلى الحلال فى المأكل مثلاً أو المشرب أو التصرّفات.

على الجانب الآخر فإن شخصاً آخر لو حدَّثتْه نفسه أنْ يُجرّبَ الحرام أو سوّلتْ له أنْ يقترفه ويسير فيه كما يرى آخرون يستمرئونه ويتعايشون معه، إلا أنه يُفاجأ أن الأمرَ صعبٌ على نفسه لا ينسجم مع مَلَكاته ومشاعره.

كما أنه يُلاحظ أن عقابَ الله على الأخطـــاء فــورىّ وســريع، ذلــك لأن اللهَ لا يريد لمنْ ملأ قلبه بالإيمان وانسجمتْ مَلَكاتــه مــع الإيمــان فتشرَّبتْ بــذلك جوارحــه أنْ ينحــرف ولــو انحرافــاً بســيطاً، فــإذا انحرف فإن مَلكاته مع الإيمان.

وهو ما يخلق التعارض الذى لا يُحقق الانسجام مع ما تمتلئ به المَلَكات من يقين إيمانى، ومع ما تقترفه الجوارحُ من انحراف وشَطط، والقلب الإنسانى حيّز لا يسع التضادّ.

فإذا دخل فيه الإيمان بالله فإنــه لا يســع الكفــر، وإنْ دخــل فيــه كفر والعياذ بالله فإنه لا يســع الإيمــان، والعاقــل هــو مــنْ طــرحَ القضيتين خارج القلب، ثم درس هذه ودرس تلك، ومــا يــراه مفيــداً لحياته وآخرته يسمح له بالدخول، أما الذى ينــاقش الإيمــان والكفــر يملأ يقينه فإنه لا يصل إلا إلى الضلال.

صناعة المنافقين

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة]

الفساد فى الأرض هو أنْ يعمدَ المفسدُ إلى أمــر صــالح فيفســده، وهو أمرٌ غاية فى الظلــم، لأن أبســطَ مــا يفعلــه الإنسـان إذا لــم

يستطع أن يزيد الصالحَ صلاحاً ألاَّ يتــدخَّل ليفســده، لأنــه إذا فعــل ذلك يكون قد فعل فسادين:

أولهما: أنه لم يترك مُقوِّمات الحياة التى خلقها اللهُ فى الكون على صلاحها الذى خُلقتْ به.

وثانيهما: أنه عطل صلاحها، فلو أن هناك بئراً يشرب منه الناسُ فهذه نعمة لضرورة حياتهم، فعلى الإنسان أنْ يسعى لتهيئتها بأنْ تُؤدى مهمتها على خير وجه بأنْ يُبطِّنها مثلاً بالأحجار حتى يمنعْ وقوعَ الرمال فيها أو يرفع فوهتها ببناء، حتى لا تتهدّم أو يأتى بأساليب حديثة لرفع المياه منها ليعين الناسَ على الاستفادة منها.

لكن المفسدّ لا يصنع ذلك ولا يتركها على حالها، بل يأتى إلى البئر ويهدمها أو يفسد ماءها بما يُلقيه فيها مما يضرّ مَنْ يشرب منها، والذين يصنعون ذلك الفساد هم المنافقون.

حيث يقــول الحــق ســبحانه وتعــالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ [البقرة]

فهم يبذلون كلَّ ما فى وُسعهم لإفساد المــنهج الســماوى القــويم بــأنْ يتآمروا ضده، وادعوا أنهم مؤمنون ليطعنوا الإسلام من داخله.

ولقد تنبه أعداء الإسلام إلى أن هذا الدين الحق لا يمكن أنْ يتأثرَ بطعنات الكفر، بل يُواجهها ويتغلَّب عليها، وهو أمرٌ صادفه الإسلام فى كل أزمنته وأرضه، كما وُجد فى الأزمنة من المنافقين منْ يعمل على تقويض هذا الدين من داخله ممَّنْ يتسمَّى بأسماء إسلامية، ويضرب

الإسلام وهو يدَّعى أنه يدافع عنه ويُطورّ فيه، أو مُسمَّيات كثيرة ومذاهبَ شتَّى كلها تصبُّ فى حرب الإسلام·

وإذا حاول المسلمون حقاً لَفْتَ انتباههم إلى أن ما يفعلونه فسادٌ، عليهم أن يمتنعوا عنه ادعوا أنهم لا يفسدون ولكنهم يُصلحون·

قمَّة الإيمان

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة]

الغيب هو الشيء الذى ليس له مُقدّمات، ولا يمكن أنْ يصلَ إليه علم خَلْق من خَلْق الله حتى الملائكة إلا ما شاء اللهُ سبحانه وتعالى· يقول تعالى فى قصة خَلْق آدم للملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [البقرة]

ودللَ على جَهْل الجنِّ بالغيب بعدم معرفتهم موتَ سيدنا سليمان عليه السلام حيث يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ [سبأ]

كما أن الرسل لا يعلمون إلا ما سمح لهم به اللهُ، وهو ما يبدو من قوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

[الجن]

وقمة الغيب هى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله والإيمان باليوم الآخر، وكل هذه أمورٌ غيبية يجب أنْ نؤمنَ بها ما دُمنا آمنَّا أولاً بمنْ أخبرنا بها.

ولقد شاءتْ إرادة الله سبحانه وتعالى -رحمةً بعقولنا- أنْ يُقرِّب لنا قضية الغيب، فأعطانا من الكون المادى أدلةً على أن وجود الشيء وإدراك هذا الوجود شيئان منفصلان، فمثلاً فللإنسان روحٌ فى جسده تهبه الحياة لا يراها ولا يسمعها ولا يتعرَّف على وجودها إلا بإدراك أثرها.

كذلك فإن الجراثيمَ موجودةٌ فى الكون منذ بداية الخَلْق، وكان الناسْ يشاهدون آثارَ الأمراض فى أجسادهم وهم لا يعرفون أسبابها، فلمَّا ارتقى العلم شاهد الناسُ الجراثيمَ بالأجهزة البصرية المكبرة.

وهو ما يؤكد أن عدم رؤية الإنسان لشيء لا يعنى أنه غيرُ موجود، ولله المثلُ الأعلى، فنحن ندرك وجودَ الله سبحانه وتعالى بآثاره من مخلوقات وغيرها من الأمور التى تدلُّ عليه ولكن لا نراه.

الآخرةُ.. بينَ الإيمان واليقين

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة]

للإنسان حياتان: حياة قصيرة فى الدنيا، وحياة طويلة خالدة فى الآخرة. ومن الناس مَنْ يعطى لكلٍّ من الحياتين حقَّها: الأولى والآخرة، ومنهم مَنْ يجُورُ على الآخرة لصالح الأولى، ومنهم مَنْ يبيع الأولى بالآخرة.

والذى يبيع الحياةَ الآخرة، وهى الحياة الأبدية ونعيمها وخلودها بحياة الدنيا التى لا يضمن فيها شيئاً يكون من الخاسرين، فعمر الإنسان فى الدنيا قد يكون يوماً أو شهراً أو عاماً أو مائةَ عام أو يزيد، ولكنها حياةٌ قصيرةٌ مهما طالتْ ومهما أعطتْ.

لذلك فإن مَنْ يبيع آخرته بأولاده يكون قد اشترى مالاً يساوى بنعيم الله كله، حيث يقول الله سبحانه وتعالى فى وصفه للذين باعوا آخرتهم بدنياهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾[البقرة]

وإذا كان الإنسان قد نسى اللهَ سبحانه وتعالى، وهو لاقيه حتْماً ثم يبعث يوم القيامة ليجده أمامه فيُوفيّه حسابه، أيكون قد كسب أم خسر؟

بالطبع يكون خاسراً لأنه أوجبَ على نفسه عقابَ الله.

وقوله تعالى فى آخر الآية: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة]

يدل على أن الصفقة انتهتْ، وضاع كل شيء، لأن نتيجتها كانت الخسران، وليس الخسران موقوتاً، ولا هو خسران يمكن أنْ يُعوّض فى صفقته القادمة، بل هو خُسران أبدىّ، والندم عليه يكون شديداً.

لذلك فإن الخاسر فى وقت الحساب يتمنى أنْ لو كان تراباً، لهَوْل ما يراه من خسران أصابه وعذاب ينتظره، حيث يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ]

والغريب أنه رغم أن لقاء الله وحسابه لنا يقين لا شكَّ فيه، فإن كثيرا من الناس لا يلتفتون إليه، ويسعَوْنَ للمستقبل المظنون فى الدنيا، ولا يُحس واحد منهم بيقين الآخرة.

صِفَاتُ الفَاسِقِينَ

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة]

الروابط الإنسانية، والصّلات الطيّبة، والتعاون والمشاركة بين البشر من الأمور التى اختصَّ اللهُ بها الناسَ، بل إنه جعلها من أسباب خَلْقهم شُعوباً وقبائلَ فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]

والذين يخرجون على هذه القواعد يكونون قد خرجوا على ما وضعه اللهُ سبحانه من آلياتِ حياةٍ للبشر، وقد سمَّاهم اللهُ الفاسقين، ووضع لهم صفاتهم التى نعرفهم بها فى قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [البقرة]

فأوّلُ صفات هؤلاء الفاسقين: نَقْضُ العهد من بعد توثيقه.

وثانيها: قَطْعُ ما امر اللهُ به أنْ يُوصلَ.

وثالثها: الفساد فى الأرض.

أما العهد المُوثَّق الذى أخذه اللهُ على عباده فنقضوه فهو الإيمان الأول الفطرىّ الموجود فى كل إنسان، والذى يتمثَّل فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

لكنهم غفلوا عن هذا العهد، واتخذوا من دون الله آلهة، فأصبحوا فاسقين عمَّا وُضِعَ لهم من منهج، وعمَّا أخذوا على أنفسهم من عهود ليس مع الله فقط، بل مع البشر أيضاً، حتَّى ولو كانوا كافرين، فلا بُدَّ من الوفاء لهم بعهدهم، وهو ما يُذكِّرنا به الله فى قوله تعالى:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

[التوبة]

أما الصفة الثانية للفاسقين فهى قطع ما امرنا الله أن نصله مثل صلة الأرحام التى هى عصب الروابط الاسرية وليس الامر يقتصر على أنهم أهدروا الناحية الانسانية فقط بل أنهم عصوا أمر الله وليس ذلك فحسب

بل يسعون فى الارض فساداً أى يحاولون تغيير المنهج الذى وضع من قبل الله للناس، والكون وهو قمة الفسق والخروج على الخالق.

هذه أقسام الزمان

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

[البقرة]

الزمان بالنسبة للخَلْق ثلاثةُ أقسام: حياتهم زمنٌ أول.. ومن لحظة الموت إلى أنْ تقومَ الساعةُ زمنٌ ثَان وهو زمن البرزخ.. وساعةَ يُبعثون يستقبلون الزمنَ الثالث.

والحياة الأولى فيها العمل، وحياة البرزخ فيها عرْضُ الجزاء مجرد العرض، والحياة الثالثة هى الآخرة: إما إلى الجنة وإما إلى النار.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة]..

والآية إشارة إلى الأزمنة الثلاثة.

وقد أشار القرآنُ إلى حياة البرزخ فى حديثه عن عذاب آل فرعون منذ أنْ أغرقهم اللهُ سبحانه وتعالى فى البحر فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر]

فى هذا دليلٌ على عرْض الجزاء في البرزخ (القبر) مصداقاً لقول الرسول ﷺ: ((القبرُ إما روضةٌ من رياض الجنة، وإما حفرةٌ من حُفَر النار)).

تشير الآية إلى زمنين، زمن عرْض آل فرعون على النار غُدواً وعَشياً وزمن دخولهم النارَ، وهذا يثبتُ عذابَ البرزخ لأن الإنسانَ الكافر يرى فيه موقعه من النار ويرى نصيبه من العذاب، ثم تقومُ الساعةُ ليأخذَ نصيبه من العذاب.

مصدر علم الإنسان

﴿ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة]

إعمال العقل وتأمُّل الكون والأحداث الطبيعية أمر حضَّ عليه الدين، ودعا إليه لنستنبطَ ما يُحقِّق لنا التقدم والرفاهية، ويزيدنا رسوخاً فى العلم.

لأن الله سبحانه وتعالى يطالبنا بأنْ نواصلَ العلم الذى علَّمه لآدم، وإذا كان تاريخ العلوم يحمل لنا أخباراً عن قوم لم يكونوا مؤمنين، ومع هذا سبقونا فى العلم والاستنباط، فمن الواجب علينا نحن المؤمنين أنْ نتأملَ آيات الله تعالى فى الأرض.

فالذى اكتشف قوةَ جاذبية الأرض كان يراقب تفاحةً تسقط من أعلى الشجرة، وتصطدم بالأرض فتوصَّل إلى قانون الجاذبية.

ولا شكَّ أن إرادة الله شاءتْ أنْ تكونَ كلُّ العلوم قائمةً على نظريات، كل نظرية منها تؤدى إلى أخرى، لكن البداية كانت من الله سبحانه وتعالى حيث العلم الأول الذى منحه آدم، فكان بدهيات فى الكون بُنيَتْ عليها الاكتشافات العلمية.

لذلك كان قول الملائكة عندما طلب منهم سبحانه وتعالى أنْ يُنبئوه بأسماء الأشياء فقالوا: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة]

فالآية تتضمن دليلاً على أن العلمَ كله مرجعه إلى الله، فهو مصدرُ العلم والحكمة، فهو عليمٌ حكيمٌ يعلم كلَّ شيء خافياً كان أو ظاهراً، وحكيم يضع هدفاً لكلِّ حركة لتنسجمَ الحركاتُ مع بعضها البعض، ويصير الكونُ محكوماً بالحق الذى لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه.

ولأن الكونَ كله مخلوقٌ من قبَل حكيم عليم جاء فيه كل شيء فى مكانه ليُؤدىَ مهمته بكفاءة.

الزوجات.. فى الآخرة

﴿ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

الزوجة هى متعةُ الإنسان فى الدنيا إنْ كانت صالحة؛ والمُنغِّصة عليه إنْ كانت غير صالحة، لأن الزوجة تستطيع أن تضع فى حياة زوجها ما يجعله شقياً فى حياته، كأنْ تكون سليطةَ

اللســـان، أو دائمـــةَ الشـــجار، أو لا تعطـــى اهتمامـــاً لزوجهـــا، أو تحاول إثارته بأنْ تجعله يشكُّ فيها.

أما فى الآخرة فكلُّ هذه المُنغِّصات تزول بأمر الله، فالزوجة فى الآخرة مُطهَّرة من كلِّ ما يكرهه الزوج فيها وما لم يحبه فى الدنيا يختفى، فالمؤمنون فى الآخرة مُطهَّرون من كلِّ نقائض الدنيا ومتاعبها وأولها الغلّ والحقد.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر]

فمقاييسُ الدنيا ستختفى فى الآخرة، وكلُّ شيء مكروهٌ فى الدنيا لن يكون موجوداً فى الآخرة، فإذا كان أي شيء قد نغَّص حياةَ الإنسان في الدنيا فإنه سيختفي في الآخرة.

﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقد ضربَ الله المثَل بالزوجات، لأن الزوجة هي متعة زوجها في الدنيا، وهي التي تستطيع أن تحيل حياته إلى نعيم أو إلى جحيم، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]

أي: لا موتَ في الآخرة، ولن يكونَ في الآخرة وجودٌ للموت أبداً، وإنما خلودٌ دائم، إما في الجنة وإما في النار.

تكليف آدم من أجل حركة الحياة

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]

علينا أن نبحث فى آفاق مرادات الله حين يُعلِّمنا من لَدُنه ويقفنا على المعنى المراد، إننا نعلم أن أولَ بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفةً فى الأرض، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة]

إذن: فآدم مخلوقٌ للأرض، ولا يصح أنْ نظلمَ آدم ونقول إنه مخلوق للجنة وكنا سنعيش فيها، لكنه عصى وأنزلنا إلى الأرض.

لذلك نقول: لا، وعلينا أنْ نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله فى الأرض خليفة، والذى كان يجب أن نسأل عنه: ما دام قد جعله اللهُ خليفةً فى الأرض، فمَن الذى جاء بحكاية الجنة هذه؟

وفى الإجابة نقول: لقد خلق اللهُ آدمَ ليكونَ خليفةً فى الأرض، وكان عليه أن يتلقَّى من الله التكاليفَ محصورة فى ((افعل)) و ((لا تفعل)) لا بدّ أن الإنسان إذا لم يمتثل سيظهر الفسادُ فى المجتمع.

أما الذى لا يظهر منه فساد فسبحانه يتركه مُباحاً، لذلك فكلّ ما لم يردْ فيه ((افعل)) و ((لا تفعل)) لا يفسد به المجتمع. وهل خلق اللهُ الإنسانَ هكذا بدون مُنغِّصات تُفسد عليه منهجَ الله؟

لا فما دام الشيطان قد وقف موقفَ الإغواء مع آدم، فإنه سيقف الموقفَ نفسه مع ذريته، والله قد أمر المؤمن بالصلاة فينزعه الشيطانُ حتى لا يصلى.

وهكذا يحاول أن ينقلَ مجال (افعل) إلى مجـــال (لا تفعـــل)، وكـــذلك يحاول أنْ يُزيِّن للإنسان أن (يفعل)) ما هــو فـــى مجـــال ((لا تفعـــل)) فيربك حركة الإنسان.

والله سبحانه وتعالى يريد منهجاً يحكم حركةَ الحياة، ويضمن للخلافة فى الأرض أن تؤدى مهمتها أداءً يُسعد الإنسان فيها فى الدنيا وينعم في الآخرة، لذلك كان لا بد أن يدرب الله سبحانه وتعالى خليفته في الأرض على المنهج، حتى لا يتلقّى المنهج تلقياً نظرياً.

لذلك شاء سبحانه وتعالى ألاّ يجعلَ آدم يباشر مهمةَ الخلافة إلا بعد أنْ يُعطيه تدريباً على المهمة فى ((افعل)) و ((لا تفعل)).

وحذّره من العقبات التى تعترض ((افعـــل)) حتـــى لا تجـــيء فـــى منطقة ((لا تفعل))، وحـــذره كـــذلك مـــن العقبـــات فـــي منطقـــة ((لا تفعل)) حتى لا تجيء في منطقة ((افعل)).

واختار له مكاناً فيه كلّ مُقوّمات الحيـــاة وترفهـــا حتـــى لا يتعـــب فى أىّ شيء أبداً فى أثنـــاء التـــدريب، وأوضـــح لـــه أن هـــذه هـــى الجنة وهى بستانٌ جميل، وفيه كلُّ مقوِّمات الحيـــاة وتَرفهـــا، وأمـــره أنْ يأكلَ من كلّ شيء فيها، ولكن لا تقرب هذه الشجرة.

ولكنه أطاع إبليس فعصى ربه وأكلَ مـــن الشـــجرة، وكـــان هـــذا أول عصيان لله، غفره الله له بمجرد التوبة.

فى الغريزة الإنسانية

﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة]

الخوفُ غريزةٌ إنسانية تعترى الناسَ بدرجات متفاوتة، وهو عبارة عن توقُّع شرٍّ مُقبل لا قدرةَ للإنسان على دَفْعه.

والمستقيم من الناس لا يعرف الخوفَ كما يعرفه الذين أبوْا على أنفسهم الاستقامة، لأن المستقيمَ اهتدى إلى منهج الله واتبعه والتزم به فنالَ الاطمئنان واليقين، لذلك يقول الله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة]

والحمايةُ من الخوف تكون بشعور المستقيم أنه لا خيرَ قُدِّرَ له سيفوته، ولا ضُرّ لم يُقدّره له سيلحقه، لأن الخوف يكون من فعل للإنسان سببٌ فيه، والمستقيم لا يفعل شيئاً يخاف انكشافه.

إذن: فالذى يتبع هدى الله لا يخاف ولا يحزن، لأنه لم يذنب ولم يخرق قانوناً، ولم يغشّ بشراً أو يُخْفِ جريمة، فلا يخاف شيئاً لو قابله حدثٌ مفاجئٌ، فقلبه مطمئن.

والذين يتبعون منهجَ الله لا يخافون ولا يخاف عليهم، كما أنهم لا يحزنون لأن الذى يعيش طائعاً لمنهج الله فليس هناك ما يجعله يحزن، ذلك لأن إرادته تخضع لإرادة الله.

فكلُّ الذى يحدث له من الله خيرٌ، حتى ولو بدا غير ذلك لأن مَلَكاته منسجمةٌ مع بعضها، كما أنه فى سلام مع الكون، وفى سلام مع نفسه، فلا يسمع الكون منه سوى التسبيح والطاعة والصلاة، وكلها رحمة.

والمؤمن بذلك يصبح نفحةَ جمال تُشع فى الكون نغمةَ حُسْن ورضا مع كلِّ الناس يحمد اللهَ على قضائه وجميع قدره حمدَ الرِّضا بحكمة، واليقين بحكمته.

وقد ينفعل المؤمنُ للأحداث، ولكن هناك فرقاً بين الانفعال للأحداث وحدها، وبين الانفعال للأحداث مع حكمة مُجريها، ولذلك فإن رسول الله ﷺ يُعلمنا الدقة حينما قال: ((إن العينَ تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلاَّ ما يُرْضى ربنا، وإنَّا لفراقك يا إبراهيمُ لَمَحزونون)).

الصفقةُ الخاسرة

﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة]

النعيم فى الدنيا على قدْر قدرات البشر، أما النعيمُ فى الآخرة فهو داخلٌ فى قدرات الله سبحانه وتعالى غير المحدودة، فقد يقول الإنسانُ لنفسه: لماذا أضيِّق على نفسى فى الدنيا؟ ولماذا لا أتمتع؟

وهو لا يدرك أن الذي سيناله من عذاب وعقاب فى الآخرة على مُتعته إنْ كانت حراماً لا يساوى ما أخذه من الدنيا، وبالتالى فإن الصفقة تكون خاسرة لأنه اشترى زائلاً ودفع ثمناً له خالداً وهو نعيم الآخرة.

لذلك يقول اللهُ سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل فى خطابه لهم فى القرآن، وهو قولٌ مقصود به الناس جميعاً: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة] كأنَّ اللهَ يقول لهم: تدفعون آيات الله التى تُمثِّل منهجه المتكامل لتأخذوا عرضاً من أعراض الدنيا، قيمتُه قليلة ووقتُه قصير، وهذا قَلْبٌ للصفقة.

لذلك جاء الأداءُ القرآنى مقابلاً لهذا القلب.. ففى صفقات الائتمان دائماً ندفع مقابلَ السلعة، ولكن فى هذه الحالة التى تتحدث عنها الآيةُ فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة] فقد جعلتْ الثمن الذى يجب أن يكون مدفوعاً جعلته مُشتَرَى، وهذا هو الحُمْق والخطأ من الذين يقبلون ذلك.

كأنَّ اللهَ يشير إلى سُوء التصرُّف فى أنْ يجعلَ الإنسان الشيء الذى كان يجب التضحية به ثمناً، وثمناً ليس عالياً.

أما الصفقةُ الرابحة فتكون بالتضحية بالزائل للحصول على الباقى الخالد. أى: التضحية بمُتَع الدنيا مقابل نعيم الآخرة.

ومن الحكمة أنْ يجعل الإنسانُ المالَ وسيلةً، ولا يكونُ غاية، وأغراض الدنيا كلها وسيلةٌ للنجاح فى الآخرة، وليست هدفاً فى ذاتها، فإنْ صارتْ الأغراضُ غايةً فسد المجتمع، لأن المالَ -كما يقولون- عبدٌ مُخلص، لكنه سيد ردئ.

فالذى يجعل المالَ غايةً يكون قد اعتبره "سيداً"، والذي يجعله وسيلة يكون قد اعتبره "عبداً". فالمال عبدٌ حين يُنفَق فى وُجوهه، وسيِّدٌ حين يُخزن ليزداد.

والآية تشير إلى صفة من صفات اليهود الذين يعبدون المال، فيصبح المالُ بالنسبة لهم سلعةً وليس وسيلةً، فيحرصون على الربا ليزدادَ مالهم بدون عمل، دون نظر إلى ما يَجُرُّهُ من فساد فى المجتمع.

زاد التقوى

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

[البقرة]

من الآفات التى تصيب البعضَ فى رحلة حياتهم وعلاقاتهم بخالقهم آفةُ الاستعلاء بالأسباب، أى شعور الإنسان أنه قادرٌ من ذات نفسه، وأنه بلغ مرتبةً من الكمال تُغنيه عن الحاجة إلى عَوْن مَنْ أعطاه هذه القدرات فتُسوّل له نفسُه، ويُوسوس له شيطانه بما يفسد عليه نفسه، ويُغريه بالتمادى فى غَيِّه.

ومن هنا كانت أهمية فضيلة الخشوع لله ربِّ العالمين لدى المسلم، فيستحضر عظمةَ الله سبحانه وتعالى فى كلِّ لحظة من لحظات حياته، سواءٌ أكانت لحظةَ ضعف أو لحظةَ قوة، فيمنحه الخشوعُ يقيناً بالله وقوةً فى لحظات الضعف، ويمنحه فى لحظات القوة والخُيلاء العودة إلى الصواب، وإلى دائرة الإيمان والخوف والرجاء.

فيدرك المسلمُ مدى عجزه أمام خالق الكون، ويعلم أن كلَّ ما عنده يمكن أنْ يذهبَ به اللهُ فى لحظة، لأنَّ الإنسانَ متغيرٌ يَسْرى عليه ما

يَسْرى على الأغيار التى تخضع للذى لا يتغير الذى خلق الأسباب ووهبها لمَنْ يشاء ويستطيع أنْ يستردّها وقتما يشاء·

لذلك فإن رسولنا الكريم طلب من الذين لا يشعرون بالخشوع بالتخشُّع حتى يصلَ إلى الخشوع·

ومداد الخشوع ومادته التى تمنحه الدوام هو الصبر والصلاة، فالله سبحانه وتعالى فى خطابه لبنى إسرائيل يأمرهم بالاستقامة والتزام الجادة، وينصحهم بالاستعانة بالصبر والصلاة اللذيْن يُمثِّلان أمراً شاقا وعسيراً على قلبوب غير المؤمنين، أما الخاشعون الذين أدرك الإيمانُ قلوبهم فإن الصبر والصلاة يزيدهم خشوعاً وتثبيتاً، يقول تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [البقرة]

والصبر فى الآية الكريمة فسَّره بعضُ العلماء بالصيام، فكان الله تعالى يأمرهم أنْ يجوعوا ويصبروا على ألم الجوع ومشقة الإيمان حتى يتمكَّن من قلوبهم·

وإذا كان الصبر والصلاة هما باب الإنسان إلى الخشوع، فإن الخشوعَ هو زادُ الاستمرار فى رحاب الإيمان، وحارس المداومة على الطاعات·

القلوب والحجارة

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة]

القلبُ منبع اليقين، ومصبُّ الإيمان، وهكذا أراد اللهُ له أنْ يكون. لذلك يقول رسولنا الكريم: ((ألا وإن فى الجسد مُضغة إذا صَلُحتْ صَلُحَ الجسدُ كله، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهى القلب)).

وكما أن الإيمان فى القلب فإن القسوة والكفر فى القلب أيضاً، فالقلب حينما ينسى ذكرَ الله يقسو ويتحجَّر فى تعامله، لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا وإلا المادة، فيحاول أنْ يحصلَ منها على أقصى ما يستطيع، وبأىِّ طريقة، فهو لا ينظر فيها إلى ما يقترفه فيها، لأنها هى مُنتهى حياته فلا شيءَ بعدها.

والإيمان إذا خرج من القلب خرجتْ منه الرحمة، وخرج إيمان الجوارح فتمتد اليد إلى السرقة، والعين إلى كل ما حرَّم اللهُ، والقدم تمشى إلى المُحرَّمات لا إلى المساجد وعيادة

المرضى والسعى فى حاجات الناس، لأن القلب مخزن الإيمان فى الجسد الذى يُغذِّى بقية الجوارح.

وقد شبَّه الله القلوب القاسية بالحجارة، وجعلها أشدَّ قسوةً من الحجارة فى قوله تعالى مخاطباً بنى إسرائيل:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة]

والحجارة هى الشيء القاسى الذى تُدركه الحواسّ وهى مألوفة لنا وكذلك لبنى إسرائيل، لأن لهم معها شأناً عندما تاهوا فى الصحراء، وعطشوا وكان موسى عليه السلام يضرب الحجر بعصاه فيخرج لهم الماء، والله يلفتهم إلى أن المفروض فى قلوبهم أن تكون ليِّنة حتى لو كانتْ فى قسوة الحجارة التى لانتْ لعصا موسى وأخرجتْ له ماءً بإذن الله.

كما أن الجبل قسوتُه مطلوبة، لأن القسوةَ مهمته، فهو وتدٌ للأرض كما أخبرنا الله أنه يحتاج فى تحقيق مهمته إلى القوة والصلابة، لكن القسوة فى القلوب غير مطلوبة لأنها ليست مهمتها القسوة.

ومع ذلك فإن الحجارةَ القاسية تصيبها الرحمة فيخرج منها الماءُ، بل تهبط من خشية الله ﴿ وَإِن مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف] إلا أن قلوب بنى إسرائيل لا تلين رغم إنعامات الله التى اختصَّهم بها.

عندما تنسَى القلوبُ ربَّها

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة]

القلبُ منبع اليقين ومصبُّ الإيمان، وكما أن الإيمانَ فى القلب فإن القسوةَ والكفرَ فى القلب؛ لأن القلب حينما ينسى ذكرَ الله يقسو، لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا وإلا المادة، فيحاول أنْ يحصلَ منها على أقصى ما يستطيع وبأىِّ طريقة، فلا تأتى إلا بالظلم والطغيان وأخْذ حقوق الضعفاء، ثم لا يُفرِّط فيها أبداً.

فهى منتهى حياته فلا شيءَ بعدها، فلو وجد إنساناً يموت أمامه من الجوع فلا يعطيه رغيفاً. لأن القلب الذي لا يعرف الإيمان لا يعرف الرحمة، وكذلك تخرج من الجوارح فتمتد إليه إلى السرقة بلا رحمة، وتسير القدم إلى كلِّ حرام بلا أدنى شعور بالندم أو وَخْز الضمير، وكذلك بقية الجوارح.

لذا فقد وصف اللهُ القلوبَ التى لا تعرف الإيمان بالحجارة، بل أقسى من الحجارة، يقول الله تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة]

فأداء القلوب غير المؤمنة أداء فى قسوة الحجارة بل أشدّ قسوةً، بل إن قسوةَ الحجارة مطلوبةٌ لتقوم بمهمتها التى خلقها الله لها، أما قسوةُ القلوب فإنها تدمر العلائقَ الإنسانية، وتنشر الفساد فى الأرض، وتُحيل كون الله الجميل إلى جحيم لا يُطاق·

المُسْرفونَ فى اللذَّات

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

[البقرة]

من وسائل الشيطان فى إغراء أتباعه بالمعاصى تخفيفُ آثار الذنوب عليهم، والتهوين من شأنها فى عقولهم، وتصغير عواقبها، والجزاء عند الله سبحانه وتعالى، فيتمادون فى غوايتهم، ويُسرفون فى لذّاتهم لمَا يتصوّرونه من كَسْب فى اقترافها أكبر من العقاب الذى سيلحق بهم·

وهو ما يُشير إليه القرآنُ حكايةً عنهم فى قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة]

والمَسّ يعنى اللمس الخفيف أو اقتراب شيء من شيء، ولكن لا يُحسّ أحدهما بالآخر إلا إحساساً خفيفاً لا يكاد يُذكر، كمَنْ يضع أنامله برفق على آخر، فلا يكاد الآخر يشعر به، على خلاف اللمس، ذلك الذى يعطى اللامس شعوراً بما يلمس، وكذلك الملموس إنْ كان كائناً حياً من الكائنات التى تُحسّ وتشعر.

وكلمة (مَّعْدُودَة) أى قليلة جداً. والقرآن يُصوِّر بهذه الآية مدى ما زرعه الشيطانُ فى عقول الطغاة والبُغاة والخارجين على حدود الله من استهانة بعاقبة أمرهم، وهو ما يدل على غبائهم.

لذلك كان التعقيب هو الاستفهام الاستنكارى لله فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة]

فما دُمتم تُوقنون بالحساب وتُوقنون بخطأ موقفكم، وتعرفون أن عذاباً ما سيلحق بكم إلا أنكم تقولون إنه سيكون خفيفاً فى درجة المس، وزمنه قليلٌ يمكن أنْ يحصى بأقلّ القليل، فهل هناك يقينٌ ووعدٌ من المحاسب والمعذب بألاَّ يكون هذا العذابُ طويلاً ولا مؤلماً.

ثم يأتى التعقيب العادل الذى يعدل بين مَنْ حُرِمَ فى الدنيا فاتّقى، وبين مَنْ أُعطى فبغى، وبين مَنْ قدَّرَ العواقب فارتدع، وبين مَنْ أدبر وتولَّى ؛ لقول الله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة]

قتْل الخُصوم.. وسيلةُ الضعفاء

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

القرآن روح، ومَنْ لا يعمل به تكون حركةُ حياته بلا قيم، وبالتالى فكلُّ ما يتصل بالمنهج فهو روحُ القرآن.

والقرآن بما حمله من منهج، وما جاءت به السنةُ القولية والفعلية تَمَّم الرسالات السابقة عليه ليكونَ منهجاً قوياً إلى يوم القيامة إلا أن الناس فى كلِّ زمان ومكان يشدُّهم الهوى عن المنهج القويم، ويُسوِّل لهم الشيطان بما قطع على نفسه من وعد أنْ ينحرفوا عن المنهج الذى يؤمنون بسلامته وقوته.

لذلك كان قوله سبحانه مُخاطباً اليهودَ الذين جاءهم رسولان، وظهر فيهم أنبياء كثيرون: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

وقوله: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ تشير إلى أن الناس ومنهم اليهودُ جعلوا من أنفسهم مُشرِّعين وحُكَّاماً على منهج الله، وجعلوا من أهوائهم ميزاناً لمنهج الله.

ومعنى ﴿ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أي: أعطيتم لأنفسكم كبراً لستُم أهلاً له، أي: ادعيْتُم أنكم كبار ولستُم كباراً.

وقوله: ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ الكذب كلامٌ يخالف الواقع، أي: أنكم اتهمتم الرسلَ بأنهم يقولون كلاماً يخالف الواقع لأنه يخالف ما تشتهيه أنفسكم.

وقوله: ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ التكذيب مسألة مُنكرة لكن القتل أمر أبشع، وحين يتخلَّص إنسان من خَصْمه بالقتل فهى شهادةٌ بضعفه أمام خَصْمه، وأن طاقته وحياته لا تُطيق وجود الخَصم، ولو أنه رجلٌ مكتملُ الرجولة لَمَا تأثَّر بوجود خَصْمه ولكن لأنه ضعيفٌ أمامه فقتله.

الجُحود المُركَّب

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

من حكمة الله ولُطفه بالناس أنْ عجَّلَ لهم بعضَ العقوبات فى الدنيا ولم يُؤجِّلها إلى يوم القيامة، حتى تستقيمَ أمورُ الحياة لدى الذين آمنوا أو الذين لم يؤمنوا.

فعندما يرى مَنْ لم يؤمن عذاباً دنيوياً وقع على ظالم يخاف من الظلم ويبتعد عنه، حتى لا يصيبه عذابُ الدنيا، ويعرف أن

فى الدنيا مقـاييسَ فـى الثـواب والعقـاب، وحتـى لا ينتشـر فـى الأرض فسادُ منْ لا يؤمن بالله ولا بالآخرة.

كما أن المُخطئين أنفسهم قد يتوقَّفون أمام ما وقع بهم مُحاولين تفسير أسبابه، الأمر الذى يدفع بعضهم إلى العودة إلى جادّة الصواب.

إذن: فاللهُ سبحانه وتعالى فى قصاصـه مـن النـاس فـى الـدنيا يلفت المؤمنَ وغيـر المـؤمن إلـى عقوبـة الحيـاة الـدنيا، فيـأتى للمُرابى الذى يمتصُّ دماءَ الناس ويصـيب شخصـاً بكارثـة لا يجـد بعدها ما ينفقه كما جعل مَصَارع الظـالمين والبـاغين والمسـتكبرين فى الدنيا عبرةً لمَنْ لا يعتبر بمنهج الله.

فتجد إنساناً ابتعد عن دينه، وأقبلتْ عليـه الـدنيا بنعيمهـا ومجـدها وشهرتها، ثم نجده فى آخر أيامه يعـيش علـى صـدقات المحسـنين، وامرأة غَرَّها المالُ فانطلقت تجمعه من كلِّ مكـان حـلالاً أو حرامـاً، وأعطتْها الدنيا بسخاء، ثم تزول عنها الـدنيا فـى آخـر أيامهـا، فـلا تجد ثمنَ الدواء وتموت فيجمع لها الناسُ مصاريفَ جنازتها.

والمتأمل فـى تـاريخ اليهـود بالمدينـة المنـورة يجـدهم كـانوا رؤوسَ القوم وتجارَ الحرب والسـلاح، وسـاروا فـى البغـى إلـى آخر مدى، ثم انتهى بهم الحـالُ إلـى أنْ يُطـردوا وتُؤخـذَ أمـوالهم وتُسبى نساؤهم، وهو ما وصفه اللهُ بالخزى لهم فى الحياة الدنيا.

ذلك بأنهم كانوا يعرفون الحقَّ ويُبشِّرون به العرب قبل مجيئه، فلما جاء كفروا به. يقول الله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ

بينهم رغم إيقانهم بمجيئه، ومعرفتهم بأوصافه التى قراوها فى التوراة·

القلبُ منبَع اليقين·· والكُفْر أيضاً

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة]

القلب منبعُ اليقين ومصبُّ الإيمان، وكما أن الإيمانَ فى القلب فإن الكفرَ والقسوة فى القلب، وهو ما عبَّر عنه القرآنُ الكريم عندما ردَّ الكفارُ على نداء الإيمان بأن قلوبهم غُلْفٌ لا يصل إليها هذا النداء·

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة] وإذا امتلأ قلب المؤمنْ بالإيمان فإنه يفيض على ما حوله ممَّا امتلأ به من خير ورحمة ورأفة وتسامح وعطاء·

ويسرى عطاءُ الإيمان فى كلِّ جوارحه، فلا ينظر إلى ما حرَّم الله، ولا ينطق إلا بكلِّ خير، ولا يخوض فى أعراض الناس، ولا تمتدّ يده

إلى مُحرَّم، ولا تمشي رجْله إلى طُرقات الشيطان، ولا يفكر عقلــه إلا فيما أمر الله سبحانه وتعالى.

أما إذا امتلأ القلبُ كفراً فإنه يفيض على ما حوله ممَّا امتلأ به مــن غلظة وحقد وقسوة ونَهَم للدنيا وكراهية للخير، ذلك لأنه يعتقد أنه لــيس هنا إلا الحياة الدنيا التى يعيشها، فيسعى لأنْ يستمتعَ بأقصى قَــدْر مــن الاستمتاع بهذه الحياة وبأيِّ طريقة.

كما أن الكفرَ يَسْرى فى سائر جوارحه، فلا يفكر إلا فى المُحرَّم من الأفعال، ولا تمتدَ يده إلى حلال لأنها تعودتْ على الحــرام، ولســانه لا يكفُّ عن الخوض فى أعراض الآخرين.

وهكذا بقيةُ جوارحه حتى يصبحَ فى حياته في قسوةً الحجارة، أو أشد قسوةً منها، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة]

ثياب التقوى

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [البقرة]

المثُوبة هى الثوابُ على العمل الصالح، ويقابلها العقوبة التى هى عقاب على العمل السيىء، والمثوبة مُشتقة من ثاب أى رجع، لذلك يسمى المُبلِّغ عن الإمام فى الصلاة (المُثوِّب).

وقد أُخذ من هذا المعنى اسم الثوب، لأن الناسَ كانت قديما تأخذ أصوافَ الأغنام ويُعطونها لآخرين ليغزلوها ثم ينسجوها ملابس ويردُّوها إلى أصحابها، فسُمِّيتْ (ثياباً) لأنها تعود.

كذلك العمل الصالح يرتدّ بالنفع على صاحبه فسُمِّيَ ثواباً، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [البقرة]

كما أن هناك اشتراكاً بين كلمة ثوب وثواب، فالثوبُ يستر العورة، وكذلك العمل الصالح يسترُ الأمراض المعنوية والنفسية، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

[الأعراف]

إذن: هناك لباسان أحدُهما لستْر العورة، والثانى لستر الإنسان من العذاب، ولباسُ التقوى خَيْرٌ من لباس ستر العورة.

والمتأمل في قوله ﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ.. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [البقرة] يرى إلى أيِّ مدى يكون الثوبُ جميلاً ومُزركَشاً إذا صادف صانعاً جيداً، فمَا بالُنا بالثوب الذى يأتى من عند الله؟.

فالله هو القادر أنْ يردَّ الثواب بقدراته هو سبحانه، فيكون الردُّ عالياً، بحيث يضاعف الثواب مرات ومرات.

ولو تتبهنا إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟.. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [البقرة] وعلمنا أنها جاءتْ بعد حديث القرآن عمَّنْ اتبع الشياطين وتعلَّموا منهم السحر ليضرُّوا به الناسَ ويُفرِّقوا به بين المرء وزوجه لأدركنا أن الله يفتح أمام عباده أبوابَ التوبة والرحمة.

فقد بيَّنَ لهم أن السحرَ كفرٌ، وأن مَنْ يقوم به يُبعثُ كافراً يوم القيامة ويُخلَّد فى النار، فلو امتنعوا عن تعلُّم السحر ليمتازوا به على مَنْ سواهم امتيازاً فى الضرر والإيذاء لَكانَ ذلك خيراً لهم عند الله تبارك وتعالى، لأن المَلَكيْن اللذين نزلاَ لتعليم السحر قال الله سبحانه وتعالى عنهما: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ.. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [البقرة]

المعنى الإيمانى للعبادات

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة 104]

الإيمان بالله حيثية تنفيذ أوامره ونواهيه، والمؤمن يفعل ما أمر به، ليس لمَا فيه فائدةٌ بقدر ما هو تنفيذٌ لتعاقد إيمانى حيث آمن بألوهية الآمر، وعليه أنْ ينفذَ منهجه، وتلك تَبعاتُ الإيمان.

ومن هنا فإن كلَّ نداء من الله يبدأ بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة 104] إنما يدل على أن ما يأتى بعد هذا القول هو تكليفٌ لمَنْ آمن بالله، وليس تكليفاً للناس على إطلاقهم ؛ لأن الله لا يُكلِّف مَنْ كفر به، وإنما يُكلف مَنْ آمن به ؛ لأنه صار أهلاً للتكليف والمخاطبة.

وعلى ذلك فإن الامتناع عن محرمات الله لا يُوجب رضا الله إذا كان انطلاقاً من البُعد عمَّا حرَّم الله، فمثلاً إذا كان إنسان من طبيعته تجنُّب شرب الخمر لأنها تُذهب العقلَ وتُفسد الكبد والبُعد عن الزنا والاستنكاف من الربا وغير ذلك.

لكنه يفعل ذلك لأنه يرى فى كل ذلك شراً وضرراً، وليس لأن اللهَ أمر بذلك، فلا يكون هذا الشخص فى دائرة الإيمان، لأنه لم يفعل ما فعل بناءً على أمر أو نَهْى من الله، أما المؤمن فإنه يفعل الأشياء لأنه أمر بها وينتهى عنها لأنه نهى عنها.

إذن: فالذين أرادوا أنْ يفسروا العبادات تفسيرات مادية بأن الصلاة مثلاً نوعٌ من الرياضة، والصيامُ نوع من إراحة المعدة والبدن وعلاج بعض الأمراض، والحج لون من الرحلة.

الذين فسّروا العبادات هذا التفسير قصر بهم النظر كثيراً وأرادوا أنْ يجعلوا لما هو فوق المنطق منطقاً، وهو اجتهادٌ منهم، إلا أنهم جهلوا أن ميثاق الإيمان الذى أخذه اللهُ على عباده أوجب على المؤمنين تنفيذ منهج منْ آمنوا به، وذلك هو التفسير الأشمل والأعم للعبادة.

فى العبادة.. لا تبحث عن العلة

من طبيعة الإنسان ألاَّ ينفذ أمراً إلا إذا عرف أسبابه وعلَّته، فإنِ ارتضاها نفَّذ، وإن لم يرتضها امتنع عن التنفيذ، إلا أنه إذا جاء الأمرْ من أعلى إلى أدنى فإنه قد لا تقدم العلة، لأن العلة تُقدَّم من مُساو للإنسان فى المرتبة، ولكن من غير المُساوى كالأب والأم لابنهما والطبيب لمريضه، والقائد لجنوده، فلا يسأل عن علة فى هذه الحالة قبل التنفيذ، لأن الذى أصدره أحكمُ من الذى صدر إليه.

ومن هنا فإنَّ كلَّ مكلَّف لو لم يُنفذ أوامر الله التى كلَّفه بها إلا بعد أن يتحقق من الأسباب التى دعتْ إلى التكليف يكون قد فعل الأمر بعلته لا تنفيذاً لأمر الخالق الذى يعبده فيزول الإيمان، ويستوى أنْ يكونَ الإنسان مؤمناً أو غير مؤمن، ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله.

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعاً، عرف علَّته أو لم يعرف، ويقوم بتنفيذه لأنه صادرٌ من الله، لذلك فإن تنفيذَ أى أمر إيمانى يتم لأن الأمر صادرٌ من الله.

لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [البقرة 104] أى: يا مَنْ آمنتم بالله رباً وإلهاً خالقاً، خُذوا عن الله وافعلوا لأنكم مؤمنون بمَنْ يأمركم.

إذن: فالإنسان حين يعبد ربه فإن كل ما يفعله يفعله طاعةً لله، سواءٌ عرف العلة أو لم يعرف، فالذى يؤدى الصلاة لأنها مثلاً رياضة أو وسيلة للاستيقاظ المبكر، أو أنها حركاتٌ لازمة لليونة المفاصل، فإن صلاته تكون بلا ثواب ولا أجر، وأحرى به إنْ أراد الرياضة أنْ يذهب إلى ناد أو مدرب ليتعلم الرياضة البدنية على أصولها.

أما إنْ أراد عبادة الله كما أمره فلتكُنْ صلاته لأن الله فرضها عليه، وكذلك كل العبادات.. لذلك تُعتبر النية أساس كلِّ فعل، بل إن النية تحمى الذين يفعلون المُنكرات عن جهالة وعدم علم فلا يُؤاخذون بها ما دامتْ نياتُهم غير مُتجهة إلى الإثم.

فقد ينوى طبيبٌ معالجةَ مريض ما، وأثناء العلاج حدث ما أصاب المريضَ بسوء أو فقد حياته، فما دام الطبيبُ لم يهمل، ولم يُقدم إلى فعل ما ليس خبيراً فيه، فإنه يُثاب على جهده الذى بذله ونيته فى إنقاذ المريض رغم وفاة المريض.

طلاقةُ قُدرة الله

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [البقرة]

المْلك أىّ ملك يقتضى مالكاً، ويقتضى مملوكاً، ويقتضى قدرةً على استمرار هذا الملك وعدم زواله، كذلك يقول الله سبحانه وتعالى فى استفهام استنكارى وتقريرى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [البقرة]

كأنَّ اللهَ يريد أنْ يُبينَ لنا أنه يقدر ويملك المقدرة والإنسان ليست له قدرةُ التملُّك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه، والإنسان لا يملك الفعل فى الكون فإن أراد مثلاً أنْ يبتنىَ عمارة ربما لا يجد الأرض، وإنْ وجدَ الأرضَ ربما لا يجد العامل الذى يبنى، فإنْ وجده ربما لا يجد مواد البناء، فإنْ وجد هذا كله قد تمنعه الدولة.

ولأن لله طلاقةَ القدرة فى الكون فقد يظن البعض إذا ملكوا أمراً ما أنه لايمكن لأحد أنْ يُزعزهم عنه، وأنهم ملكوه إلى الأبد، وقد كان اليهودُ فى المدينة عندما هاجر إليها رسول الله ﷺ يملكون المالَ، ولهم معرفةٌ ببعض العلم الدنيوى لذلك سادوا المدينةَ وبدأوا يمكرون بالرسول ﷺ، إلا أن النهاية كانت على عكس الحسابات الدنيوية العادية ؛ ذلك لأن اللهَ يهَبُ المُلْكَ لمَنْ يشاء وينزع المُلْكَ ممَّنْ يشاء، ومن هنا خرج اليهودُ من المدينة أذلاء نَكالاً من الله لما كادوا به المسلمين.

وليس هذا إلا لطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى، وأن المُلْكَ له وحده.

ومما يُروى فى طلاقة قدرة الله التى تدخل فى نظام الكون الرتيب الذى لا تتغير نواميسه أن رجلاً كان يسير فى الطريق ليلاً فتقدم منه العَسَس، وهم الجنود الذين يتفقدون أحوالَ الناس ليلاً، فجرى فجرُوا وراءه وأمسكوه، وكانوا قد وجدوا جثة فى الطريق نفسه، فاتهموه بالقتل، وأنه لم يَجْر منهم إلا لأنه القاتل، ولم يستطع أنْ يردَّ عليهم بما يُبرئه، فطلب منهم قبل أنْ يُنفِّذوا فيه القصاص أنْ يُمهلوه حتى يصلى ركعتين لله قبل تنفيذ حَدِّ القتل، فتركوه يُصلى.

فصلى ودعا اللهَ قائلاً: اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد على براءتى إلا أنت، وأنت أمرتنا ألاَّ نكتم الشهادة، فأسألك ذلك فى نفسك.

وبينما هم كذلك إذ أقبل رجلٌ ليعلنَ أنه القاتل، ويُقرَّ بجريمته، ويذكر دوافعه للقتل. وعندما سألوه عن سبب اعترافه ذكر أنه لم يكُنْ فى نيته الاعتراف، إلا أن ضميره فجأة بدأ يُؤنِّبه، فقرر الاعتراف.

وتلك قصة لا تسير مع النواميس، وإنما تؤكد طلاقة القدرة.

معنى الأَبّ فى القرآن

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

[البقرة]

جاءتْ الأُبوّة فى القرآن ليُراد بها الأب الحقيقى أحياناً، وأحيانا يُراد بها الأعمام والأجداد، وهو ما يتنبه إليه الذين يْدركون أسرار اللغة وإيحاءاتها، فأتى ذكْرُ الأب الحقيقى دون تسميته. أما إذا كان عماً أو جداً فيأتى مصحوباً باسمه، وهو ما يستخدمه الناسُ فى القرى فيقول الولد: أبى فلان.. إذا أراد عَماً له أو منْ يقارب أباه فى السنّ.

ومن هنا نستطيع أنْ نفهمَ قولـه تعالى فـى حديثه عـن إبـراهيم عليه السلام: ﴿ إِذ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ ﴾ [مريم]

وقوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة]

فالآية الأولى... يتحدَّث فيها إبراهيم عليه السلام مع أبيه بمنهج الابن الذي علّمه الله أدبَ الحوار مع الأب، لذلك لم يذكر فى الآية اسمه، لأن عدم ذكر الاسم يعني أنه أبوه الحقيقي، وذكر الاسم إعلانٌ بأن كلمة الأب تكريمٌ وأدبٌ فقط.

أما الآية الثانية فيبدو فيها الحوارُ حوارَ حُجّة يُقدّمها مَنْ يملكها لمن لا يملكها، ولا تتضمن الآيةُ ما فى حوار الابن مع أبيه من حنان ومودة وخجل فى توصيل حقيقة خطأ الموقف الذى يقف عليه أبوه، فجاءت

الآية الأولى بنداء (يَتأَبَت) ولم يقُلْ أبى، وتاء التأنيث ضُمّتْ إلى كلمة أب لتتضمن حنان الأب وحنان الأم معاً.

لكن الآية الثانية جاءتْ على شكل استفهام استنكارى بحقيقة لا مواربةَ فيها وهى الضلال المبين.

أما الآية الثالثة فتتضح فيها حقيقةُ القاعدة الاجتماعية فى التخاطب مع الأكبر سناً، وفى التعامل مع أصول الإنسان حيث يعتبر الأب ومَنْ عَلا أباً، وكذلك الأب وما فى مستواه، وكذلك الأم حيثُ كان ردّ أبناء يعقوب عليه عندما سألهم فى لحظاته الأخيرة ليطمئنَ على مستقبلهم الإيمانى من بعده، فقالوا: ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ. ﴿١٣٣﴾ ﴾

[البقرة]

أى: أنهم اعتبروا جدّهم لأبيهم، وجدّهم عم أبيهم، وجدّهم جدَ أبيهم آباء لهم.

حديث السُّفهاء

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة]

من إعجاز القرآن الكريم وعظمته إخباره بأحداث وأفعال سوف يفعلها أعداؤه المُسفِّهون له قبل أنْ يفعلوها، الأمر الذى يجعل بمقدورهم

الانصراف عمَّا سيفعلونه حتى يُثبتوا صدقَ شُكوكهم، ألا أن ذلك لا يحدث ويقوم الكافرون والمنافقون بإتيان ما سبق وأخبر به اللهُ سبحانه وتعالى، وكأنهم يشاركون فى تأكيد صدق ما يتشكَّكون فى صدْقه.

ولا شكَّ أن أمراً كهذا لا يمكن أنْ يكونَ إلا إذا كان القولُ من لَدُن حكيم عليم، فعندما يخبر اللهُ رسوله الكريم بما سيفعله اليهودُ والكفارُ عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المُطهرة، فإن الطبيعى لكى يثبتَ اليهودُ شُكوكهم وطَعنهم فى الإسلام أنْ يتوقَّفوا عن الإقدام عن قوْل ما أخبر به القرآنُ، أنهم سيقولونه.

وهو ما جاء فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [البقرة]

وبالفعل قال اليهود: ما ولاَّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، وقبل ذلك كانوا يقولون: ((يُسفِّه ديننا ويُصلى إلى قبلتنا))، وكأنهم أرادوا بسؤالهم ﴿ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ﴾ أنْ يقولوا نحن السفهاء الذين عَنَانا القرآن، وأرادوا أنْ يقولوا إن القرآنَ صادقٌ فقد أخبر بما سيحدث، وها هو يحدث.

كذلك عندما يقول الله تعالى: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴿٣﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

فقد كان يستطيع أبو لهب أنْ يقول: أشهد أن لا إلهَ إلا الله وأن محمداً رسولُ الله. مُدعياً الإسلامَ حتى يثبت كذبَ القرآن كما كان يقول، ولكنه لم يفعل، وكأنه أراد أنْ يؤكد صدقَ القرآن من حيث كان يسعى إلى تكذيبه.. وأمثلة كثيرة على ذلك.

مسئولية البلاغ

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

تبليغ العلم الدينى مسئوليةُ كلِّ مَنْ يعلم شيئا منه، وهو فرضُ كفاية إذا قامتْ به بعضُ فئات الأمة سقط عن الآخرين.

والبلاغ عن رسول الله ﷺ أمر ضرورى، لأنه امتدادٌ لشهادة رسول الله ﷺ الذى بلَّغ عن الله سبحانه وتعالى، وبقى أنْ يُبلِّغ الناس الذين بلَّغهم الرسول أُناساً آخرين بعدهم.

لذلك يقول الله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.. (١٤٣) ﴾ [البقرة]

إذن: فكما أن الرسولَ سيشهد بأنه بلَّغ المسلمين فمن صميم المنهج أنْ يشهدَ أتباعه أنهم بلَّغوا الناس، فإنْ حدث تقصيرٌ فى البلاغ إلى الناس فستكون المسئوليةُ على مَن اتبع رسول الله ﷺ ولم يُؤدِّ أمانةَ الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الناس أجمعين.

والدعوة إلى الله تتطلب أنْ يأخذَ الداعى يدَ الذين ينحرفون عن منهج السماء اتباعاً لشهوات الأرض، وشهوات الأرض جاذبةٌ دائماً للخَلْق، لأنها تُحقّق العاجل من مُتَع النفس، واتباع منهج الدين كما يقولون يُحقق نفعا آجلاً.

وفى هذا القول ظلمٌ للدين، لأن الدينَ قبل أنْ يُحقق للناس متعةً آجلة فهو يحقق أيضاً متعةً عاجلةً لأن الناسَ إذا تمسَّكوا بمنهج الله فى (افعل) و (لا تفعل) يعيشون حياة طيبة لا حقدَ فيها ولا استغلالَ ولا ضغن ولا حسدَ ولا سيطرةَ ولا جبروت.

ومن هنا فإن مهمةَ الدين ليستْ الآخرةَ فقط، وإنما الآخرة والدنيا، والآخرة إنما هى ثوابٌ على النجاح فى هذه المهمة، لأن الله إنما يُجازى فى الآخرة مَنْ أحسنَ العملَ فى الدنيا، ومَن اتبع منهجَ الله فإن حياته ستكون طيبة وسعيدة لقوله تعالى: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل]

تكليفات الأمة الإسلامية

من التكليفات التى اختصت بها الأمة الإسلامية دون غيرها من الأمم التبليغ للأمم الأخرى، وأن الله سيسألها عن ذلك يوم القيامة، وهو ما لم تُكلَّف به الأمم السابقة.

ذلك لأن الدين الإسلامى هو الدين الذى تقوم به الساعة، وأتباعه مأمونون على البلاغ عن الله تعالى خلافةً للرسول ﷺ،

الإسلامي نحو الأمم الأخرى مسئولية ذات شقين

الشِّق الأول: هو مسئوليةُ التبليغ نحـــو الأمـــم، ومـــن هنـــا كـــان قول الرسول ﷺ: ((نضَّر الله امــرءاً ســمع مقــالتى فوعاهــا وأدَّاهــا إلى مَنْ لم يسمعها فرُبَّ مُبلَّغ أوْعــى مــن ســامع)). ونضَّـــر –بفــتح الضاد المشددة– تعنى: أفاء.

أما الشِّق الثانى من المسئولية فكان حراسة الاختيار. أى: أنها تقف فى وجه الذين يُكرهون الناس على اعتقاد معيَّن لتسمح للناس بأنْ يختاروا بين الحق والضلال.

ومن هنا كان قوْل الله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝ ﴾ [الشعراء] فالله سبحانه وتعالى يريد قلوباً تخشع لا أعناقاً تخضع، وقد تأكدتْ حرية الاختيار فى أكثر من موقع، كقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ.. ۝ ﴾ [الكهف]

وعلى ذلك فإن الادعاء بإكراه المسلمين الناسَ على الإسلام لم يَكُنْ صحيحاً، بدليل أن الإسلام كدين لم يتمكَّن فى البلاد المفتوحة فوْر

فتحها، وإنما بعد فترة، ولا يزال فى بعض البلاد الاسلامية بعضُ الناس على دياناتهم.

وأكثر من ذلك أن الإسلام يتشدَّد مع الداخلين فيه، حيث إنه مَنْ دخل لا يجوز له الخروج منه وإلا أُعدم، وهو ما يجعل الذى يختار الإسلام ديناً له أنْ يتمهّل ويستوثق، ويتأكد من صحته وصوابه.

الأقصى ثم الكعبة.. ترتيب منطقى

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾ [البقرة]

تحويل القبلة من الأحداث العظيمة والمهمة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، بل إن الصلاة إلى بيت المقدس فى أول الدعوة كانت من أجلِّ وأعظم الأحداث أيضاً، خاصةً أن العربَ كانوا يُعرفون بنُبوَّة أبيهم إبراهيم، ويعرفون أن البيتَ الحرامَ بمكةَ هو بيتُ الله فى الأرض الذى أمر نبيه إبراهيمَ برفْع قواعده.

ولكنهم كانوا يقولون: إن الكعبة بيتنا وبيتُ آبائنا وليست بيتَ الله، فلم يشأ اللهُ أنْ يجعلَ القبلة إلى الكعبة أولَ الأمر، لأنهم كانوا يُقدّسونها على أنها بيتُ العرب، وكانوا يضعون فيها أصنامهم.

لذلك صرف اللهُ رسوله فى أوائل الإسلام إلى بيت المقدس لكى يكون قبلةً أولى يحقّ على المسلمين صيانتها وحمايتها والذَّوْد عنها وتعظيمها.

كما أراد الله سبحانه وتعالى من اتجاه المسلمين إلى المسجد الأقصى أن يحتوى الإسلامُ كلَّ دين قبله، فتكون القداسة للكلِّ.. وبذلك كان هذا الترتيبُ منطقياً.

ولأن اليهود اعتادوا النفاق والكذب والجدال الذى لا طائلَ تحته، وتحريف الكلم عن مواضعه فقد سخروا من المسلمين وهم يتجهون إلى بيت المقدس، وقالوا: يُسفّه ديننا ويتبع قبلتنا.. الأمر الذى جعل الرسول الكريم ينظر إلى السماء مُتمنياً الصلاةَ إلى الكعبة دون أنْ يبوحَ بمكنون نفسه، وهو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ.. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

فأعاد الله الأمر إلى ما كان عليه منذ أنْ وضع اللهُ أولَ بيت فى الأرض، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ (٩٦) ﴾ [آل عمران]

وأخبر الرسول بأن الكفرَ هو الكفرُ فى كلِّ تصرفاته إذا كان اللهُ شرقاً قال غرباً، وإنْ كان غرباً قال شرقاً، فقال تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة]

الابتلاء ليس شراً كما يعتقد البعض، ولكن الشرَّ هو أن يفشل الإنسان فى التجربة ولا يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح فى الابتلاء. أما الذى يبذل الجهود ويفوز فى الابتلاء فالامتحان خيْرٌ له.

ومن هنا كان قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [البقرة] هو إخبار بأن الله سبحانه وتعالى لا يترك عباده المؤمنين دون اختبار لإيمانهم، وإنما يمتحنهم بين وقت وآخر ليُمحِّص إيمانهم ويُقوِّى ثباتهم.

وتُعتبر قمة الابتلاءات فقدان الحياة مقابل الثبات على الحق والدفاع عنه، وقد بشَّر اللهُ المؤمنين الذين يُمتحنون فى إيمانهم بفقدان الحياة بأنْ يظلوا أحياء، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [البقرة]

وفى درجات الابتلاء يأتى الخوفُ والجوعُ ونقصُ الأموال ونقص فى عدد الإخوة المؤمنين وكذلك نقص فى الثمرات، وكلّ هذه أشياء

يحبها الإنسان ويأتى التكليف ليطلب من المؤمن أنْ يتركَ بعضاً مما يحب، وتلك الابتلاءات تدخل فى نطاق بقاء التكليف.

والخوفُ ابتلاءٌ يصيب النفسَ الإنسانية بعدم الانسجام، وهو كما عرَّفه العلماء: خَوَر لا ضرورةَ له. لأن الإنسان إذا كان يريد أنْ يُؤمِّنَ نفسه من أمر يُخيفه فإنه يحتاج إلى أنْ يجتهدَ بأسبابه ليفوق هذا الذى يخيفه.

أما إن استسلم للانزعاج فلن يستطيعَ مواجهة الأمر المُخيف بكل ملَكاته، لأنه سيُواجهه ببعض المَلَكات الخائرة المضطربة، بينما يحتاج إلى استقرار المَلَكات النفسية ساعةَ الخوف حتى يستطيع أنْ يمدّ نفسه بما يُؤمِّنها من هذا الخوف.

العودة إلى الحق

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾ [البقرة]

التوبة تعنى الرجوع إلى الله، فعندما يتوب العبدُ فهو يعود إلى ربه طالباً المغفرة عن العصيان والذنب، وعندما يتوب اللهُ على العبد فذلك يعنى أن الله قَبلَ توبته، وقد شرعَ اللهُ التوبةَ وقنَّنها ليفتحَ باب الرجوع إليه.

والعودة إلى الحق أو التوبة لها شروطٌ كى تكونَ صحيحة، أولها إصلاح ما فسد. أى: أن الإنسان إذا أذنب ذنباً لا بُدَّ له أن

يصلح هذا الذنب من جنس ما فعل، فإنْ فعل ذنباً سراً يكفيه في التوبة أن يتوبَ سراً.

أما إنْ كسر حَداً من حدود الله عَلناً فلا تستقيم توبته سراً لأنه لا يصح أن يعصى إنسان اللهَ علناً أمام الناس، ويبدو قدوة سيئة للآخرين يتجرؤون على فعل هذه المعصية ثم يتوب سراً. وهنا يجب أنْ تكونَ توبته علناً.

لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة] أي: أنهم أعلنوا التوبة وهي أمر ذاتيّ، وأصلحوا بمقدار ما أفسدوا، وبيّنوا للناس بمقدار ما كتموا، ومن هنا كان شرطُ التوبة أن يعودَ كلُّ حقٍّ لصاحبه، فالذى كتم شيئاً عليه أنْ يُبيِّنه، فالكتمان لا يُؤثر فقط فى العلاقة بين العبد وربه، ولكنه يضرُّ بالعباد.

ومن لُطْف الله بالإنسان أنْ شرع له التوبةَ حتى يشعرَ الناسُ بالذنب، وجعلها من فعل التائب، ومن فعل قابل التوبة وهو الله سبحانه فقال ﴿ تَابُوا ﴾ و﴿ أَتُوبُ ﴾ فى قوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[البقرة]

كلُّ ذلك حتى لا يستشعرَ الإنسانُ عندما يرتكب ذنباً ويتوب أنها مسألة مستعصية، أما الذين يُصرون على الإثم ويُصممّون عليه فإن لهم شأناً آخرَ وهو اللعن من الله والملائكة والناس أجمعين، حيث يقول الله بعد

هذه الآية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [البقرة]

تنبيهٌ منَ الله

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة]

من حكمة الله فى خَلقه أنْ جعلنا نستقبل نعمةَ الوجود فى ذواتنا، لأن ما دونه إما نعمة، وإما مُنعَم عليه بالنعمة، وهى كلها نفحات الرحمن ، وما دام كل شيء ما عدا الله إما نعمة، وإما مُنعَم عليه، فلا يجوز أنْ نصفَ نعمةً بأنها إلهٌ، ولا يُقال فى المُنعم عليه أنه إلهٌ.

فالنعمة موهوبةٌ والمُنعَم عليه موهوبٌ إليه، لكن الذين يُفتتنون إنما يُفتتون فى الأسباب، والله سبحانه هو المُسبِّب لكل الأسباب، لذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

ثم يُنبِّهنا اللهُ سبحانه أنْ ننظرَ فى الكون لنتأكد من هذه الحقيقة ونتأمل فيما فيها، فإنْ وجدنا أحداً يدَّعى ما فى الكون لنفسه فإنْ لم نجد فلننسب النِّعَم إلى مُوجدها، وهو الله سبحانه وتعالى.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾

[البقرة]

والآية تُنبهنا وتلفت عقولنا إلى أن اللهَ سبحانه خلق الإنسانَ مُنعماً عليه، وخلق كلَّ ما فى الكون نعمةً له، والدليلُ على ذلك الكونُ نفسه، كما أنه ليس من المعقول أنْ يخلق غيرُ الله كلَّ ذلك الخَلق ثم يسكت عنه، فضلاً عن أن أحداً لم يدَّع أنه خلقها، وهذا دليلٌ على أن اللهَ واحدٌ أحد.

كما أنها أكبر من خَلْق الإنسان نفسه، حيث يقول سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

وذلك لأن الناسَ من الأرض قد خُلقُوا، وبما فى الأرض عاشوا، والسماوات والأرض خُلقوا من عدم، وكلُّ ذلك أهونُ على الله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

بالقول والعمل يكون السلام

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾

[البقرة]

السلام والأمن من لوازم الحياة الإنسانية، لأنه لا تستقيم حياةٌ فى ظلٍّ الخوف والترقب والتربُّص، لأن ذلك لا يكون إلا فى ظروف استثنائية يصبر عليها الإنسان لأنه يدرك أنها زائلةٌ بعد فترة قليلة.

بل إن السلام لا يقتصر على علاقة الإنسان بما حوله، بل يجب أن يكونَ هناك سلامٌ بين المؤمن ونفسه، فلا يتناقض لسانه مع ما فى قلبه، فلا يكون مؤمنَ اللسان كافرَ القلب، حتى يوفر الانسجام مع النفس فلا يعانى من صراع المَلَكات الإنسانية، لأن الصراع الداخلى هو بابْ الفساد والتخبُّط والأمراض النفسية، وكل ذلك له انعكاساته على قرارات الإنسان وتعاملاته مع الآخرين.

والدخول فى السلم كافة هو هذه المصالحة التى تتم بين الإنسان وداخله، وبينه وبين كلِّ ما حوله فيصبح داخلاً فى السلم مُحاطاً به، ومن هنا كان التحذيرُ الذى أعقب أمرَ الدخول فى السلم: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ.. ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة] ذلك لأن الشيطان هو الذى يستطيع أن يُخرج الإنسان من داخل السلم الذى يعيش به وفيه، حيث إن عداوته للإنسان هى القاعدة، كما أن الآية تُوحى بأن خطوات الشيطان خارج دائرة السِّلم، واتباعها هو وسيلةُ الخروج من هذه الدائرة الآمنة.

تقليدُ الآباء

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة]

تقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة أمرٌ تقتضيه طبيعةُ الوجود، وحين يدعو اللهُ الناسَ أنْ يتبعوا ما يُنزله على الرسل فهو ينهاهم أنْ يتبعوا تقليدَ الآباء فى كلِّ حركاتهم، لأنه قد تكون حركةُ الآباء قد اختلَّتْ بالغفلة عن المنهج، أو بنسيان المنهج.

لذلك يدعو اللهُ الناسَ أنْ يتركوا هذه الأشياء ويتبعوا ما أنزل اللهُ، ولأن عادات ومنهج الأرض قد تتغيّر، لكنَّ منهجَ السماء دائماً لا يتغير.

والناس حين يحتجُّون يقولون: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ.. ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان] وتلك قضية تبريرية فى الوجود، ولو كان حقاً وصدقاً ومُطابقاً للواقع لما كرَّر اللهُ الرسالات بعد أنْ علَّم آدمَ كلَّ المنهج الذى يريد، لأننا لو كنا نتبع ما ألفينا عليه آباءنا لكان أبناء آدم سيتبعون ما كان يفعله آدم، وأبناء أبناء آدم يتبعون آباءهم، وهكذا يظل منهجُ السماء موجوداً ومُتوارثاً فلا تغييرَ فيه.

لكن هذا لم يحدث، فقد غيَّر الناسُ المنهجَ، وقولهم ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ.. ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة] يُؤكد كذبَ قضيتهم لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم منذ آدم لظلَّ منهجُ الله فى الأرض مُضيئاً.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

[البقرة]

وقوله (ٱتَّبِعُوا) أى: اجعلوا ما أنزل عليكم من السماء متبوعاً، وكونوا تابعين لهذا المنهج لا تابعين لسواه، لأن ما سوَى منهج السماء هو منهجٌ من صناعة أهل الأرض، وهو منهجٌ غيرُ مأمون.

الأسْباب فيمَا بَعد

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾

[البقرة]

من الأشياء التى حرَّمها اللهُ على عباده مُحرمات لتأديبهم على ظلمهم لأنفسهم غير المحرمات التى حُرِّمت عليهم لتجنيبهم ضررَ استحلالها وآثاره السلبية عليهم.

ونلحظ مُحرَّمات التأديب فى قوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ.. ﴿١٦٠﴾ ﴾ [النساء]

فالله سبحانه منع ما يضرُّ الإنسان فى بدنــه، ومنــع أيضــاً بعضــا من الطيبات على بعض المخــالفين كتأديــب لهــم، وبالنســبة لتحــريم الخنزير فقــد شــاءت إرادةُ الله عــز وجــل أن يكشــفَ لخَلقــه ســرَّ التحريم، فأثبت العلماءُ أن هنــاك أمراضــاً فــى الخنزيــر لــم تكُــنْ معروفة قبل ذلك، وتبــيَّن لهــم خطورتهــا مثــل الــدودة الشــريطية، وربما هناك أسرارٌ أخرى أخطر من الدودة الشريطية.

كما حرَّم الله ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ .. ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة] وهو التكبير باسم الله أثناء الذبح.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة]

فالمُضطر قد يلجأ إلى فعل المُحرَّم كما جاء فى الآية، إلا أن الاضطرار له شرطٌ، وهو أنْ يكونَ غيرَ باغ ولا عَاد. أى: غير متجاوز للحَدِّ فيفعل المُحرَّم على قَدْر حاجته الضرورية مثلاً لا يقول: إن الله أحلَّ الميتةَ لمثلْ ما أنا عليه من الاضطرار ويملأ بطنه منها.

لا. إن عليه أنْ يأخذَ على قَدْر استبقاء الحياة، ولا يظن أن ذلك يصبح حلالاً، بل يقول: إن هذا حرامٌ أُبيحَ للاضطرار.

المُخطئون.. ثلاثةٌ

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة]

من فضل الله على عباده أنْ جعلَ النية وإرادةَ الفعل أساساً من أُسس المحاسبة فى الآخرة، فقد يرتكب شخصان مخالفةً واحدة، يُعاقَب عليها أحدهما، ويُسامَح الآخر، وقد يُثاب، لأن المعاقبَ فعل المعصيةَ، وهو يعلم والآخر فعلها عن جهل "مثلاً"، وهو ما يشير إليه قوله ﷺ: ((رُفعَ عن أمتى: الخطأ، والنسيان، وما استُكرهوا عليه)).

إذن: فالناسُ أمام المخالفة ثلاثة فرق: فريق يخالف رغبةً فى المخالفة والعصيان، وفريق يخالف مُضطراً، وآخر يُخالف جهلاً أو نسياناً.

فالذين يقعون فى المخالفة مُضطرين اضطراراً ليس فيه شَكٌّ، فإنهم من الذين قال الله فيهم: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة]

أما الذين يقعون فى الخطأ جهلاً فهُمُ الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء] فهُم قومٌ يقعون فى الخطأ دون قصد، فإذا علموا أنهم أخطأوا تابوا إلى الله فوراً.

أما الذين يخالفون عناداً ورغبةً فى المخالفة فهم أولئك الذين وصفهم اللهُ بأنهم ظلموا أنفسهم بتصرُّفهم فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة]

وقد مثَّل القرآنُ لهم بما فعله بنو إسرائيل من مخالفات ومعاندات وتعجيز لنبيهم موسى عليه السلام، فكانوا كلما استجاب لطلب من طلباتهم طلبوا آخر، فقد كانوا يعيشون فى الصحراء بلا واقٍ من شمْسها المُحرقة وبلا طعام أو ماء، فكان اللهُ يرزقهم كلَّ يوم بالمَنِّ والسَّلْوى، وكان يُظللهم بالغمام لكنهم قالوا إننا نخشى أنْ نستيقظَ فلا نجد المنَّ والسَّلوى ولا الغمام.

وطلبوا من موسى عليه السلام أن يدعوَ اللهَ لهم بأنْ يدخلوا قرية يجدوا فيها طعاماً وشراباً أمامهم بدلاً من الذى ينزل عليهم من السماء كلَّ يوم.

وهو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

فقد أمرهم الله سبحانه وتعالى أنْ يدخلوا القرية التى قيل: إنها الأردن، وقيل: إنها فلسطين. ليجدوا ألواناً كثيرة من الطعام يأكلون منها ما شاءوا، وأنْ يدخلوا البابَ خاشعين ساجدين، وأنْ يقولوا " حطة " أى: حُطّ عنَّا ذنوبنا.

وهو أمرٌ بسيط وهيِّن، إلا أنهم قالوا: حنطة بدلاً من حطة رغبةً فى المخالفة لمجرد المخالفة، وبدلاً من أنْ يدخلوا البابَ ساجدين خاشعين دخلوا زاحفين على ظهورهم، وهو أمرٌ أصعبُ من المطلوب منهم لمجرد المخالفة.

أقْوى الإيمان

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة]

الإيمان قوس.. طرفه الأول: اليقين بالله. وطرفه الثانى: اليقين باليوم الآخر. فالإيمان بالله بداية، والإيمان باليوم الآخر نهاية.

وقد يسأل سائل: كيف للإنسان أنْ يؤمنَ باليوم الآخر؟

والإجابة أنه إذا آمن الإنسان بالله، وتمكَّن ذلك الإيمان من قلبه فإنه سيؤمن بما يخبره به اللهُ لا شكَّ فى ذلك، فيؤمن بالملائكة التى هى غيبيات ما دام الله قد أخبره بوجودها، ويؤمن بالجن برغم أنه لا يراهم واليوم الآخر مادام قد آمن بالقمة وهى الله٠

والمسائل الإيمانية كلها غيبية، لأنه لا يصح أنْ يطلب من الإنسان أن يؤمن بأمر حسىٍّ، لأن المحسوسات مرئيات لا تحتاج من الإنسان أن يطلب منه الإيمان بها، ولذلك فإن الغيبيات كما يقولون هي أرضية الحركة الإيمانية أو أساس الإيمان٠

لذلك جعله الله تعريفاً للبرِّ، فتوجُّه الإنسان إلى جهة معينة أمرٌ لا جهد فيه أو مشقة أو جهاد نفس، ولكن تحوُّل القلب واعتقاده بالله الواحد الأحد وتركه ما دونه وانسجام النفس والجسد والتصرُّف على هذا الاعتقاد هو البر الحقيقى٠

بل إن هذا الإيمان تتبعه بقية تبعاته، وهى تبعات شديدة على النفس التى لم يتمكَّن منها الإيمان، ومنها الإيمان بالملائكة وبالرُّسل وبالكتب وباليوم الآخر، وتقديم المال –وهو عزيز– عن طيب خاطر للمحتاجين وإقامة الصلاة والوفاء بالعهد، ولو كان فيه ما يضرُّ بالإنسان، والصبر على البلاء سواء فيما يقع بالإنسان أو فى مُلاقاة العدو٠

العدل حالة إسلامية

﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

العدل هو القاسم المشترك الأعظم فى الدين الإسلامى، وهو حالة إسلامية يجب أن تكون قائمة فى حياة المسلم فى كلّ ما يأخذ، وكلّ ما يعطى، وكل ما يتلقاه عن الآخرين، وكل ما يكون طرفاً فيه.

ولا يجوز للمسلم فى لحظة أن يتعللَ بعدم المسئولية عن الجور ما دام قادراً على إعادته إلى صوابه ولو لم يَكُنْ طرفاً فيه، وهو ما نلمحه فى حديث القرآن عن الوصية، حيث يُحذِّر القرآن من عدم الوفاء بالوصية التى أوصى بها الميت.

ذلك لأن الهدف منها إرضاء بعض ذوى الأرحام الذين ليس لهم نصيبٌ شرعىّ فى الميراث أو منح مَن قدَّموا للميت خدمات طيبة فى حياته، أو يعتقد الميت أنهم سيُحسنون التصرُّف فيما أوصى به لهم.

لذلك يقول القرآن محذراً: ﴿ فَمَن بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾ [البقرة] ثم يأتى الاستثناء الذى يكون فى حالة الشعور بأن إثماً قد حدث من قبَل المُوصى سواءٌ كان الولىّ أو المُوصَى له، أو مَنْ يتدخَّل ليُصلح بين الورثة، فيقول تعالى: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

فالله سبحانه وتعالى يريد العدل للجميع، فإذا كانت الوصيةُ زائغة عن العدل وعن الصراط المستقيم، وكان فيها حرمانٌ للفقير وزيادة فى ثراء الغنىّ أو ترك للأقربين، فهذا ضياع للاستطراق الذي أراده الله، فمَنْ جاء يسعى فى الخير ليرد الوصية إلى الصواب، فلا إثمَ عليه فى التغيير الذى يُحدثه فى الوصية ليُبدّلها على الوجه الصحيح لها الذى يرتضيه الله، ومناط ذلك النية والضمير، والهدف هو العدل.

الصِّيام لكُلِّ الأُمم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

[البقرة]

الصيام منهجٌ لتربية الإنسان رُوحاً وجسداً خَصَّ اللهُ به المؤمنين بألوهيته الخاضعين لحُكْمه، وإن اختلفتْ الأيام عدداً، أو اختلفتْ كيفيته.

وهو فى معناه لونٌ من الإمساك، قد يكون إمساكاً عن الكلام كما كان فى أمر السيدة مريم عليه السلام، وهو ما حكاه القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾ ﴾　[مريم]

وقد يكون الصوم إمساكاً مُطلقاً عن الطعام أو إمساكاً عن بعض الأطعمة كصيام النصارى.

أما الصوم الذى فرضه اللهُ على الأمة الخاتمة فهو: امسك عن شهوتَىْ البطن والفرج من الفجر حتى غروب الشمس، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة]

والمتأمل فى الآية التى نزلتْ بالركن الرابع من أركان الإسلام يستطيع أنْ يلمحَ بعض إشراقاتها:

أولها أن الله فرض الصيام على المؤمنين به فقط، ولم يخاطب فى الآية الناس جميعاً، ذلك لأن غير المؤمنين به لم يدخلوا في دائرة التعاقد الإيمانى التى تمَّتْ بين الله سبحانه وتعالى والمؤمنين به.

وما داموا قد خرجوا من الدائرة كلها فقد خرجوا من كل ما بداخلها من جزئيات. أما المؤمنون فقد طابتْ نفوسهم داخل دائرة الإيمان فَحقٌ عليهم، ولهم أنْ ينعموا بكلِّ ما فيها.

أما الملمح الثانى الذى يمكن أنْ نلمحه فى الآية فهو فنُّ إلقاء المسئوليات وفرض التبعات، فهو لأن فى الصوم مشقة وهو أمر ليس بالجديد على المؤمنين، فقد خاطبهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وهو أسلوب يحمل ما يحمل من تقريب وحُنو.

فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: يا مَنْ آمنتُم بى وأحببتمونى لقد كتبتُ عليكم الصيام، وعندما يأتى الحكم ممَّنْ آمن الإنسان به، فإنه يثق بأنه يخصُّه بتكليف تأتى منه فائدة له.

وهنا يأخذ المؤمنُ خطابَ الله له ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بمقياس المحبة لكل ما يأتى من الله، حتى وإن كان فيه مشقة.

أما إخبارهم بقوله ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ فهو دَفْعٌ لهم لتحمُّل مشقة هذه الفريضة، لأنهم ليسوا بدعاً فى ذلك، فقد فرضه الله على الذين من قبلنا من أهل الديانات السماوية.

الصيام.. للتدريب على الاستقامة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

[البقرة]

أوضح الله سبحانه وتعالى فى آية فرْض الصيام الهدف من هذه الفريضة فى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة] ومعنى التقوى هو أن يجعل الإنسانُ بينه وبين صفات الجلال وقايةً. أى: يتقى بطشَ الله، ويتقى النار وهى من آثار صفات الجلال.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ أى: أن نهذب سلوكنا فنبتعد عن المعاصى والمعاصى تنشأ فى النفس من شَرَهها فى ماديتها إلى أمر مما حرَّم الله.

والصيام يُضعف شَرَه النفس وحدَّتها وتسلُّطها على الجسد.

لذلك يقول الرسول ﷺ مُخاطباً الشباب: ((يا معشر الشباب.. مَن استطاع منكم الباءةَ فليتزوَّج، ومَنْ لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)).

كأن الصوم يُشذِّب شَرَه المادية في الجسم الشاب، وتقليل الطعام يعني تقليل وقود المادة، فيقلّ السُّعار الذى يدفع الإنسان لارتكاب المعاصى.

الصيام فى رمضان يعطى الإنسان الاستقامة لمدة شهر، فليلحظ الإنسان حلاوة الاستقامة فيستمر بها بعد رمضان، لأن الله لا يحب من المؤمن أن يكون مستقيماً فى رمضان فقط، وإنما اصطفى رمضان كزمن للتدريب على الاستقامة والتقوى.

لتنتظم الاستقامة بعد ذلك فى كل حياة المؤمن، لأن اصطفاء الله لزمان أو اصطفاءه لمكان أو إنسان ليس لتدليل الزمان أو المكان او الإنسان. وإنما يصطفى الله إنساناً رسولاً ليشيع أثر اصطفائه هذا فى كل الناس.

لذلك يمتليء تاريخ الرسل بالمشقَّة والتعب، وهذا دليل على عدم تدليل الرسل، وإنما اصطفاؤهم يكون ليكونوا قدوة وأسوة. كذلك يصطفى الله من الزمان أياماً لا ليُدللها على بقية الأزمنة، ولكن لأنه سبحانه وتعالى يريد أنْ يشيع اصطفاء هذا الزمان فى كل الأزمنة كاصطفائه أيام رمضان.

كذلك يصطفى الله الأمكنة، فالذين يزورون مكة يشعرون بالشفافية والإشراق والتنوير، وهو لونٌ من التدريب على حلاوة الشفافية

والإشراق والتنوير حتى إذا عاد الإنسان إلى بلده ظلّ على حاله من التعبُّد وذكر الله اللذين كانا يفعلهما فى مكة حتى يظلّ شاعراً بحلاوة الإشراق والتنوير والشفافية.

ومن هنا يكون التعجُّب من الذين يستقبلون رمضان بالتسبيح والعبادة، فإذا انتهى رمضان ينسُون كلّ ذلك، كأن رمضان جاء ليحرس لنا الدين لا ليُدرِّبنا على الحياة بخُلُق الصفاء.

الصيام للاستقامة.. طوال العام

الصوم فى معناه اللغوي: الإمساك، لكن الصوم التشريعى يعنى: الصوم عن شهوتَىْ البطن والفرج حتى الغروب، وقد كان الصيامُ الركن التعبدى موجودا فى الديانات السابقة على الإسلام، لذلك كان قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة]

إلا أن الصوم فى الديانات السابقة كان إما إمساكاً مطلقاً عن الطعام، وإما إمساكاً عن ألوان معينة من الطعام كصيام النصارى.

فالصيام إذن هو منهج لتربية الإنسان فى الأديان، وإن اختلفتْ الأيام عدداً، وإن اختلفتْ كيفية الصوم، وكما انتهت الآية بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ فإن الهدف من الصوم هو التقوى، والتى تعنى أن يجعل الإنسان بينه وبين صفات الجلال وقاية، وأن يتقى بطشَ الله، ويتقى النار وهى من آثار صفات الجلال.

إذن: الصوم يُهذِّب السلوك والنفس؛ لأن المعاصى تنشأ من شَرَه ماديتها إلى أمر ما، والصيام يُضعف هذا الشَّره؛ لذلك كان قوله ﷺ: ((يا معشر الشباب مَن استطاع منكم الباءة فليتزوَّج فإنه أغضٌ للبصر وأحصنُ للفَرْج، ومَنْ لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجَاءٌ)) أى: وقاية.

وقد شرع صيام شهر رمضان حتى يدركَ الإنسانُ فى صيامه حلاوةَ الاستقامة، فيستمر فى الاستقامة بقية العام، لأن الله سبحانه وتعالى لا يطلب من الإنسان الاستقامة فى شهر رمضان فقط، وإنما فى كل العام.

وقد اصطفى اللهُ من عباده رُسلاً ليكونوا حاملى رسالته إلى الناس، واصطفى من الأزمنة شهرَ رمضان ليكونَ شهر الاستقامة والتدريب عليها، واصطفى من الأمكنة مكةَ البلدَ الحرام، ليكون بها بيته الذى يحجُّ إليه الناس طالبى المغفرة والقبول.

التدرُّج.. فى فرضية الصوم

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

[البقرة]

تشريع الصوم لم يأت مرة واحدة، بل جاء بالتدريج ككثير من التشريعات التى تتعلَّق بنقل المُكلَّفين من إلْف العادات.

ويلحظ الإنسان عملية التدريج من قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) ﴾ [البقرة]

فكيف يطيق الإنسانُ الصومَ ثم يُؤذَنُ له بالفطْر مقابل فدية هى إطعام مسكين. إذن: كان الصوم اختيارياً فى فترة ما حتى تخرج الأمةُ الإسلاميةُ من دائرة التعوُّد على الفطْر إلى التعوُّد على الصوم.

قوله ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ يؤكد على أن الصومَ كان اختيارياً، فمَنْ أراد أنْ يصوم يَصُمْ، ومَنْ قدَّم فدية عن الصوم قدَّم، وقد كان المسلمون يصومون اختيارياً، ومنهم مَنْ كان يصوم ويطعم.

وقوله ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ كانت خُطوة على طريق تأكيد فرضية الصوم، ثم كان الأمر النهائى فى قوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ ﴾ خاصة أنه لم يَأت مع هذه الآية قوله ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ لأن المسألةَ خرجتْ من الاختيار إلى الفرض.

يرى بعضُ العلماء، وهو ما نطمئن إليه أن عبارة ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ ﴾ إشارةٌ إلى أن الله بدأ مشروعية الصوم بثلاثة أيام من كل شهر، وهو اليوم العاشر والعشرون والثلاثون من أيام

الشهر، وكان الإنسانُ مُخيَّراً فى تلك الأيام التى شرع اللهُ فيها أنْ نصومَ، وإنْ كان مُطيقاً للصوم أنْ يصومَ أو يفدى، أما حين شرع اللهُ الصومَ فى رمضان فقد أصبح الصومُ فريضةً تعبُّديةً، وركناً من أركان الإسلام.

بيان التدرج فى الصوم

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ.. ﴿١٨٤﴾ ﴾

[البقرة]

فريضة الصيام نزلتْ كغيرها من الفرائض كالصلاة والميراث، وبعض الفرائض الأخرى، فجاءت بتدرُّج، لأن الله أراد أنْ يُخرج أمة محمد ﷺ من دائرة عدم الصوم إلى الصوم، فجاء الصيام أولاً بالخيار.

أى: للإنسان أنْ يصوم أو لا يصوم، فإذا لم يَصُمْ وهو قادرٌ على الصيام يُقدِّم فديةً لهذا الفطر، وهو تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ.. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة]

وبعد أن اعتاد المسلمون الصيامَ فرض الصومَ فرضاً لا اختيارَ فيه، وهو ما عناه قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ.. ﴿١٨٥﴾ ﴾

[البقرة]

فقوله: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ أنهى المسالة، وانتهت مسألة الفدية بالنسبة لمَنْ يُطيق الصوم، أما الذى لا يُطيقه أصلاً بأنْ كان

مريضاً أو شيخاً فإنْ قال الأطباء المسلمون: إن هذا مريضٌ لا يُرْجَى شفاؤه.. نقول له: إن من حقه الإفطار والفدية.

والسؤال: ما دام فرضُ الصيام كان اختيارياً أولاً، فلماذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ.. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة]

والإجابة: إنه عندما كان الصومْ اختيارياً كان لا بدَ أيضاً من فَتْح باب الخير والاجتهاد فيه، فمَنْ صام وأطعم مسكيناً فهذا أمرٌ مقبولٌ منه، ومَنْ صام وأطعم مسكيناً فهذا أمر مقبول منه، ومَنْ صام وأطعم مسكينين فذاك أمرٌ أكثر قبولاً، ومنْ يدخل مع الله من غير حساب يُؤتيه الله من غير حساب، ومنْ يدخل مع الله بحساب يُعطيه اللهُ بحساب.

لذلك فإن قوله: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ.. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة] كانت خطوة فى الطريق لتأكيد فرضية الصيام الذى تأكَّد بقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ.. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة] لذلك لم يأت معها قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ.. ﴿١٨٤﴾ ﴾

الرُّخصة.. تشريع مُلزم

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة]

من الرُّخص التى وضعها الله سبحانه وتعالى للمسلم فى شهر رمضان رخصة الفطر فى السفر، ثم الصوم بعد ذلك للأيام التى أفطرها.

وكلمة (سفر) مأخوذة من المادة اللغوية التى تفيد الظهور والانكشاف فنقول: "أسفر الصبح" وكلمة "سفر" تفيد الانتقال من مكان إلى مكان، لأن الإنسان بانتقاله يتضح له ويرى أشياء جديدة.

وصحيحٌ أن ظروف السفر فى زماننا قد اختلفتْ عن السفر من قديم الزمان، فالمشقة فى الانتقال قديماً كانت عالية، ولكن تشريعَ الله للرخص ينقلها إلى حُكْم شرعى مطلوب.

وفى ذلك يُروى عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ فى سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظُلِّلَ عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: صائم. فقال: ((ليس من البر الصوم فى السفر)).

إذن: الذين يسعونَ إلى إلغاء رخصة الإفطار فى السفر، لأن السفر لم تَعُدْ فيه مشقة يغفلون عن أن تشريع الرُّخصة حُكْمٌ شرعىٌّ مطلوب.

والمتأمل فى قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ (١٨٤) ﴾ قد يجعل الإنسان يقول: ولكن الصيام فى رمضان يختلف عن الصيام فى أيام أُخَر ؛ لأن رمضان هو الشهر الذى أُنزل فيه القرآن، غافلاً عن أن الصومَ هو الذى يتشرَّف بمجيئه فى شهر القرآن، ثم إن الذى أنزل القرآن، وفرض الصوم فى رمضان هو سبحانه الذى وهب

الترخيص بالفطر للمريض أو المسافر، ونقلـه إلـى أيـام أُخَـر فـى غير رمضان·

وسبحانه لا يعجز عن أنْ يهبَ الأيام الأُخر نفسها التجليات الصفائية التى يهبها للعبد الصائم فى رمضان·

إن الله سبحانه وتعالى حين شـرع الصـومَ فـى رمضـان إنمـا أراد أنْ يشيع الزمن الضيق –زمن رمضـان– فـى الـزمن المتسـع وهو مدار العام، فنحن نصوم رمضان فى الصـيف، ونصـومه فـى الشتاء وفى الخريف والربيع·

إذن: فرمضانُ يمرُّ على كُلِّ العام، ومن هنا فتجلياته الإيمانية قد تلازم من ألزم نفسه بمنهجه الذى اتبعه فى رمضان فى بقية شهور السنة؛ لأنه التزم بما التزم به فى رمضان فاستمرتْ رُوح رمضان تسرى فى نفسه، وفى تصرفاته وفى أفعاله·

سفر الإفطار فى رمضان

شرعَ اللهُ سبحانه وتعالى الصيامَ شهراً واحداً فى العام وهو شهر رمضان ولم يجعله أكثر من ذلك ؛ لأنه سبحانه العليم بالضرورات التى تطرأ على هذا التكليف، فهو يشرع لهذه، وتشريع الله لرخص الضرورة إعلامٌ لنا بأنه لا يصح مطلقاً لأىِّ إنسان أنْ يخرجَ عن إطار الضرورة التى شرَّعها الله كما يحدث من البعض مُبرراً لنفسه خروجه بقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة]

ويغفل مَنْ يبرر لنفسه هذا التبريرَ أن المكلف هو الخالق، وهو الذى يعلم مَنْ خلق، ويعلم مدى ما يتحمل، ويعطى الرخصة عندما يكون التكليفُ ليس فى الوُسْع، وهو ما نلحظه فى قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة]

كما يُرخِّص اللهُ للإنسان فى السفر البعيد، والذى يُحدِّد العلماء أقله بـ 84 كيلو متراً.

وقد كانت المشقة فى الانتقال والسفر قديماً عالية، الأمر الذى جعل البعضَ ينادى بعدم الإفطار فى السفر، لأنه صار بالوسائل المريحة دون أنْ يضعوا فى الاعتبار أن تشريع الله للرُّخص ينقلها إلى حكم شرعى مطلوب.

وهو ما نتبيَّنه فيما يرويه جابر بن عبد الله ﷺ بقوله: ((كان رسول الله ﷺ فى سفر فرأى زحاماً ورجلاً قد ظُلِّلَ -أى: وضعوه تحت مظلة من شجر أو غيره- فقال ﷺ: ما هذا؟ فقالوا: صائم. فقال: ليس من البر الصوم فى السفر)).

كما أن النصَّ القرآنى لم يُحدِّد إنْ كان السفرُ بمشقة أو غيره، فقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة] أى: أن مجردَ وجود السفر يقتضى الفطرَ والقضاء ما دام السفرُ قد بلغ النِّصاب.

نعمة المنْع

﴿ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

إن الله يعطى العبد ويمنحه من نعمه حتى وهو يمنعه من بعض الأمور، فإذا منع اللهُ سبحانه وتعالى الإنسانَ من طعامه وشرابه فإنه يمنحه ما هو أكثر من مُقوّمات الحياة، وهو الإشراقات التى تتجلّى له وتُشعره بحلاوة التكليف.

من هنا ندرك معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

فتكبير الله بعد تلك المشقّة يكون لأن العبد إذا استطاع أن ينصاع لإرادة الله وحكمه بما فيه من مشقة يتصورها الإنسان، فإذا أتم هذا التحمل فإنه يشعر بالنجاح وتشرق نفسه لمّا حققته فى امتحان الصوم، ويشعر بأن عليه أن يشكر اللهَ الذى كلّفه بالصوم ووفّقه إلى أدائه.

هنا يكون الجزاء من الله سبحانه بأن يفتحَ أبواب رحمته لهؤلاء الصائمين الذين التزموا وأشرقتْ نفوسهم بحب الله وإنعامه، وحق لهم أن يدعوا خالقهم وربهم بما يريدون.

لذلك جاء بعد آية الصيام السابقة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة]

يقول ﷺ: ((ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم: الصائم حتى يُفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزّتى لأنصرنَّكَ ولو بعد حين)).

والمتأمل فى الآية يدرك أن جواب السؤال لم يكُنْ قل أو فَقُل، وإنما جاء جواباً مباشراً وهو ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ.. ﴾ كأن الله أراد أن يجعل القُرْب فى الجواب عن السؤال بدون وساطة، فجعل الجواب منه سبحانه لعباده مباشرة.

أصحاب الأعذار

لأن اللهَ رءوفٌ بعباده وأعلم بهم، فقد شرع الرخص فيما كلَّف به المؤمنين من تكليفات.. وتشريعه سبحانه لرخص الضرورة إعلامٌ لنا بأنه لا يصح مُطلقاً لأى إنسان أنْ يخرج عن إطار الضرورة التى شرَّعها الله كهؤلاء الذين يتعللون بقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ.. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة] كى يُزيِّنوا لأنفسهم الخروج على منهج الله لأن الضرورة تبيح لهم ذلك.

وهؤلاء يُحدِّدون الوُسْع على قَدر عقولهم، ثم يقيسون التكليفَ عليه مُتناسين أن الذى خلقهم هو الذى يكلف ويعلم أنهم يسَعُون التكليف، وهو لا يُكلِّف إلا بما فى وُسْع الإنسان، بدليل أنه سبحانه يعطى الرخصة عندما يكون التكليف ليس فى الوُسْع.

ومن هنا فقد رخَّص اللهُ سبحانه بعض الرخص فى شهر رمضان فى قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة]

وكلمة ﴿ أَيَّامٍ ﴾ تدل على الزمن وتأتى مُجملة، وقوله سبحانه عن تلك الأيام أنها ﴿ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ يعنى: أنها أيام قليلة ومعروفة تُحددها الآيات التالية فى قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ

مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

والمتأمل فى الآيات السابقات يرى رحمةَ الله بعباده فى قوله: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ.. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [البقرة]

وكلمة ﴿ مَّرِيضاً ﴾ كلمة عامة تجعل من الإنسان المريض حُجَّة على نفسه مسئولاً عن تصرُّفه يجتهد فى معرفة إنْ كان يتحمَّل الصوم دون أذىً أو أن صومه يجلب عليه الأذى.

وهو ما لا يُقرّه منهجُ الله الذى يحفظ على الإنسان نفسه وماله وعرْضه وعقله، لذا على المسلم المريض أنْ يتحرَّى إمكانية صومه أو فطره، كما قرر الفقهاء عند طبيب مسلم معروف باستقامته.

رمضان.. جوهرة الشهور

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ.. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يربطَ الاعمال العبادية بآيات كونية ظاهرة، فالشمسُ علامة النهار، وحركتها فيه تُحدِّد المواقيت التى يقيم فيها المسلمُ عبادته اليومية أى صلواته الخمس، والقمر علامةُ بداية الشهر ونهايته، فالهلال ميلاده هو ميلادٌ للشهر، لذلك تبدأ العبادات فى

رمضان منذ الليلة الأولى لأن علامته مرتبطةٌ بالليل، فاستطلاع الهلال ومعرفة مولده يكون فى المغرب.

وكلمة (رمضان) مأخوذة من مادة (الراء والميم والضاد) وهى تُكوِّن كلمات تدل على الحرارة والقيظ مثل: رمض الإنسان. أى: حر جوفه من شدة العطش، والرمضاء هى الرمل الحار.

كان الناس حينما أرادوا أنْ يضعوا أسماء للشهور جاءت التسمية لرمضان فى وقت كان حاراً فسموه (رمضان) كما أنهم عندما سمَّوْا (ربيع الأول) و (ربيع الآخر) كان الزمن متفقاً مع وجود الربيع، وعندما سمَّوْا (جمادى الأولى) و (جمادى الآخرة) كان الماء يجمُدُ فى هذه الأيام.

لكن لأن الشهور العربية مرتبطةٌ بالقمر فإن هذه الشهور تدور فتأتى فى كل فصول السنة.

وقد شاءت إرادته سبحانه وتعالى أن يصطفى شهر رمضان من بين شهور السنة ليخصَّه بالتكريم والتجليات، فأنزل القرآنَ فيه، والقرآن إنما نزل منهجاً للهداية، والصومُ امتناع عن الشهوات، وهدفه التقوى.

إذن: فمنزلة شهر رمضان أنه يُربِّى البدن، ويُربِّى النفس، فناسب أن يوجد التشريع فى تربية البدن، وتربية القيم مع الزمن.

الذى جاء فيه القرآن بالقيم: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ.. ﴿١٨٥﴾ ﴾

[البقرة] وكلمة ﴿ أُنزِلَ ﴾ تفيد أن الذى أنزله هو الله سبحانه وتعالى يقول

تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر] أما كلمة (نزل) فإنه سبحانه وتعالى يقول ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء]

إذن: فكلمة (أنزل) مقصورة على الله وحده، وكلمة (نزل) تأتي منسوبة إلى الملائكة.

فالله سبحانه وتعالى أنزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا مرة واحدة فى شهر رمضان، ثم كان النزول من السماء الدنيا بعد ذلك فى مناسبات الأحداث لحكمة بالغة، فلو نزل القرآنُ مرةً واحدةً فقد يجوز أنْ يكون عندنا الحكم ولا نعرفه، ولكن حينما لا يجيء الحكم إلا ساعةَ نحتاجه فهو يستقر فى النفوس.

الدعاء بين آيات الصيام

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة]

يقول رسول الله ﷺ: ((الثلاثة لا تُردّ دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمامُ العادل، ودعوةُ المظلوم يرفعها اللهُ فوق الغمام وتُفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتى لأنصرنكَ ولو بعد حين)).

ولأن الصائم من الذين لا تُردّ دعوتهم، فقد جاءتْ آياتُ استجابة الدعاء بين آيات الصيام فى سورة البقرة، حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا

سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة]

وقد نزلتْ الآيةُ بعد أن سُئلَ رسولُ الله ﷺ: أقريبٌ ربّك فنُناجيه أم بعيدٌ فنُناديه؟ لأن المناداة تكون للبعيد، والمناجاة تكون للقريب، فكانت هذه الآية.

ولكن: هل هناك شروطٌ مُعينة لإجابة الدعوة؟

الشروط أن يكون السائلُ من عباد الله وليس من عبيد الله، لأن الناسَ جميعاً مسلمهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم عبيدٌ لله. أما عباد الله فهؤلاء الذين اختاروا الانقياد لله فى الأمور الاختيارية، لأن الأمور التى لا اختيارَ فيها لا يستطيع أحدٌ أنْ يرفضها أو يقبلها، فلا يستطيع أحدٌ أنْ يُحدِّد متى يُولد أو متى يموت، وهكذا لكنه يستطيع أنْ يفعلَ الخير أو يفعلَ الشر.

لذلك فإن للعباد أوصافاً حدَّدها القرآنُ فى قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الفرقان]

العبيد.. والعباد

تمثل العبوديةُ أرقى مراتب القُرْب من الله سبحانه وتعالى لأن الإنسان يأتى إلى الله طائعاً باختياره يُنفِّذ منهجه الذى وضعه له فى الحياة الدنيا ليقوم بمهمته فى الأرض، وهى خلافةُ الله.

—

الناسُ فى الدنيا إما عبيدٌ لله وإما عبادٌ، فكلُّ خَلْق الله فى كَوْنه عبيدٌ لا يستطيعونَ الخروجَ عن مشيئته أو إرادته، لكن عبادَ الله وهم أولئك الذين اتحدتْ مُراداتهم مع ما يريده اللهُ سبحانه وتعالى فتخلَّوْا عن اختيارهم الدنيوى ليصبحوا طائعين لله باختيارهم. أى: أنهم تساووا مع المقهورين فى أنهم اختاروا منهجَ الله، وتركوا أىَّ اختيار يخالفه.

لذلك فإن المتأملَ فى كتاب الله يجد أنه سبحانه وتعالى يشير إلى العباد بأنهم الصالحون من البشر، فيقول جلَّ من قائل: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة]

وهو أمرٌ ليس لكلِّ خَلْق الله سبحانه وتعالى، ولكنه للعباد الذين إذا قال الله تعالى لهم: افعلوا.. افعلوا، وإذا قال لهم: انتهوا. اجتنبوا ما نهاهم عنه.

لذلك ففي تناول القرآن لجهاد المؤمنين لا يصفهم بأنهم عبيد، بل يصفهم بالعباد كما فى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء]

يظلُ الناسُ ما بين عبيد وعباد حتى يعودوا إلى ربِّهم ليتوحَّدوا فى صفة واحدة وهى صفة العباد، لأن الجميعَ يصيرون مقهورين لا اختيارَ لهم بعد الموت.

ومن هنا كان سؤالُ الله جل فى عُلاه للكافرين الذين عبدوا غيرَ الله فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان]

العبَاد.. والعَبيد

لله سبحانه وتعالى عبيدٌ وعبادٌ، فكُلُّ خَلْقه عبيدٌ لـه، لا يستطيعون الخروج عن مشيئة الله أو إرادته، وهؤلاء هم العبيد، ولكن العباد هم الذين اتّحدت مراداتُهم مع ما يريده اللهُ سبحانه وتعالى، فتخلَّوْا عن اختيارهم الدُّنيوى ليصبحوا طائعين لله باختيارهم، أى: أنهم تساووا مع المقهورين فى أنهم اختاروا منهج الله وتركوا أىَّ اختيار يخالفه.

لذلك فإن إشارات الله سبحانه وتعالى إلى العباد تأتى مع حديث القرآن عن الصالحين يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة]

وهو تميُّز ليس لكلِّ خَلْق الله، ولكنه للعباد الذين قال لهم الله تعالى: افعلوا ففعلوا. وقال لهم: انتهوا فانتهوا.

وفى الجهاد فى سبيل الله وَصف المجاهدين بالعباد ولـيس العبيـد. يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء]

والعبوديةُ لله هى أرْقَى مراتب القُرْب من الله سبحانه وتعـالى، لأن الإنسانَ يأتى طائعاً مُنفذاً للمنهج باختياره، ولقد عُرِضَ على الرسول أن يكون ملِكاً رسولاً أو عبداً رسولاً، فاختار أنْ يكونَ عبداً رسولاً.

ومن التكريم الـذى نالـه أنْ أضـاف اللهُ عبوديـةَ الرسـول إليـه ليُصوِّرَ مدى قُرْبه منه، وفى أعظم تكـريم نالـه بشـرٌ هـو الإسـراء والمعراج حيث يقول الله:

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾

[الإسراء]

وقد حاول الذين فى قلوبهم مرضٌ الطعنَ فى لغة القرآن التـى لـم يستطع أنْ يطعنَ فيها أصحابُ الفصاحة والبلاغـة، فقـالوا: إن كلمـة (عباد) جاءت فى القرآن فى وَصْف غير المؤمنين، وذلـك فـى قولـه تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

[الفرقان]

ولم ينتبه المُتشكِّكُون أو يحاولوا أنْ ينتبهوا الى أن ذلك يكـون يـوم القيامة، فى وقت كل مجبول على العبادة فيه لا اختيارَ له، فكلُّنا عبـادٌ، سواءٌ ما كان صالحاً فى الدنيا أو كان طالحاً، فالجميعُ مقهورون.

التشريع.. والتخفيف

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ.. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

عند فرْض الصوم كان الإمساك يكون عن الطعام طوال فترة الصوم، والإمساك عن النساء طوال شهر رمضان سواء أكان فى الليل أو فى النهار أى: أن الرَّفَثَ كان فى ليلة الصيام مُحرَّماً، كما كان يحرُم على المسلم الطعام أو الشراب من بعد العشاء أو بعد أنْ ينام.

وقد جاء رجل يشكو إلى رسول الله التعب، لأنه حضر إلى داره فى وقت الإفطار، فلم يجد أهله قد أعدُّوا له طعاماً فنام، ثم استيقظ بعد العشاء، فلم يستطع أن يتناول طعاماً.

فأحلَّ الله سبحانه أمرين. الأول: الرَّفثُ إلى النساء فى الليل. والثانى: تحليل الطعام حتى الفجر حتى ولو نام الإنسان أثناء الليل. يقول تعالى:

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ.. ﴿١٨٧﴾ [البقرة]

وقد أنزل الله هذا الرخصة مؤجلة بعض الشيء، لكى يدرك كل مسلم مدى التخفيف لأنه قد سبق له أنْ تعرَّض الى زلة المخالفة فرفعها الله عنه، وهو ما نلحظه فى قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ.. ﴿١٨٧﴾ [البقرة]

(تَخْتَانُونَ) تفيد أن الإنسان لم يقْوَ على الصوم كلَّ الوقت عن شهوة الفرج فعندما تركه اللهُ يختانُ نفسه، ثم أنزل له الترخيص يشعر بفضل الله عليه.

إذن: الرخَص التى وضعها الله لنا، إما رخصة تأتى مع التشريع، أو رخصة تخفيفية تأتى بعد أنْ يجيء التشريع، لينبه اللهُ أنه لولا هذه الرخصة لاشتدَّ الأمرُ على الناس.

وقد كان الناسُ قبل تلك الرُّخصة فى الصيام يأتون إلى الرسول فيقول له عمر: لقد ذهبتُ كما يذهب الشاب. أى: أنه جامع زوجته. ويقول آخر: لقد جُعتُ. ومن هنا جاء التخفيف.

أدب الاعتكاف فى المسجد

﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

الاعتكاف هو أنْ يقصر إنسانٌ حركته فى زمن ما على مكان ما، وبعضُ الناس يعتقدون أن الاعتكافَ فى المسجد مقصورٌ على شهر رمضان فقط، وخاصةً فى العشر الأواخر منه، لكن للمسلم أنْ يعتكف فى بيت الله فى أىِّ وقت.

بل إن كثيراً من العلماء يقولون إن الإنسان بمجرد دخوله المسجدَ يأخذ ثوابَ الاعتكاف ما دام قد نَوى سُنة الاعتكاف بشرط ألاَّ يتكلم فى أى أمر من أمور الدنيا، لأنه أتى من حركته المطلقة فى الأرض إلى بيت الله فى تلك اللحظة، وجعل لحظاته لله.

لذلك عندما رأى رسول الله ﷺ رجلاً ينشد ضالته فى المسجد. أى: ينادى على شيء ضاع منه، قال له: ((لا ردَّها اللهُ عليك، فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا)).

لأن المسجدَ مكانٌ للعبادة يأتى إليه الإنسان ليتقرَّب فيه من ربه ويُناجيه، ويعيش فى حضن عنايته، وقد وصف أحد الصحابة هذه الحالة فقال: ((كنا نخلع أمر الدنيا مع نعالنا)).

وقال آخر: ((إننا نترك أقدارنا مع فعالنا)) ففى المسجد لا فرقَ بين غنىٍّ وفقير، أو عامل وصاحب عمل، أو رئيس ومرءوس، فالكلُّ أمام الله سواء،

ومن هنا كان من أدب الجلوس فى المسجد أنْ يجلسَ الإنسانُ حيث ينتهى به المجلسُ فلا يتخطّى الرقابَ كى يصلَ إلى مكان ما.

من آداب الاعتكاف فى المسجد عدم مباشرة النساء. أى: معاشرة الزوجات بما أحله اللهُ، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

وكلمة ﴿ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ ﴾ إشارة إلى أهمية الاحتراز من الوقوع فى مثل هذا الموقف، فقد يعتكف إنسانٌ فى المسجد فتأتيه زوجتُه لشأن ما فيُباشرها دون أنْ يكون عازماً على ذلك، وإنما اقترابه منها واقترابها منه قد يُغريه بذلك.

وهنا قال الله تعالى: ﴿ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة] فإذا اعتكفَ المسلمُ عزل نفسه عن كلِّ ما يمكن أنْ يفسدَ اعتكافَه.

استقامةُ الاحتياط

بين الحق والباطل منطقةٌ يتشابه فيها الحقُّ مع الباطل تختلط فيها الأمور كما يختلط الظلّ مع الضوء فى منطقة التماس، فلا نستطيع أنْ نضعَ حداً فاصلاً بين الظلِّ والضوء، لأن هناك منطقةً ليست ضوءاً صافياً وليستْ ظلاً صافياً.

ومن هنا كان قَوْل رسول الله ﷺ: ((.. ومَنْ وقع فى الشُّبُهات فقد وقع فى الحرام كرَاعٍ يرْعى حول الحمَى يُوشك أنْ يقعَ فيه، ألاَ وإن لكلِّ ملك حمىً، ألاَ وإنَّ حمَى الله محارمه)).

والالتزام بمثل ما جاء فى الحديث بالاحتياط للنفس من الوقوع فى الحرام يكون بالابتعاد عن الأمور التى تختلط حُرمتها وحليّتها على الإنسان، وهو ما يُسمَّى: استقامة الاحتياط.

والحديث الذى سبق يُفسِّر قول الحق سبحانه وتعالى فيما يأمر به المؤمنين: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ.. ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة] وكذلك قوله تعالى فيما يناهيهم: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ.. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

واستقامة الاحتياط قد تجعل الملتزم بها أنْ يُدخل فى التحريم ما ليس بحرام، فالخمر شُرْبها حرام لكن الاحتياطَ يجعل الإنسان يجتنبها فى كلِّ مراحلها، سواء زراعة مُكوِّناتها بقصد صناعتها أو حَمْلها أو الجلوس بمجلس شُرْبها وغير ذلك، كلُّها من أمور الاحتياط.

وكذلك جريمة الزنا التى تعنى وقوعَ ذكر على أنثى مُواقعةً كاملة، إلا أن استقامةَ الاحتياط تجعلنا نتجنب كل ما يمكن أن يظن أنه سبيلٌ من سُبُل الزنا كالاختلاط بالأجنبيات أو النظر بدون تحفُّظ يدفع إلى أنْ يشتهىَ الرجلُ المرأةَ، والمرأةُ الرجلَ كالسُّفُور مثلاً.

وإذا كانت استقامة الاحتياط فى تجنُّب الوقوع فى الحرام، فإن هناك احتياطاً أيضاً دعانا إليه الله فيما أحلَّه لنا، حتى لا نقعَ فى دائرة الخطر، فعندما يأمرنا بإخراج الزكاة يأمرنا فى الوقت ذاته بعدم الإسراف أو الغلو فى فعل الطاعة.

يقول الحق سبحانه: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ.. ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأنعام] حتى يعصمنا اللهُ من لحظة نتذكّر فيها أننا حصدنا كثيراً، لكننا لا نجد ما نقيم به الأولاد لأننا أخرجنا الزكاة

وتصدَّقنا بالكثير، وقد يُضعف ذلك من عزيمة الإنسان أو يُشعره بأن الضائقةَ التى حدثتْ له من جرَّاء الصدقة، فيأتى فعله بعكس مقصود الزكاة، وهو تربية النفس على البذل·

كما نلحظ هذه الاستقامة فيما قاله رسولنا الكريم للصحابى الجليل الذى أراد أنْ يتصدَّقَ بكلِّ ماله، فقال له الرسول: ((أنْ تذرَ ورثتك أغنياءَ خيرٌ من أنْ تذرهم فقراءَ يتكفَّفون الناسَ)) ونصحه بألاَّ يزيدَ فى تصدُّقه على ثلث ماله، وهكذا تتمثَّل استقامة الاحتياط فى كلِّ أمور المسلمين·

حُبُّ الخير·· للآخرين

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة]

أىُّ فساد فى الكون غالباً ما يكون سببه أكْل أموال الناس بالباطل، لذا كان تركيز القرآن على التحذير من هذا التصرف، ولم يترك مثل هذه المسائل غائبة، وإنما جعلها من الأشياء المُشاهدة·

وإذا أراد إنسانٌ أن يتعرَّف على أخلاق الناس فى أىِّ عصر من العصور واستقامتهم الدينية وأمانتهم فى تصريف الحركة فلينظرْ إلى المعمار والمبانى لأن المعمار هو من العمليات التى

تشترك فيها فئاتٌ كثيرة، فيها: العامل والنجار، والحداد، والمهندس، والمقاول، والسباك، والكهربائى، والنقاش، وأيْد كثيرة تشارك فى عملية البناء من مختلف فئات المجتمع.

فإذا وجد إتقان فى المبنى تبيَّن أن الخُلُق القويم هو الغالب على طبائع الناس، أما إذا وُجدَ خللٌ فى المَبْنَى تبيَّن مدى ما وصل إليه الناسُ من خلل خُلُقى؛ لأن الخلل الخُلُقى هو الذى يدفع الناس إلى أكْل أموال الآخرين بالباطل والسباك، ولم يُحسن عمله إلا لأنه أراد أنْ يأكلَ أموالاً بالباطل، وكذلك المهندس والنقاش وغيرهم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

[البقرة]

والإثم كما أخبرنا رسول الله ﷺ هو ما حاك فى الصدر وخشى الإنسان أنْ يطلعَ عليه غيرُه. أى: أنه الأمر المُخْزى والمُخْجل، ولا شكَّ أن الذين لا يُحسنون عملهم لا يرغبون فى أنْ يدركَ الناسُ حقيقة ذلك، ولا يرضوْن أنْ يحدثَ ما يفعلونه من آخرين فى حقِّهم هم.

لذلك وضع بعض الحكماء مقاييس للحق والباطل، يقيس بها الإنسان لنفسه، فالحق هو الذى يقبله الإنسانُ لنفسه كما يقبله للآخر فى أية صفقة أو معاملة.

لذلك قال رسول الله ﷺ: ((لايؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحب لنفسه)) وتلك درجة أعلى من القاعدة السابقة، فالقاعدة السابقة

هي عدم إيذاء الآخرين كعـدم إيـذاء الـنفس، أمـا حـديث الرسـول فيتجاوز ذلك إلى حُبِّ الخير للآخرين.

حَتَّى لاَ تَشيع الفَوْضَى

إن الله يريد أن تكون حركةُ حياتنا نظيفة شريفة، فلا يدخل فى بطن الإنسان إلا ما عرق من أجله، ويأخذ كلُّ إنسان حقه، وبالتالى فقبل أنْ يفكر الإنسان فى أن يأكلَ عليه أن يتحرك، لا أن ينتظرَ ثمرة حركة الآخرين لأن الكسلَ يشيع الفوضى فى الحياة.

فالناسَ إذا رأوا إنساناً لا يعمل ويعيش فى راحة، ويأكل من عمل غيره فإن هذا الإنسان يصبح مثلاً يحتذى به الآخرون، فيَقنَع الناسُ جميعاً بالسكون عن الحركة، ويعيشون عَالةً على الآخرين، ويترتب على ذلك توقُّف حركة الحياة، وهذا باطل زائل، وبه تنتهى ثمار حركة المتحرِّك، ويجوع الكُلّ.

لذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

[البقرة]

والأمـر فـى الآيـة للجميـع ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ ﴾ والأمـوال مُضـافةٌ للجميع، والمال ساعةَ يكون ملكاً لإنسـان فهـو فـى الوقـت نفسـه يكون مالاً منتفعاً به للغير.

إذن: فهو أمر شائع عند الجميع، لكن الذى يحكم حركة تداوله هو الحق الثابت الذى لا يتغير ولا يحكمه الباطل، فلا يسرق الإنسان، ولا يغتصب، ولا يخطف، ولا يرتشى، ولا يخون الأمانة.

كما أن الإنسان حين يأكل أموال الآخرين بالباطل فإنه لا يستطيع أن يمنع غيره مما أباحه لنفسه، فإذا أكل الناس جميعا بالباطل يصبح الناس جميعاً نَهْباً للناس جميعاً، ويصبح العمل هو النَّهْب، وليس الإنتاج والتجويد.

فالله سبحانه وتعالى يريد للإنسان أن يتحرك ويُشبع حاجته من طعام وشراب ومأوى، وبذلك تستمر دورة الحياة، وهو يريد أنْ يضمن لنا شرف الحركة فى الحياة، بمعنى أنْ تكون للفرد حركةٌ فى كل شيء ينتفع به لأن حركة الإنسان وحده لا يقتصر نفعُها عليه وحده، ولكنها حلقةٌ فى سلسلة متدافعة الحركات.

وحين يشيع الإنسانُ شرفَ الحركة فالكُلُّ سيتحرّك نحو هذا الشرف، لكن الباطل يتحقق بعكس ذلك، فحين يأكل الإنسان من حركة الآخرين تشيع الفوضى فى الكون.

الحرب.. ليستْ للجبروت

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ [البقرة]

للحرب فى الإسلام قواعد وأصول يُقنِّنها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ويُحدِّد أسبابها ودوافعها وحدودها.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠ ﴾ [البقرة]

نزلت الآية عندما اشتاق رسول الله ﷺ وصحابته إلى البيت الحرام، وأرادوا أنْ يعتمروا فجاءوا إلى مكة فى ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة، وأرادوا أنْ يؤدوا العمرة، فلما ذهبوا وكانوا فى مكان اسمه الحديبية رفضت قريش دخولهم مكة، وقامت مفاوضات بين الطرفين ورضى رسول الله ﷺ بعدها بأنْ يرجع إلى المدينة دون أن يعتمر ليأتى فى العام التالى.

غضب المسلمون، وظهر منهم ذلك أمام رسول الله ﷺ وغضب الرسول لذلك، ودخل على أم المؤمنين "أم سلمة" وقال لها: ((هلك الناس يا أم سلمة، أمرتُهم فلم يمتثلوا)) هنا تظهر مهمة الزوجة عندما يعود إليها زوجها مهموماً فتتجلى وظيفتها فى السكن والرحمة. قالت له أم سلمة: اعذرهم يا رسول الله.

فقد كانت نفوسهم مشتاقة لأنْ يدخلوا بيتَ الله الحرام مُحلِّقين ومُقصِّرين، ثم حُرموا منها، وهم على بُعْد أميال منها، امد إلى ما أمرك الله فافعله، ولا تكلم أحداً، فإنْ رأوْكَ فعلتَ علموا أن ذلك عزيمة.

أخذ النبى بنصيحة أم سلمة وصنع ما أمره الله وتبعه كل المسلمين وانتهت المسألة، لكن النفوس لا يزال بها شيء مما حدث لأنها لا تعلم بفكرها القاصر الهدف مما حدث، فطمأنهم الله سبحانه وتعالى وهم فى

طريق العودة مُخبراً إياهم أن فى مكة مؤمنين لا يعرفهم أحد قد يقتلهم المسلمون دون أنْ يدروا لو أذن لهم الله بقتال أهل مكة فى قوله تعالى:
﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح]

لكن المسلمين خافوا أنْ يقاتلهم الكفارُ فى العام التالى فى الشهر الحرام وهم ممنوعون عن ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ.. ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة]

الآية تُحدد أن القتال يجب أن يكون في سبيل الله، لا للاستعلاء والجبروت، كما لا يقاتل المسلم مَنْ لم يقاتله. فلا يقاتل الصبيان ولا العَجَزة فيكون ردّ الفعل على قدْر الفعل.

معنى إتمام الحج لله

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ.. ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة]

الحج هو العبادة الوحيدة التى يستمر اقترانُها بفاعلها، فلا يُقال (المصلى فلان) ولا (المُزكّى فلان) ولكن يُقال: الحاج فلان، فإنْ كان الحاجّ حريصاً على هذا اللقب، وهو دافعه من وراء عبادته فلا بُدّ أنْ يخرجَ بعبادته من أغراضها المشروعة من أجله.

فالله يقول: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ.. ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة] وكلمة (لله) تُوحى

بأمور كبيرة وأهمها: أن المسلم عندما يريد أن يحجّ لله فلا يصح أنْ يحجّ إلا بمال شرعَ اللهُ وسائله.

ومن هنا فإن منْ يعتقدون أن الإنسانَ له أنْ يرتكب ما يشاء من معَاصٍ ومظالم، ثم يظنّ أن حجة واحدة تُسقط عنه كلّ ذنوبه، لا يدرك هؤلاء أموراً مهمة، وهى أن الحجة التى تسقط الذنوب لا بُدّ أولاً أنْ تكونَ لله، وثانياً أن تكونَ من مال حلال.

وما دامتْ لله ومن مال حلال فلا بُدّ أن نعرف ما هى الذنوب التى تسقط عن الحاجّ، فليست كلُّ الذنوب تسقط، وإنما التى تسقط هى الذنوب المُتعلقة بالله سبحانه وتعالى، لأن الذنب المُتعلق بالله لم يظلم الإنسانُ به اللهَ، لكن ظلم الناسُ به نفسه، لكن الذنب المتعلق بالبشر فيه إساءةٌ لهم أو انتقاصٌ من حقوقهم، وبالتالى فإن ظلم العباد لا يسقط إلا بردِّ حقوق العباد.

ولأن الله سبحانه علام الغيوب ويعلم أن بعضَ الناس سيُقبلون على العبادات إقبالاً شكلياً، وقد يُقبلون على العبادة لأغراض أخرى غير العبادة، فكان لا بُدَّ أنْ يُبيِّن اللهُ القصدَ من الحج وهو الإتمام، وأن يكون الحج لا ليُقال (الحاج فلان) أو ليشترىَ سلعاً رخيصة.

ومن هنا كان قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ.. ﴿١٩٦﴾ ﴾ [البقرة]

أى: اجعله تاماً مُستوفياً لكلِّ مطلوبات الشرع.



النفاق.. وانفصام الشخصية

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة]

لا بُدَّ للمؤمن أنْ تكونَ عنده فطنةٌ وذكاء وألمعيَّة، فلا يأخذ بظاهر الأمور ولا بمعسول الكلام، إنْ لم يصادف انسجامَ فعل مع انسجام نيَّة، ولا يكتفى المؤمنُ بأنْ يعرفَ ذلك، وإنما لا بُدَّ له أنْ يكونَ حريصاً على إعلان الخطأ للمخطيء حتى يكونَ ذلك زاجرا له ورادعاً إنْ كان يُخطيء قاصداً، وأنْ يكون مُنبِّهاً له إنْ كان خطؤه غيرَ مقصود، الأمر الذى يمنع استشراءَ الخطأ والفساد فى المجتمع.

ولأنه إذا قال كلٌّ واحد: إننى مسئولٌ عن نفسى أو خجل من أنْ يقول للمخطيء: أنت مخطيء فإنه قد أساء للمخطيء وللمجتمع، لأن ذلك سيجعل المخطيء سائراً فى غيه، سواءٌ أكان يعلم بخطئه أو يجهل الأمر الذى يُضخِّم الفساد.

ولا يتوقف الأمر عند ذلك، بل عليه أنْ يُنبه مَن يُظهر الخير ويُبطن الشر أن فعله معروفٌ للناس ومفضوحٌ حتى يقطعَ على المنافقين أمدَ نفاقهم ويُشعرهم بفطنة المؤمنين التى لا تنطلى عليها حيلُ المنافقين، فإذا قيلَ للمنافق: " اتق الله " أدرك ما وراء الكلمة من مَعان.

وهو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾

[البقرة]

والآية نزلتْ فى الأخنس بن شريق، الذى كان قابل الرسول فألانَ له في القول، وأقسم له أنه يحبه، فلمَّا خرج من عنده مرَّ بزرع وإبل لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الإبل، والآية وإنْ نزلت فى الأخنس فهي تشمل كل منافق؟

وكلمة (اتق الله) بجانب ما هى إشارة إلى إعلان بمعرفة حقيقة المنافق، فهى تعنى أنْ يكونَ ظاهر كل إنسان مُوافقاً لباطنه، أو يبعد عن الانفصام الشخصى الذى يعيشه بانسجام باطنه مع ظاهره.

إخفاءُ السَّرائر حكْمة

من أشدِّ الناس قسوةً فى المعصية المنافقون، لأن المنافق يُظهر خلاف ما يبطن، فيدَّعى أمام الناس الإيمانُ، وقد يُصدق الناس بما يقوله من كلام جميل مُزيَّن وهو يُبطن عكس ذلك.

ومن هنا يصبح الذى يُظهر العداء أهونُ منه لأنه يجابه الإنسان فيحتاط الإنسان منه، ومن هنا وصف القرآنُ المنافقَ بأنه ألدُّ الخصام، حيث يقول تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقد نزلتْ هذه الآية فى الأخنس بن شريق الثقفى واسمه (أبىّ) ولُقِب بالأخنس لأنه خنس ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش، واعتذر لهم بأن العيرَ قد نجتْ من المسلمين وعادت إليهم، وكان عندما يقابل الرسول صلوات الله وسلامه عليه يدَّعى أنه يحبه، ولكنه بعد أنْ خرج من عند رسول الله ﷺ ذات مرة مرَّ بزرع وحُمُر لقوم من المسلمين فأحرق الزرع وقتل الحُمُر.

والآية تشمل كلَّ منافق على شاكلة الأخنس الذى يسعى فى الأرض فساداً إذا ما تولَّى، والتولِّى هنا قد يعنى الولاية وهى المسئولية، وقد يعنى الانصراف والإعراض.

ومن حكمة الله وفضله على الإنسان أنْ أخفى السرائر وجعلها غير ظاهرة، لأن إظهار ما فى باطن الناس يخلق لونا من الكراهية والعداء بين الناس، لأن النفس الإنسانية أمَّارةٌ بالسوء، وقد تلوح لصاحبها بمعصية أو شر لأخيه ثم تعود عنه.

وفى حالة وجود البواطن غير الظاهرة لا يدرك الإنسان أن أخاه أضمر له شراً ولو للحظات، أما إذا كان كل شيء مكشوفاً فإن الإنسان سيظل يحتفظ لأخيه الإنسان بأنْ أضمر له فى لحظة ما شراً، ولا ينسى ذلك من قريب رغم أنه لم ينفذ هذا الشر فى أرض الواقع.

ومن هنا فقضاء السماء وعلمُ الله بالغيب مسألةٌ يجب أنْ نحمده عليها، لأنه هو الذى سيحمى كلَّ واحد منَّا من غيره.

العزَّة بالإثْم

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة]

المؤمن لا بُدَّ أنْ تكونَ عنده فطنة، وذكاءٌ وألْمعيَّة، كما قال رسول الله ﷺ: ((كَيِّسٌ فَطن)) ينظر إلى الأشياء بمعيار اليقظة العقلية، ولا يدَع نفسه لمجرد الصفاء الربانى ليعطيه القضية، بل يريد الله أنْ يكونَ لكلٍّ مؤمن ذاتيةٌ وكيَاسَةٌ فلا يأخذ بظاهر الأمر، ولا بمعسُول القوْل، ولا بالفعل إنْ لم يصادق انسجاماً مع شخصيته المؤمنة.

ولا يريد اللهُ للمؤمن أنْ يكتفىَ بالمعرفة، ويرجع أمر المسيء إلى إساءته، والمحسن إلى إحسانه، فإذا صادف مَنْ يدَّعى حقيقته فيُقصِّر على المنافق أمدَ النفاق، لأنه عندما يقول له: (اتق الله) يفهم المنافقُ أن نفاقه قد انكشف، ولعله بعد ذلك يرتدع عن النفاق.

وفى ذلك رحمةٌ من المؤمن بالمنافق، فإذا قال له أحدٌ: (اتق الله)، وقال آخر (اتق الله)، وثالث ورابع فسيعرف تماماً أن نفاقه قد انكشف.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا

وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [البقرة]

وقد نزلتْ الآية فى الأخنس بن شريق الثقفى واسمه "أُبى" ولُقِّبَ بالأخنس لأنه خنسَ ورجع يوم بدر فلم يقاتل المسلمين مع قريش، واعتذر لهم بأن العيرَ قد نجتْ من المسلمين وعادت إليه.

وكان ساعةَ يقابل رسول الله ﷺ يُظهر إسلامه ويُلين القول للرسول ويدَّعي أنه يحبه، ولكنه بعد أنْ خرج من عند رسول الله ﷺ مر بزرع ودوابّ لقوم من المسلمين، فأحرق الزرع وقتل الدواب.

وتقييد العزة بالإثم فى الآية يفيد أن العزةَ قد تكون بغير إثم، وما دام اللهُ قد قال: ﴿ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ ﴾ فهناك إذن عزَّة بغير إثم، لأن العزة مطلوبةٌ للمؤمن، والله عزَّ وجلَّ حكمَ بالعزة لنفسه وللرسول وللمؤمنين فى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.. ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون]

الإسلام.. منظومة متكاملة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ [البقرة]

التكليف يكون من مُطاع لطائع، لذلك فإن آيات التكليف فى القرآن خاطبتْ المؤمنين، فنجد قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾

[البقرة]

فقد خاطبتْ الآيةُ المؤمنين، ومن هنا ندرك أن التكليفَ من الله إسعادٌ لمَنْ أحبَّ، وليس تقييداً أو إرهاقاً.

والسلم هو الإسلام، لأن الإسلام إنما جاء ليُنهيَ حالة الحرب بين الإنسان والكون الذي يعيش فيه لصالح الإنسان ولصالح الكون، ليكون المؤمن في سلام مع الله، وسلام مع الكون، وسلام مع الناس، وسلام مع النفس.

ذلك لأن اللهَ هو الإله الخالق للكوْن، ولا بدَّ أنْ يعيشَ الإنسانْ فى سلام معه، لأنه لا يؤمن إلا به إلهاً واحداً، وبالتالى يجب أنْ يعيشَ مع الأرض والسماء والكون كله فى سلام، لأن الكون الخاضع المقهور المسخَّر الذى لا يملك أنْ يخرج عمَّا رُسم له يعمل لخدمة الإنسان ولا يعانده.

والإنسان حين يكون طائعاً يسعد به كلّ شيء فى الوجود، لأن الوجودَ طائعٌ ومُسبِّح، وساعةَ يجد الإنسان مُسبِّحاً مثله يُسرُّ به لأنهما يعزفان لحناً ويسيران فى خط واحد لا تضادّ فيه.

ونداء الله المؤمنين وتكليفهم بالدخول فى السلم كافةً يعنى: أن الله يريد من المؤمنين به ألاَّ يأخذوا بعضاً من الدين ويتركوا البعض الآخر، فيقول لهم: خُذوا الإسلام كله وطبّقوه كاملاً.

فالإسلام يُمثل بناءً له أسس معلومة وقواعد واضحة، فلا يحاول أحدٌ أنْ يأخذَ حُكماً معيناً ويترك حكماً آخر حتى لا يحدث خللٌ فى المنظومة الإيمانية المتكاملة، لأن ما تركه المسلم من حكم لا بُدّ أنه استعاض عنه

بمنهج آخر غير المنهج القويم، وهنا يحدث تعاند المبادئ وتضادها لأن المنهج الإسلامى له وجه، والمناهج الأخرى لها وجهات أخرى.

لذلك كان الالتزام بالمنهج الإيمانى كله سياجاً وحمايةً من ذلك التعاند، وبدلاً من التعاند يحدث تساندٌ للقوى: قُوى الكون وقُوى النفس، ويتم الانسجام الداخلى والخارجى للمؤمن، ذلك لأن أهواءَ البشر لا يمكن أنْ تلتقىَ وتنسجم مع بعضها ومع ما حولها من الكون إلا إذا كانتْ محروسة بقيم مَنْ لا هَوى له.

ومن هنا كان قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [المؤمنون]

القرضُ الحَسن خيْرٌ منَ الصَّدقة

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

يُقدِّر الله سبحانه وتعالى حركةَ الإنسان وعرقه ما دام قد ضرب فى الأرض وسَعى فيها، فالمال مالُ الإنسان يتصرّف فيه كيف يشاء فى إطار المنهج السماوى الذى وُضعَ لذلك، فإذا احتاج إلى المال مسلمٌ فى ضيق وأقرضه صاحبُ المال ما يحتاج إليه أصبح مُقرضاً لله نفسه صاحب الأرض والسماوات ومَنْ فيهنّ.

يقول الله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً‌ۚ .. ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة]

والقرض الحسن هو الذى يمنحه الإنسان لأخيه الإنسان الذى يمرّ بضائقة على أنْ يردَّه له دون زيادة. أى: أن مُقدّم المال تظل نفسُه متعلقةً بهذا المال حتى يعودَ إليه.

وقد قيل فى ذلك: إن القرضَ أحسنُ من الصدقة، لأن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة، أما الذى يأخذُ الصدقة فقد يكون غيرَ مُحتاج، ويسأل دون حاجة، وأيضاً لأن نفسَ المتصدِّق تخرج من الشيء المُتصدَّق به ولا تتعلق به.

أما الذى يُقدِّم القرض فنفسه متعلقةٌ بالقرض، وكلما صبر عليه نالَ حسنة، وكلما قدّم (نَظرة إلى مَيْسرة) كان له الأجرُ الكبير، لأن اللهَ يريد أن تفيض حركةُ الحياة بالكثير، وهو الواهبُ لكلِّ النعم وهو الولىُّ لكلِّ النِّعم، ومع ذلك جعل الإقراض الحسن قرضاً له، وبالتالى فإن الإقراض غيرَ الحسن قرْضٌ للشيطان.

الزمان والمكان فى مشيئة الله

﴿ أَوۡ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا‌ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ‌ۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَ‌ۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٍ‌ۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ‌ۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ‌ۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ

نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ [البقرة]

الزمان والمكان آيتان من آيات الله يبسطهما اللهُ سبحانه وتعالى ويقبضهما كيف شاء فيتلاشى الزمان إنْ شاء الله لمَنْ شاء من عباده ويتسع ويتمدد لمَنْ شاء، وكذلك المكان يَطويه سبحانه لمَنْ يشاء ويتسع ويتمدَّد لمَنْ يشاء.

وقد كان أوضح النماذج على قَبْض الزمان وبسطه ما كان من الرجل الصالح الذى قيل: إنه نبىٌّ الله عُزَير. وقيل: إنه الخضر. وقيل غير هذا أو هذا حيث مرَّ الرجل الصالح على قرية فوجدها خاويةً على عروشها.

أى: أن جميع سكانها ميتون ولم يَعُدْ بها بشرٌ فتعجَّب من جلال الله وعظمته، وتساءل سؤالَ الذى يؤمن ويريد أن يعرف الكيفية، فأراد سبحانه وتعالى أن يبين لعبده ما يريده بتجربة عملية فى الإماتة والإحياء.

يُبيِّن الحقُّ سبحانه له كيف تُطبق مشيئته سبحانه وتعالى قانونين على شيئين متجاورين فى المكان مُتفقيْن فى الظروف، فيحدث لأحدهما عكس ما يحدث للآخر رغم اتفاقهما فى جميع ظروف الحدث.

فيبسط الزمان لأحدهما ويقبضه للآخر، وكيف يكون وَقع ذلك على الرجل، فالرجل أماته الله سبحانه وتعالى ليُريه حين يحييه كيف يتم إحياء الموتى وأحياه سبحانه فعلاً.

وعندما نتبّه لمَنْ حوله سُئلَ: ﴿ كَمْ لَبِثْتَ.. ﴾ [البقرة]

فكان ردّ الرجل الذى لم يشعر بالزمن لبثت يوماً أو بعض يوم
فكان التصحيح: ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ ﴾

ثم يلفته اللهُ سبحانه إلى القدرة الإلهية فى قضيتىْ البسط والقبض اللتين تمثلتان فى طعامه وشرابه وفى حماره، فالطعام يبدو عليه قَبْض الزمن فلم يتغير وكأنه لم يَمْض عليه سوى يوم، أما الحمار فصار عظاماً نخرة يراها الرجل تتخلق وتتجمع من جديد أمامه بعد أن تفتت بفعل الزمن بقانون البسط.

يقول تعالى : ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة]

المنافقون أسْوأ من الكفار

المؤمن منطقىّ مع نفسه لأنه آمنَ بقلبه ولسانه، والكافر منطقىّ لأنه كفرَ بقلبه ولسانه، أما المنافق فغيْر منطقىّ مع نفسه لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه.

والنفاق ظاهرةٌ من الظواهر المصاحبة للإيمان بالله، خاصة إذا كان المؤمنون أصحابَ قوة وبأس، وهو ما نلحظه من أن ظهورَ النفاق فى الدولة الإسلامية لم يكُنْ فى مكة التى صادمت الإسلام وعاندته وضيَّقتْ عليه، وإنما ظهر فى المدينة التى احتضنتْ الدين وعَلا شأنُ دولة الإسلام فيها، وانساح فى شتَّى بقاع الأرض.

فالإسلام فى مكة كان ضعيفاً، فكان الكفارُ يُجابهونه ولا ينافقونه، فلمَّا تحوَّل إلى المدينة اشتدَّ عُوده وقويتْ شوكتُه، وبدأ ضعافُ النفوس ينافقون المؤمنين.

والمنافقون أشدُّ خطراً على جماعة المؤمنين من الكفار، لأن المؤمنَ يعرف الكافر ويتجنبه ويحسب له الحسابات، وكلاهما واضحٌ للآخر، أما المنافق فهو فى جماعة المؤمنين مؤمن ويكتم الكفر يُخذِّل فيهم ويُوقع بينهم، وينقل عنهم إلى فريق الكافرين، ويُثبِّط هممهم ويُخطِّئ صواب أقوالهم. أى أن المنافقَ هو عدوٌّ من الداخل يَصعُب تمييزه.

لذلك فقد جعلَ اللهُ المنافقين فى الدَّرْك الأسفل من النار، كما نبَّه على أنه يطلع على السرائر، فيقول: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء]

جعل لهم سورة فى القرآن تُوضِّح تصرفاتهم وأخلاقهم ومصيرهم فى الآخرة.

الإكراه بعد الاختيار مغالطة

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]

الالتزام بالأوامر قَهرٌ يُحقق للآمر إثبات القدرة لا إثبات المحبوبية، لكن مَنْ يلتزم طواعية وهو قادرٌ على ألاَّ يلتزم، فهذا دليلٌ على الحب، والدين هو أوْلَى الأمور بأنْ يُؤخذَ بحُبٍّ.

يقول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك فالرسل الذين يرسلهم اللهُ برسالته لا يُكرهون الناسَ على الدين، وإنما يُبلِّغوهم الرسالة فقط إنْ شاءوا آمنوا، وإنْ شاءوا اختاروا طريقاً آخر، وإلا لَخلقَ اللهُ الناسَ جميعاً مؤمنين.

يقول تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس] ويقول أيضاً: ﴿ لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۗ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد]

لكن المشكلة أن الناس كثيراً ما يخلطون بين القهر على الدين والقهر على مطلوب الدين، فإذا لامَ أحدٌ أحداً لأنه لا يُصلِّي أو يُزكِّي أو لا يصوم يردُّ عليه مثلاً قائلاً: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ .. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]

هنا يكون قد خلطَ بين الدين ومطلوب الدين، فالإكراه لا يكون فى الاختيار الأول للعقيدة، وللإنسان أن يختار ما يشاء، فإذا اختار فإنه مُلزم بما يترتَّب على اختياره، فإذا اقترف مُحرَّماً

حرَّمه الدين بعد أن اختاره حُوسب على هذا المُحرَّم الذى اقترفه، ويصبح الاحتجاجُ بأنه لا إكراه فى الدين مغالطة.

لذلك لم يُكلِّف اللهُ الإنسانَ بمطلوب الإيمان إلا بعد أنْ يبلغَ سناً مُعيَّناً يستطيع فيه التمييز بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، لذلك تبع قولَه تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ.. ﴾ قولُه تعالى: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ.. ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة]؛ لأنه ما دام الأمر واضحاً فلا يأتى إكراه.

الإنفاق تنمية للمال

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

الإنفاق فى سبيل الله يردُّه اللهُ مُضاعفاً، وما دام الله يُضاعفه فهو يزيد، ولذلك لا يجوز للإنسان أنْ يحزن أو يخاف على ماله الذى ينفقه ؛ أعطاه لمقتدر قادر، واسع عليم، وهو الله الذى يقدر على إعطاء كلِّ واحد حَسْب ما يريد هو سبحانه، إنه يعطى على قَدْر نيَّة العبد، وقدْر إنفاقه.

يقول الحق سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

والآية تعالج قضية الشُّح في النفس الإنسانية، فقد يكون عند الإنسان شيء زائد وتشح به نفسه ويبخل، فيخاف أنْ ينفق منه فينقص هذا الشيء.

فإذا كانت الأرض الصَّماء تعطي الحبةَ سبع سنابل، وهي مخلوقةٌ لله سبحانه وتعالى، فما بالنا بخالق هذه الأرض، لا شكَّ أنه يُعطي أضعاف ذلك.

وقوله ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ كلمةٌ عامة يصح أنْ يكون معناها الجهاد أو مصارف الصدقات ؛ لأن كلَّ هذا في سبيل الله، ولأن الضعيف حين يجد نفسه في مجتمع متكافل ويجد صاحب القوة قد عدَّى من أثر قوته وحركته إليه لا يحقد على ذي القوة؟ لا لأن خيره يأتيه.

لكن للإنفاق ضوابطُ وآداب، وهي أنْ يكونَ الإنفاق بلا منَّة أو أذىً، فإذا صَاحبَ الإنفاقَ المَنُّ والأذى ضاع الهدفُ من الإنفاق عند المُنفق، بل إن من الأدب الإيماني في الإنسان أنْ ينسى أنه أهدى وينسى أنه أنفق، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير أو تصدّقه عليهم، وخاصة الصغار الذين لا يفهمون منطقَ الله في الأشياء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾ [البقرة]

أدب العطاء.. والمنع

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

إذا كان على السائل أنْ يكون مُهذّباً في طلبه حتى يحصلَ على ما يريد، فعلى المُعطى والمُتصدّق أنْ يتأدّبَ بآداب العطاء والمنح، وهو يُقدم عطاءه لمُستحقّيه حتى يتحققَ له الهدفُ من فعله، وهو المثوبة والرِّضى من الله وتكفير الذنوب، وإلاّ صار العطاءُ كالمنع أو أكثر سوءاً، بل يصبح ردّ السائل رداً جميلاً أفضلَ من العطاء الملْحوق بالأذى.

يقول الله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ [البقرة]

وقد جاء ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ لأن المعروفَ مقابلُ المنكر إشارةً إلى أن الأمرَ الخيِّر مُتعارفٌ عليه وسجيّة، والمُتعارف عليه من الأمور من جنس الجمال والخير. أما الأمر الذى تُنكره النفس فمن جنس الشرّ وجنس القُبْح.

وكذلك يقول الحق: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ فكأنّ من شأن الجمال ومن شأن الحُسْن أنْ يكونَ معروفاً، ومن شأن النقيض أنْ يكونَ مُنكراً، فالقولُ المعروف هو أنْ يرد الإنسان السائلَ رداً جميلاً، بحيث لا يمتليء كراهيةً عليه حتى ولو تجهّم السائلُ تجهُّم المحتاج، ذلك لأن المحتاجَ تُلهب ظهره الحاجة وينظر إلى الغنى على أنه يملك السعة التى تقضى حاجته.

وقد حرص الإسلامُ فى بنائه للمجتمع المسلم أنْ يتكاملَ ويُحقق كل إنسان درجته التى يستطيعها بإمكاناته التى منحها اللهُ له، سواءٌ أكان غنياً أو فقيراً، فصار التبسُّم فى وجه المسلم صدقةً، وإلقاء السلام صدقة، والإرشاد على الخير وكفّ الأذى له ثوابه، وزيارة المريض وغيرها من الأمور التى لها مَردودها الكبير كما يستطيع أنْ يفعلها الناسُ جميعا، غنيّهم وفقيرهم، قويّهم وضعيفهم.

ومن هنا كان القولُ المعروف أفضلَ وأجملَ من العطاء الذى يتبعه المَنّ أو الأذى، وهو عطاءٌ محرومٌ صاحبه من ثوابه.

الإنْفاقُ بيْنَ الحَلال وَالحَرَام

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ

تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ [البقرة]

الإنفاق فى سبيل الله يجب أن يكون من الكسب الحلال، فلا يأتى الإنسان بمال من مصدر غير حلال لينفقَ منه على أوْجُه الخير، لأن الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيباً، ولا يكون الإنفاق من رديء المال.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾ [البقرة]

فالله سبحانه وتعالى يُحذِّر الناس أنْ يختاروا الخبيث وغير الصالح من نتاج أعمالهم لينفقوا منه ؛ لأنه لا يصلح أن يأخذ الإنسان لنفسه طيبات الكسب، ويعطى اللهَ رديء الكسب وخبيثه ؛ لأن الواحد من الناس لا يرضى لنفسه أنْ يأخذَ لطعامه أو لعياله هذا الخبيث غير الصالح لينفقَ عليهم منه.

الآية توضح أوْجُهَ الإنفاق فى إطار معين يتضمن أربع نقاط، هى: أن النفقة لا تُنقص المال وإنما تزيده سبعمائة مرة، وأن النفقة لا يصح أن يبطلها الإنسان بالمَنِّ والأذى، وأن القولَ المعروف خيرٌ من الصدقة المتبوعة بالمَنِّ والأذى، وأن الإنفاق لا يكون رئاء الناس، وإنما يكون ابتغاءَ مرضاة الله.

الآية فى ذاتها تعالج أمراضاً اجتماعية ونفسية تُوجد فى كُلِّ زمان ومكان سواء أكانت آفة الشُّح أو المَنّ والأذى أو الإنفاق من أجل التظاهر أمام الناس أو الإنفاق من رديء المال.

وكلها آفات نفسية تأمر بها النفوس الأمَّارة أصحابها، ويُعينها عليها الشيطانُ الذى يُخوِّف الناسَ من الفقر إنْ هُم أنفقوا ويُزيِّن لهم التفاخر إنْ أنفقوا ليحرمهم من ثواب الله على إنفاقهم، ويجعل إنفاقهم هباء منثوراً لأنه ذهب لغير الله.

التكليف... بالوُسْع

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ.. (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

من الحقائق التى كثيراً ما ترد ليُراد بها باطل قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ.. (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

فهذه الجملة القرآنية الكريمة تأتى فى معرض تعلُّل بعض الناس بعدم استطاعتهم القيامَ بالتكليفات التى أمرنا الله بها. فهم يضعون أنفسهم حُكاماً على تكليف الله، فإنْ رأتْ نفوسهم أن ما أمر به الله مناسباً لها قالوا هو من الله، وإنْ رأتْ أنها لا تقدر عليه وسيُكلفها بعض المشقَّة قالوا: إن الله لا يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ.. (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

وكثيراً ما نسمع صيْحات تقول: إن العصر لم يَعُدْ يحتمل، وأن ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث مبرر لأنْ نتخفَّفَ

من بعض التكاليف التى كانت فى وُسْع الناس فى الماضى عندما كانت الحياة بسيطة، وحركتها بطيئة ومشاكلها محدودة.

التكليف

ولا يعلم الذين تُسوّل لهم أنفسهم ذلك أن الذى وضع التكليف قديماً هو الله سبحانه وتعالى الذى خلق المُكلَّف أيضاً، ويعلم أن فى وُسْعه أنْ يؤدى التكليف وقت نزوله، وبعد آلاف السنين من نزوله، حتى قيام الساعة بدليل أن من الناس مَنْ يقوم بالتكليف ويتطوَّع بأكثر منه ليدخل فى باب الإحسان، فهناك مَنْ يُصلى الفروض وهى التكليف، وهناك مَنْ يزيد عليها السنن، وهناك مَنْ يقوم الليل فيظلّ يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فُرضَ عليه، وهكذا فى بقية التكاليف من صيام وزكاة وحج، وهذا يحدث فى وقتنا كما حدث قبل ذلك.

وإذن فكلّ التكاليف التى كلَّفنا الله بها فى وُسْعنا وأقلّ من وُسْعنا، ولا يُقال إن العصر اختلف، فنحن الذين نعيش هذا العصر بكلِّ ما فيه من متغيرات، نقوم بالتكاليف ونزيد عليها دون مشقة.


سورة آل عمران

سورة آل عمران

درجاتُ الخير

﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾
[آل عمران]

إن الإبهامَ للموت هو البيان الوافى، والدنيا مهما طالتْ فهى محدودة، وغير مضمونة للإنسان أنْ يحياها، ونعيمه فيها على قَدر إمكاناته وقدرته، وإنْ لم تذهب الدنيا من الإنسان فالإنسان نفسه يذهب منها، فإذا قارنّا كلَّ ذلك باسم الحياة التى نحياها الآن وهى (الدنيا) أى السفلى مقابل الآخرة، وهى عُليا لأن الخيرَ فيها فى أعلى درجاته.

فبعد انقضاء هذه الحياة المحدودة يذهب المؤمنُ إلى الجنة وبها حياةٌ غير محدودة، وهذا أول تصعيد للخير، ويضمن المؤمنُ أن أُكُلَها دائمٌ لا ينقطع، وأنه خالدٌ فيها لا يموت، ويدرك المؤمنُ قيمتها بالنسبة للدنيا التى فنيتْ، لأن الخير ومعرفة الإنسان للخير محدودةٌ، ومعرفةُ الله للخير مُطلقة.

فالمؤمن فى الآخرة يتنعَّم فى الخير على مقدار ما علم الله من الخير، فإذا طلب المنهج الإيمانى منا ألاَّ ننخدعَ بالدنيا وألاَّ ننقاد إلى المتاع، فهل هذا لَونٌ من تشجيع الحب للنفس أو تشجيع الكراهية للنفس؟

بالطبع هو تشجيع الحب للنفس لأنه منهجٌ يُصعِّد الخيرَ لكل مؤمن، لأنه بيَّن أن فى الدنيا ألواناً من المُتع هى كذا وكذا، والدنيا محدودة ولا تدوم لإنسان، أما إمكانات النعيم فى الآخرة فهى على قَدر قدرة الخالق

المُربِّى، فمن المنطقى أن يقول اللهُ لنا: ﴿ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران] أى: حُسن المرجع.

وفى الحقيقة أن للخير أربع صور تُسلِّم كلُّ صورة منها إلى الصور الأخرى، أى: تتصاعد بها فى درجات الخير، وتبدأ من تنمية الخير نفسه، ثم استدامة الخير فلا ينقطع هناك ضمان أن يحيا الإنسان للخير ويعيش له، ولا يذهب الخيرُ عنه، ثم ألاَّ يرتبطَ الخيرُ بالأغيار. أى: يربطه الإنسان بواحد قوىٍّ يأتى به، وإنما يكون الاعتماد على الله فيه.

رزقٌ بلا أسباب

﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾

[آل عمران]

الرزق هو كلُّ ما ينتفع به الإنسان، فالخُلُق الطيِّب رزق، وسماعُ العلم رزق، وأدبُ الإنسان رزق، وحلمُ الإنسان رزق، وصدقُ الإنسان رزق.

لكن الرزقَ يأتى بطريقتين، إحداهما: الطريقة المباشرة فينتفع به الإنسانُ مباشرة، والأخرى غير مباشرة، فلا ينتفع به الإنسانُ مباشرة وإنما يكون سبباً ووسيلةً لما ينفع مباشرة.

مثال ذلك أن الإنسان يحتاج إلى طعام، فإذا وجده فهو رزقٌ مباشر، والنقود رزق، لكنها رزقٌ غيرُ مباشر، فقد يكون الإنسانُ جائعاً وعنده جبلٌ من ذهب، فلو قال واحدٌ لهذا الإنسان: خُذْ رغيفاً مقابلَ جبل الذهب سيعطى الإنسانُ الجائعُ جبلَ الذهب مقابلَ الرغيف؛ لأن الإنسانَ لا يأكل الذهب، وكذلك كوبُ الماء بالنسبة للعطشان.

إذن: فهناك رزقٌ لا يُطلب لذاته، ولكن يطلبه الإنسان لأنه وسيلةٌ لغيره فالوسيلة لغيره لا يحتاجها الإنسان فى الآخرة، لأنه سيعيش بغير الأسباب، أى يقول الله: (كُنْ) فالإنسان لن يحتاج فى الجنة إلى مال أو قناطير مُقنْطرة من الذهب والفضة ؛ لأن كلَّ ما تشتهيه النفسُ ستجده، ولن يحتاج فى الآخرة الى خيل مُسوَّمة لأنه لن يجاهد عليها، أو يتلذذ ويستأنس بركوبها.

كما يشير القرآن فى قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾

[آل عمران]

أى أن الجنةَ لا يحتاج فيها الإنسانُ إلى وسائطَ لكى يحصل فيها على ما يريد لذلك يأتى بعد الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران]

قَتْلى بنى إسرائيل منَ الأنبياءِ وأتباعهم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾

[آل عمران]

هناك فرْقٌ بين الكفر بآيات الله وبين الكفر بالله.. لماذا؟

لأن الإيمانَ بالله يتطلب البيِّنات التى تدلُّ على الله، والبيِّنات الدالة على وجود الله موجودة فى الكون.

إذن: فالبيِّنات واضحة، فالذى يكفر بالله يكون قبل ذلك كافراً بالأدلة التى تدل على وجود الخالق، يقول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]

فالله لم يقُلْ: إن الذين يكفرون بالله. حتى يُوضِّح لنا أن اللهَ غيبٌ، ولكن الآيات البينات ظاهرةٌ فى الكون، كما أنه لم يقُلْ: الرسل ؛ لأنه ليس من المعقول أنْ يرسل اللهُ رسولاً ليُبلغ منهجاً فيدعْه يقتله الناسُ، لأن النبىَّ يُطبِّق منهجاً موجوداً، لكن الرسولَ يُبلغ منهجاً.

والآية جاءتْ فى بنى إسرائيل الذين قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً مرة واحدة، فقام مائة وسبعون من أتباع الأنبياء ليُنكروا عليهم ذلك فقتلوهم، وهو ما عَنَاهُ قولُه تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران]

ومن هنا كانت البشارة لهم بالعذاب، وليس بالوعيد لهم بالعذاب، والبشارة لا شكَّ تنكيلٌ بهم وسُخريةٌ من حُمْق فعلهم وسفاهة تصرُّفاتهم.

ولا شكَّ أن الذين يندفعون لقتْل نبيٍّ هم قومٌ ضَاقُوا بالسلوك القويم أشدّ ما يكون الضيِّق ؛ لأنهم انغمسوا بالسلوك القويم أشدّ ما يكون الانحراف، فأصبح النبيُّ علامةً واضحةً تُبيِّن الفرق بين حالَيْن.

وظهورُ هذا الفرق يُبيِّن مدى بشاعة فعل المنحرفين، ومدى سُمو التزام الملتزمين، الأمر الذى يجعل المنحرف يتضاءل أمام نفسه وفى نظر الآخرين، فلا يكون له غايةٌ إلا اختفاء الملتزم من أمامه ومن أمام الناس جميعاً.

قوانين الكون وطلاقة القدرة

﴿ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

لأن الله هو خالقُ الكون وواضعُ قوانين الطبيعة، وشاءت قدرتُه سبحانه لهذه القوانين أنْ تعملَ أعمالها التى نُسمِّيها نواميس الطبيعة فإنه سبحانه وتعالى يسلب هذه القوانين خواصَّها فى مواقف تتطلب أنْ يُرينا فيها العبر والمواعظ ليُنبِّهنا إلى أن طلاقة قدرته لا يحكمها قانون.

وهذا ما لفتتْ إليه السيدةُ مريم سيدنا زكريا عندما دخل عليها وهو المتكفل بها، فوجد عندها طعاماً لم يُحضره لها، فسألها وهى القديسة العابدة المُلازمة لمحرابها: ﴿ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

فكان ردّ مريم عليها السلام: ﴿ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران] فانتبه زكريا إلى هذه الحقيقة، فدعا ربَّه فى قضية لا تنفع فيها إلا طلاقة القدرة.

فهو رجلٌ عجوز وامرأته عجوز وعاقر ويريد ولداً، وهو مطلبٌ ضد قوانين الكون، لأن الإنجاب لا يتم إلا وقت الشباب، فإذا كبرَ الرجلُ وكبرتْ المرأة لا ينجبان، فما بالنا إذا كانت المرأة عاقراً؟

لكن طلاقة القدرة تستطيع أنْ تلغى القوانين الموضوعة لذلك، فكان ردّ الله لدعاء زكريا كما جاء فى القرآن: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ

يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران]

ومثال السيدة مريم ليس الوحيد فى ذلك، فقد تحوَّل البحر بعد أنْ ضربه موسى من حالة السيولة إلى حالة الصلابة، وجَمُد موْجُه، وشقَّتْ العصا الضعيفة طريقاً فيه سهلاً ليسيرَ عليه موسى وقومه.

فلما جاء فرعونُ ليسيرَ حسب الوضع الجديد ومرَّ فى الطريق الذى سلكه موسى عاد الماءُ إلى حالته السائلة، وغرق فرعونُ وقومه، لأن طلاقة القدرة فى الحالتين سلبتْ الأشياءَ خصائصها.

اصْطِفَاءُ آلِ عِمْرَانَ

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران]

وكلمة (عمران) هذه حين تَرِدُ في الإسلام فَلَنَا أنْ نعرفَ أن هناك اثنين لهما الاسمُ نفسُه، هناك (عمران) والد موسى وهارون عليهما السلام. وهناك (عمران) آخر.

إن عمران والد موسى وهارون -عليهما السلام- كان اسم أبيه (يصهر) وجدُّه اسمه (قاهاث) ، ومن بعده (لاوى) ومن بعده (يعقوب)، ومن بعده (إسحق) وبعده (إبراهيم)، أما عمران الآخر فهو والد مريم عليها السلام.

وقد حدث إشكالٌ عند عدد من الدارسين هو: أيّ العمْرانينِ يقصده الله هنا؟

والذي زادَ من حَيْرة هؤلاء العلماء هو وجودُ أختٍ لموسى وهارون عليهما السلام اسمها مريم، وكانت ابنة عمران والد موسى وهارون، فكِلْتاهما اسمها مريم بنت عمران.

وكانوا في ذلك الزمن يتفاءلون باسم (مريم) لأن معناه "العابدة"، ولمَّا اختلفوا لم يفطنوا إلى أن القرآن قد أبانَ وأوضح المعنى، وكان يجب أنْ يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون عليهما السلام، بل عمران والد مريم، ومنها عيسى عليه السلام.

وعمران والد مريم هو ابن ماثان، وهو من نسل سليمان، وسليمان من داود، وداود من أوشى، وأوشى من يهوذا، ويهوذا من يعقوب، ويعقوب من إسحق.

وكُنَّا قديماً أيام طَلَب العلم نضع لها ضَبْطاً بالحرف، فنقول: عمعم سدئيّا. ومعناها: عيسى ابن مريم، ومريم بنت عمران، وعمران ابن ماثان، وماثان من سليمان، من داود من أوشى، وأوشى من يهوذا، ويهوذا من يعقوب، ويعقوب من إسحاق.

لقد التبسَ الأمرُ على الكثير، وقالوا: أيُّ العِمْرانينِ الذي يقول الله في حقِّه هذا القول الكريم؟.

ولهؤلاء نقول: إن مجيءَ اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك يعني أنه عمران والد مريم، وأيضاً يجب أنْ نفطنَ إلى أن الحقَّ قد قال عن مريم عليها السلام:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وزكريا عليه السلام هو ابن آذن، وآذن كان معاصراً لماثان. إن المراد هنا هو عمران والد مريم. هكذا حدَّدنا أيَّ العمْرانيْن يقصد الحق بقوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران].

وعندما تقول: اصطفيتُ كذا على كذا، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أنْ تصطفيَ واحداً من مجموعة على الآخرين، ولذلك نفهم المقصود بـ ﴿ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أي: على عالمي زمانهم، إنهم قومٌ موجودون وقد اصطفى منهم واحداً، أما الذي سيُولد من بعد ذلك فلا اصطفاءَ عليه، فلا اصطفاء على محمد ﷺ.

الرَّادع.. فى النَّفْس والمُجتمع

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ.. ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران]

شاءتْ قدرة الله سبحانه وتعالى أن تجعل داخل الإنسان ما يُردعه ويُعيده إلى صوابه، ثم جعلتْ من المجتمع أيضاً رادعاً آخر حتى يعود مَنْ لم تُردعه نفسه إلى صوابه برادع المجتمع.

أى: أن الإنسان وُلدتْ معه مناعات يقينية فى ذاتـه، هـى: نفسه اللوَّامة التى تلومه إذا أخطأ وتُعدِّل مـن سلوكه، فـإذا تبلَّدتْ هـذه النفس وتعودت على الخطأ قام المجتمع مـن حولهـا بهـذه المهمـة، فمن لا تُردعه نفسُه اللوَّامة يُردعه المجتمع مـن حولـه، فـإذا فسـد المجتمعُ أيضاً فماذا يكون الحل؟

هنا تتدخَّل السماء بإرسال الرسل حينما يعمُّ الفسادُ المجتمعَ كله حتى أرسل الرسول الخاتم محمد ﷺ، ولأنه رسولٌ خاتم لا نبيَّ بعده فقد كلَّف الله أمته بالقيام بمهمة هداية البشرية إلى يوم القيامة وحراسة الدين إلى أنْ يرث اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

يقول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران]

إذن: هى حارسةٌ لمنهج الله، إما بالنفس اللوامة، وإما بالمجتمع الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر، حتى يظلَّ الفسادُ بعيداً عن جسد البشرية، لأن الفساد ينشأ أول ما ينشأ حين تتعارض المصالح، وتستطيع فئةٌ أنْ تُحقق مصالحها على حساب مصالح آخرين، فيصبح للفساد مَنْ يدافع عنه ويحرص على بقائه، ويصبح هناك مَنْ يقاومه، وإما أنْ ينجح أو ينهزم انهزاماً تاماً ليصير الفسادُ أصلاً والصلاحُ استثناء.

وهنا يُزيِّن الشيطانُ لأهل الفساد التمسُّكَ به والحرص عليه مُوضِّحا لهم مدى خسارتهم لو تركوا هذا الفساد وعادوا إلى جَادَّة الصواب.

بيتُ الله الأول

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران]

بيوتُ الله فى الأرض المساجد، والكعبة بيت الله فى الأرض، إلا أنها ليست بيتاً كبقية المساجد، ذلك لأن المساجد صارتْ بيوتَ الله باختيار الناس، أما الكعبة فهى بيت الله باختيار الله نفسه، لذلك صارتْ قبلة لغيرها من بيوته.

يقول الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة]

وقد وصف اللهُ الكعبة بالبيت وجعل المساجدَ بيوتاً له، لأن البيت هو المكان الذى أُعدَّ للبيتوتة، أى للاستراحة من عناء الحياة ومشاقّ السعى فى الأرض، حيث يعود الإنسان إلى بيته ليتخفَّفَ من هذا العناء، والناس يذهبون إلى الكعبة بيت الله لنفس الهدف، حيث تُلقى خلف ظهرها كلَّ المعاناة التى يعيشها نفسياً وروحياً لتظهر وتُنقى القلوب مما رانَ عليها من آثام الحياة لتعود لتبدأ حياتها نقية مليئة بقوة الإيمان.

وهو ما عَنَاهُ قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ لأن القيام هو الوقوف، والوقوف هو القيام على الأمر، والقائم على أمر ما يحفظ له قوام حياته ووجوده، فجعل اللهُ الكعبةَ بيتاً حراماً ليحفظَ على الناس قوامَ حياتهم، لأن الإيمان يعطى للناس الحياة الراقية لأنه يُحقق للنفس المنافعَ ويدفع عنها المضارّ، فتتصل حياةُ الفرد فى الدنيا بحياة الآخرة.

وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] وبذلك يكون الإيمان بالله وَصْلاً لحياتين: الحياة المادية فى الدنيا، وحياة الآخرة.

وقد كانت الكعبة قبل إبراهيم عليه السلام، وسيدنا إبراهيم هو الذى أقام القواعد أى: أن الله لم يَحرم الناس أنْ يكونَ لهم بيتٌ قبل إبراهيم عليه السلام وهو ما يُفسِّره قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران]

للصَّبر درجاتٌ ومَراتب

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

للصبر والتسامح درجات ومراتب تبدأ بكَظم الغيظ، وهى مرحلةٌ يكون الغيظُ موجوداً فى نفس الإنسان، لكنه لا يبادر بنزوع انتقامى وهى أُولى درجات التسامح.

وقد روى معاذ ﷺ أن النبى ﷺ قال: ((مَنْ كظم غيظاً، وهو قادر على أنْ يُنفذه دعاه اللهُ سبحانه وتعالى على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يُخيِّره من الحور العين ما شاء)).

وتلى مرحلة كظم الغيظ مرحلةٌ أرْقى هى العفو عن الناس. أى: أن يُخرج الإنسانُ غيظه من قلبه ويتسامح. يقول رسول الله ﷺ: ((مَنْ سرَّهُ أنْ يُشرفَ له فى البُنْيان، وتُرفع له الدرجاتُ فَليعْفُ عمَّنْ ظلمه، ويعطي مَنْ حَرمه، ويصل مَنْ قطعه)).

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وفى ترغيبه للعفو نجده سبحانه وتعالى يَعدُ العافينَ بالمغفرة فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور]

وقد نزلت هذه الآيةُ فى شأن أبى بكر الصديق ﷺ الذى حلف أن لا يعطى ابن خالته مسْطَح بن أُثاثة ما كان يعطيه من قَبْل من نفقة بسبب

ما تكلَّم به فى حَقِّ عائشةَ مع مَنْ تكلَّم، وهو ما يُسمَّى بحادثة الإفك، فأنزل الله سبحانه وتعالى الآيةَ.

فقال أبو بكر: ((والله إنى أحب أنْ يغفرَ اللهُ لى)) فرجع يعطى مسطحَ النفقةَ التى كان يُعطيها له وقال: ((لا أنزعها منه أبداً)).

وفى الآية: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ.. ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور] خاطب اللهُ النفسَ المؤمنة، فجعل عفوَ العبد عن سيئة بحسنة. أى: أن العفوَ له ثمنٌ يحصل عليه العافى.

وفى الوقت نفسه فإنَّ تركَ عقاب المسيء والانتقام منه لله سبحانه وتعالى فيه راحةٌ للإنسان، خاصة إذا علم المظلومُ أن قصاصه من ظالمه سيكون على قَدْر قوته هو، أما قصاصُ الله فعلى قَدْر قوة الله وجلاله، وهى أصعب بالطبع على الظالم من قصاص المظلوم نفسه.

عودة الظالمين.. للحق

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران]

لتشريع التوبة حكمةٌ أرادها الله سبحانه وتعالى تتمثَّل فى أن المولى سبحانه أراد للإنسان أنْ يكونَ من أهل الأغيار حيث تطرأ عليه الأحوال والتغيُّرات، فوضع له التوبةَ ليعود بها إلى حالة العبادة واتقاء الله إذا خرج فى لحظات مُعيَّنة عنها·

كما أن وجودَ التوبة فى المجتمع يحمى المجتمعَ من استشراء شَرِّ المذنبين، فلو خرج كلٌّ من ارتكب ذنباً من رحمة الله فسوف يُعانى المجتمعُ من شرور مثل هذا الإنسان، ويصبح كلّ عمله نقمةً مُستطيرةَ الشرِّ على المجتمع·

إذن: فالتوبةُ من الله مشروعيةٌ وقبول، إنما هى لحماية البشر من شراسة مَنْ يصنع أولَ ذنب، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء]

ومعنى عمل السوء أو عمل سوءاً· أى: أخبر آخرين بما عمل، وهو غير مَنْ يرتكب شيئاً يضرّ به نفسه فقط، فالذى سرق أو قتل أو اعتدى على آخر قَذفاً أو ضَرْباً أو إهانةً، مثل هذه الأعمال هى ارتكابٌ للسوء·

ولكن الذى يشرب الخمر مثلاً قد يكون فى عُزْلة عن الناس لم يرتكب إساءةً لأحد لكنه ظلم نفسه؛ لأن الإنسانَ المسلمَ مطلوبٌ منه الولايةُ على نفسه أيضاً·

والمنهج يحمى المسلمَ حتى من نفسه، ويحمى النفسَ من صاحبها، بدليل أننا نأخذ منْ يقتل غيره بالعقوبة، وكذلك يحرم اللهُ من الجنة مَنْ قتل نفسه انتحاراً٠

لأن الإنسان فردٌ من كَوْن الله ومن صُنْعه أيضاً، والله يريد من كل فرد أنْ يحميَ نفسه؛ لأنه بذلك يحمى صنعةَ الله، فإنْ صنع سوءاً أى أضرَّ غيره فهذا (سوء)، أما إنْ أضرَّ نفسه فيُسمى (ظلم نفسه)٠

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران]

ويقول رسول الله ﷺ: (بادروا بالأعمال فتناً كقطَع الليل المُظلم، يصبح الرجلُ مؤمنا ويُمسى كافراً، أو يُمسى مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرَض الدنيا))

كما يُفسِّر العلماءُ ظلمَ النفس أيضاً بأنْ يتبرعَ إنسانٌ بفعل الشرِّ لصالح آخرين، فيظلم نفسه ويتحمَّل ذُنوب خَطئه، دون أنْ يستفيدَ من ذلك فى الدنيا شيئاً فيظلم نفسه٠

سورة النساء

مَهْر الزوجة

﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء]

الزواج من السنن الكونية التى جعلها اللهُ بين البشر لتعمير الكون وعبادته حَقَّ العبادة، بل إن الله جعل فى الإنسان الغريزةَ التى تدفع الإنسان إلى البحث عن الائتناس ببنى جنسه فيأنس الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، ويُقبل كلاهما على الزواج رغبةً فى إشباع غريزة الإنجاب.

كان المفترض ألاَّ تأخذ المرأة مَهراً على الزواج لأنها تُحقق بالزواج رغبةً عندها، لكن الله أراد أنْ يكرم المرأة فجعل لها فى الزواج مهراً.

يقول الله تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ .. ﴿٤﴾ ﴾ [النساء] ونحلة تعنى أن دفع المهر يكون بوازع الدين، وفى كلمة ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ ﴾ أى: أن المهر هذا خاصٌ بها وليس لوليِّها فيه شيء، وليس لزوجها بعد الزواج أنْ يأخذه منها، وكذلك أخوها.

وفى ذلك تعريفٌ للحق ثم يأتى بعد ذلك القرآنُ ليفتحَ أريحية المودة والصلة فيقول ﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء] أى: إنْ تنازلتْ الزوجةُ فهذا أمر آخر، وهذا أدعى لأنْ يُؤصِّل للعلاقة الزوجية، كما يُشترط أنْ يكون الأخذ عن طيب نفس من المرأة وليس بسيف الحياء، والهنى هو الشيء

المأكول الذى يستسيغه الإنسان فى فمه، ولكنه قد يكون هنيئاً فى الطَّعم مُتعباً فى الصحة، لكنه هنا وصفه بأنه (مريء) أى: طيِّب الطعم وليس له عواقب صحية رديئة.

ومما يُروى فى ذلك أن رجلاً أتى الإمام علياً يسأله علاجاً من وجع، فقال له: استأذن امرأتك فى درهمين من صداقها واشتر بهما عسلاً، وأذب العسل فى ماء مطر نازل لساعته أى قريب عهد بالله، واشربه لأن الله يقول فى المطر ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً.. ﴿٩﴾ ﴾ [ق] ويقول في العسل ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل]

ويقول فى مهر الزوجة ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء] فإذا اجتمع فى دواء: البركة والشفاء والهنيء والمريء عافاك الله إن شاء الله.

ومن ذلك فإن مهر المرأة حقٌّ دينى لا يخصُّ أحداً سواها، ويدفعه الرجل عن طيب نفس، وتمنح منه المرأةُ ما تشاء لمَنْ تشاء.

الحماية الحقيقية

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

[النساء]

قد يظن الإنسان أن القوة والحماية له فى الدنيا ولذريته من بعده تكون فى جَمْع المال وكَنْزه لهم أو إقامة المشاريع الكبيرة التى يتصوَّر أنها تستطيع البقاء أجيالاً وأجيالاً تكفى ذريته، وتُحقِّق لهم المتعة والقوة.

ومن هنا يظهر الجشع والأنانية وجمع المال دون نظر إن كان من حرام أو حلال.

لكن الله سبحانه وتعالى جعل للإنسان وسيلته المُثْلى فى حماية نفسه وقُوَّتها، بل وحماية ذريته من بعده، وتحصينه من غول الفقر والعَوَز، ألاَ وهى تقوى الله، والخوف منه، والعمل بما أمر، والانتهاء عمَّا نهى، ومراقبته فى السرِّ والعلانية.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [النساء]

إذن: فالعمل الأساسى الذى يحقق للإنسان الاطمئنانَ على حياته ومستقبله، وكذلك الاطمئنان على ذريته هو تقوى الله، وقَوْل الحق والسَّداد.

وقد أشار القرآن الكريم إلى نموذج من ذلك فيما كان من موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى اتبعه موسى ليُعلِّمه مما علَّمه الله، حيث مرَّا

بقرية رفضتْ أنْ تُقدِّم لهم طعاماً، إلا أن العبد الصالح وجد جداراً يكاد يقع فأصلح من شأنه ورمَّمه.

وفسَّر ذلك لموسى عليه السلام الذى استغرب من فعله قائلاً كما حكى القرآن: ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف]

أى: أن سرَّ ما قام به العبدُ الصالح أن الجدار كان تحته كنزٌ، وأن الغلامين اليتيمين كان أبوهما صالحاً، ولأنه كان صالحاً فقط حفظ لهما وديعة أبيهم لهما، وهو الكنز الذى حفظه الله لهما لصلاح أبيهما.

الشفاعةُ بلا مقابل

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [النساء]

الشفاعة هى التوسط بالقول فى وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية أو إلى الخلاص من مضرة وتكون بلا مقابل، ولكن متى تكون الشفاعةُ حسنة، ومتى تكون الشفاعة سيئة؟

الشفاعة من الشفع، والشفع هو ما كان مَثْنى على عكس الوتر، وهو المفرد. والشفاعة الحسنة والسيئة جاءتْ فى قوله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ

شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ [النساء]

والذى يقوم بالشفاعة رجلٌ قادرٌ على التدخل لصالح آخر فى مسألة ما فينضم إليه لتحقيق هذا الهدف، وبعد أن يكون صاحب المسألة فرداً فى ذاته يصير شَفعاً بانضمام الثانى إليه، لذلك يُقال: فلا يشفع لى عند فلان.

والشفاعة الحسنة هى السعى لتحقيق منفعة لشخص ما، فيها خيرٌ له فى دنياه وآخرته فلا يُغضب فيها ربَّه، ولا يؤذى أحداً لا يأخذ بها حقاً ليس له.

وقد رُوى فيما يرويه رسول الله عن الله سبحانه وتعالى أنه قال لسيدنا داود: إن الرجلَ ليعمل العملَ الواحد أُحكِّمه به في الجنة. فتساءل داود: يا رب مَنْ ذلك؟ قال الله: مؤمن يسعى فى حاجة أخيه، يحب أنْ يقضيها قُضيتْ أم لم تُقْضَ.

أى: أن المُتشفِّع لأخيه المؤمن لقضاء حاجته التى هى حَقٌّ له يعطيه الله فضلاً بأنْ يُحكِّمه فى توزيع منازل فى الجنة.

كما قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ مشى فى حاجة أخيه، وبلغ فيها كان خَيْراً له من اعتكافه عشر سنين، ومَنْ اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله تعالى جعل اللهُ بينه وبين النار ثلاثةَ خنادق، بين الخندق والآخر أبعد ممَّا بين الخافقين)).

ذلك لأن العبدَ الذى سعى فى قضاء حاجة أخيه يكون قد أدَّى حقَّ نعمة الله عليه فيما تفضَّل به عليه.

وما دامتْ مواهبُ الناس مشاعةً لكلِّ الناس، فالمجتمع يكون مُتساندا لا متعانداً، وعلى الناحية الأخرى مَنْ سعى فى مضرَّة أحد فسوف يكون له جزاء سَعْيه وعقابه على قدر ما أحدثَ من ضرر.

كلُّ المذنبين فى دائرة الرحمة

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء]

من رحمة الله بعباده أنه لم يشأ جلَّتْ قدرته أنْ يُخرج مذنباً عن دائرة قدرته ورحمته، بل إنه شرعَ التوبةَ للمذنب حمايةً للمجتمع من استشراء شرِّه، فلو خرج كلُّ مَن ارتكب ذنباً من رحمة الله، فسوف يعانى المجتمع ؛ لأن المذنبَ سيتجه إلى طريق المعاصى ؛ لأنه لا أملَ له فى العودة إلى دائرة التوبة بعد أنْ حُرِمَ منها للأبد.

وكلما زاد عددُ المحرومين من التوبة زاد الأشرارُ فى المجتمع، وزادتْ الجرائمُ عدداً وحدَّة. إذن: فالتوبة من الله مشروعية وقبولاً هى لحماية البشر من شراسة مَنْ يرتكب أولَ ذنب.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء]، فمَنْ يرتكب ذنباً أو يظلم نفسه ثم يستغفر اللهَ يجد اللهَ غفوراً رحيماً.

والآية تذكر نوعيْن من الذنوب. أولهما: عمل السوء. وثانيهما: ظلم النفس. ولا شكَّ أن عملَ السوء وظلمَ النفس قد يختلفان بعض الشيء فى

طبيعتيهما، لأن عمل السوء هو عمل الذنب لإضرار الآخرين، لكن ظلمَ النفس هو عمل ما يضر الإنسان به نفسه دون ضرر بالآخرين.

فالذى يسرق أضرَّ آخرين، أما مَنْ يشرب الخمر فى معزل عن الناس فقد ظلم نفسه ؛ لأن الإنسان المسلم مطلوبٌ منه الولاية على نفسه أيضاً، والمنهج الإلهى يحمى المسلمَ حتى من نفسه، ويحمى النفسَ من صاحبها بدليل أن منْ يقتل نفسه يُحرم من الجنة.

الذين يَرمُون الأبرياء

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [النساء]

أنْ يفعلَ الإنسان إثماً فهو أمرٌ واردٌ أشار إليه رسولنا الكريم حتى لا يسرف ذوو النفوس اللوَّامة فى لوْم أنفسهم، فقال: ((كلُّ ابن آدم خطّاء وخيْرُ الخطّائين التوابون)) ولا شكَّ أن الاعتراف بالإثم فى سريرة النفس أول خُطُوات الرجوع والتوبة.

لكن أنْ يقترفَ إنسانٌ إثماً ويتعدَّى الإصرار عليه إلى إلصاقه بآخرين بُرءاء من ذلك الإثم ولا علاقةَ لهم به، فإن هذه الجريمة المُركَّبة التى تنوءُ بحملها القُوَى لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [النساء]

وقد جاءتْ الكلمة (احتمل) وليس (حمل) لتؤكد الآية أن هناك مكابدة وشدة فى حَمْل تلك الجريمة المُركَّبة التى اقتُرفت أولاً بفعل الإثم، ثم

اقتُرفتْ ثانية بإلصاقها لبريء، فإذا ندم مُرتكب الجريمة غير المُركَبة فإن ندمه لا يكون كندم صاحب الجريمة المُركَّبة عندما يهدأ سُعار العداوة عنده فيكون ندمُه عظيماً.

والإثم فى الآية هو السيئة المُتعمدة، وقد نزلتْ الآية عندما حاول بعض ضعيفي الإيمان أنْ يُثنوا الرسول ﷺ عن إثبات تهمة سرقة على مسلم فعل بعد قيامه بالجريمة ما يُلقى بالاتهام على يهودى، فأراد اللهُ أنْ يخبرَ الرسول أن كلَّ الناس أمام قضايا الحق سواءُ.

لذلك كان حكمُ رسولنا الكريم بعد ذلك فى حادثة المخزومية حينما سرقتْ وأراد أنْ يقيمَ عليها الحدَّ، وكلَّمه حبيبه أسامة بن زيد ﷺ في أنْ يرفعَ عنها الحدَّ، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع فى حدٍّ من حدود الله؟

ثم قام إلى خطبته، فقال: أيها الناس إنما أهلك مَنْ كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرقَ فيهم الشريفُ تركوه، وإنْ سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وأيْم الله لو أن فاطمةَ بنت محمد سرقتْ لَقطعَ محمدٌ يدها.

ولذلك يقول الله بعد هذه الآية: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء]

التوبةُ فى رمضان.. بدايةٌ جديدة

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء]

من نعَم الله سبحانه وتعالى على عباده أنْ منحهم نعمةَ التوبة حتى لا ييأسوا من فضله فيتوبوا ليتجددَ إيمانُهم، لأن الإيمانَ يجُبُّ ما قبله، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء]

ومن عظمة الله في التوبة أن الإنسانَ حين يتوب إلى الله وتخلُص نيته، فإذا جاءه الموتُ قد يُعطيه اللهُ نعيماً يفوق منْ عاش مؤمناً لفترة طويلة قد يكون مرتكباً فيها لبعض السيئات فينال عقابها.

ومثل التائب منْ أدركه الموتُ مثل الذى آمنَ ثم مات، كما حدث مع مخيريق اليهودى.. فعندما خرج الرسول ﷺ إلى أُحُد قال مخيريق لليهود: ألا تنصرون محمداً، والله إنكم لَتعلمون أن نصرته حقٌّ عليكم، فقالوا: اليوم يوم سبت. فقال: لا سبت.

وأخذ مخيريق سيفه ومضى إلى رسول الله ﷺ، فقاتلَ حتى أثبتته الجراحة. أى: أصبح لا يستطيع الحركةَ فلما حضره الموتُ قال: أموالى إلى محمد يضعُها حيث شاءَ، فلم يُصلِّ فى حياته ركعةً واحدةً، ومع ذلك نال مرتبةَ الشهيد.

وقال رسول الله ﷺ: ((مُخيريق سائقُ يهود، وسلمانُ سائقُ فارس، وبلالُ سائقُ الجنة))·

ومن رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه أن احتفظ هو بإرادة الغفران، حتى لا يصير الناسُ إلى ارتكاب المعاصى، ولكن لا بدَّ من توبة العبد عن الذنب، كما أن العبدَ لا يتم طرده من رحمة الله لمجرد ارتكاب الذنب·

كما أن هناك فرقاً بين منْ يأتى بالذنب ويفعله ويقترفه وهو يعلم أنه مذنبٌ وأن حكمَ الله صحيحٌ وصادقٌ، ولكن نفسه ضعفتْ، فهذا عبدٌ عاص·

أما منْ يردُّ الحكمَ على الله كأنه يقول مثلاً: الربا ليس حراماً فهو كافرٌ، على عكس منْ يعترف بحُرْمته ويقترفه فهو عَاص حتى يتوبَ ولا شكَّ أن شهر رمضان فرصةٌ عظيمة لمنْ يتوب عن ذنوبه، ويبدأ بداية جديدة·

ليس بالأمانى·· يأتى الفوز

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء]

حينما استخلف اللهُ الإنسانَ فى الأرض أراد له أنْ يستقبلَ كلَّ شيء صالح فى الوجود استقبالَ المحافظ عليه، فلا يفسد الصالح بالفعل، وإنْ أراد طموحاً إلى ما يُسعد ويُريح، فعليه أنْ يزيد الصالحَ صلاحاً·

ولا يكون له ذلك إلا بالعمل والأخْذ بالأسباب، وهو ما أشار إليه القرآنُ فى قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف] وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء]

والأمنية هى أنْ يطمح إنسانٌ إلى أمر مُمتع مُسعد بدون رصيد من عمل، وهو ما لا يمكن أنْ يحدثَ فيتساوى المحسنُ مع المسيء، والعامل مع الكَسُول، والمجتهد مع المتهاون.

وإنما الإنسانُ مُطالبٌ بأنْ يصنعَ أشياءَ ترتقى بها أساليبُ الحياة فى الأرض التى ضمنَ اللهُ له فيها مُقوِّمات الحياة الضرورية، وعليه أنْ يجتهدَ إنْ أراد أنْ يُحقِّق الرفاهية لنفسه.

كذلك الانتساب إلى الدين، فليست المسألةُ أنْ يمتثلَ الإنسان وينتسب إلى الدين شكلاً، فالرسول ﷺ جاء ليحكمَ بين الناس جميعاً، ولا يمكن لواحد أنْ ينتسبَ شكلاً إلى الإسلام ليأخذَ المميزات ويتميز بها عن بقية خَلْق الله من الديانات الأخرى: لا، فالإنسانُ محكومٌ بما يدين به، والمسلم أولُ محكوم بما دَانَ به، أى: بالإسلام.

والخطاب فى قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ.. ﴾ [النساء]

يُوجَّه وجهتين: وجهةً للمؤمنين، وأخرى لغير المؤمنين فهو للمؤمنين يُوضِّح لهم أن المسألة ليستْ مسألة أمان، ولكنها مسألةُ عمل، لأن الانتساب للإسلام لا يُعفى عن العمل، فكمْ من أُناس يعبرون الدنيا وتنقضى حياتُهم فيها، ولا يصنعون حسنةً، فإذا قيلَ لهم: ولماذا تعيشون الحياةَ بلا عمل؟

يقولون: (أحسنَا الظنَّ بالله) وهو ما يردّ عليه الإمام الحسن البصرى بقوله: ليس الإيمان بالتمنِّى، ولكنْ ما وقر فى القلب وصدَّق العمل، وإن قوماً ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنةَ لهم، وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العملَ.

أما غيرُ المؤمنين فالله لم يمنع عطاءَ الدنيا لمن أخذ بالأسباب حتى ولو لم يؤمن.. أما جزاء الآخرة فهو وعدٌ منه سبحانه للمؤمنين الذين عملوا صالحاً، وهو الوعد الحق بالجنة، هذا الوعد الحق ليس بالأمانى بل إن الوصولَ إلى هذا الوعد يكون بالعمل.


سورة المائدة

سورة المائدة

مواثيق كثيرةٌ بين العبد وربِّه

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة]

بعضُ الناس يتحدثون عن نعم الله تعالى بصيغة المفرد فيقولون نعمة ويقصدون النعم الكثيرة، ثم هم يتحدَّثون عن السمع والطاعة بأنهما ميثاقٌ يربط بين العبد وربه، ولذلك حقيقة من الحقائق.

يقول تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة]

التذكُّر يكون لمعانى الأشياء، والذاكرة تحفظ هذه المعانى حتى يحتاج إليها الإنسان فتدفعها إلى بُؤرة شعوره.

والمتأمل فى الآية الكريمة يجد أن الله سبحانه وتعالى أتى فى الآية بكلمة " نعمة " مفردة رغم أن نعمَ الله كثيرةٌ لا تُحْصَى دلالة على أن أىَّ نعمة من نعم الله تستحق أن يتذكرها الإنسان، كما أن اسم الجنس يجوز أن يُطلق مفرده على كل الجنس.

وكلمة ﴿ وَاثَقَكُم ﴾ تقتضى التأكيد من طرفين، والإنسان طرف الاحتياج والأخذ والفقر، والرب صاحبُ الفضل والعطاء والغنَى، إنه هو الربوبية والإنسان هو العبودية.

أما الميثاق المذكور فى الآية فهو الميثاق الأول الذى هو ميثاق الفطرة قبل أن توجد النفسُ البشرية وشهواتها، ويُسمَّى ميثاق "الذر" فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]

لكنّ هناك ميثاقاً آخر، وهو ميثاق العقل الذى أعطاه الله للإنسان ينظر به إلى الوجود ليتأكد أنّ الوجودَ مُحكم ومنظم وواسع، ولا بُدَّ له من واجد، وهو الله.

ثم هناك ميثاق الإيمان، حيث أرسل الرسل يعرضون على الإنسان منهجَ الله، كل هذه مواثيق تمتْ بين الله والإنسان، طرفها الأول الله الذى عرض، والثانى الإنسان الذى أجاب بالإيجاب وهو السمع والطاعة، وعلى الإنسان أن يذكر ويستحضر دائماً هذه المواثيق كلما حاول الشيطان أنْ يبعدَ به عن الطريق القويم.

مقتضيات نداء الإيمان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ.. ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة]

إن الله تعالى علّمنا حين ينادى المؤمنين بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إنه سبحانه لم يقتحم على الناس تصرفاتهم الاختيارية لمنهجه، بل يلزم ويأمر منْ آمن به ويُوجب عليه فيوضح: يا منْ آمنتَ بى إلهاً حكيماً قادراً خُذْ منهجى.

ولكن اللهَ تعالى يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ حين يريد أنْ يلفتَ كلَّ الخلْق إلى الاعتقاد بوجوده، أما منْ يؤمن به فهو يدخل فى دائرة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

هذا النداء يقتضى أنْ يسمعَ المؤمنُ التكليفَ ممَّن آمنَ بوجوده، ونعلم أن الناسَ جميعاً عبيدُ الله، لكن ليسوا جميعاً عبادَ الله.

وهناك فرْق بين (عبيد) و (عباد)، فالعبيدُ هم المُرغَمون على القهر فى أىِّ لون من ألوان حياتهم، ولا يستطيعون أنْ يُدخلوا اختيارهم فيه، فقد نجد متمرداً يقول: (أنا لا أومن بإله)، ولكن هل يستطيع أنْ يتمرد على ما يقتضيه اللهُ فيما يُجريه عليه قَهراً؟

فإذا مرضَ وادَّعى أنه غيرُ مريض، فما الذى يحدث له؟ أيجرؤ واحدٌ من هؤلاء المتمردين على ألاَّ يموت؟!! لا أحدَ يقدر على ذلك.

إذن: فكلُّ عبد مقهورٌ لله، وكلنا عبيدٌ لله يستدعينا وقتما يريد، ويُجرى علينا ما يريد بما فوق الاختبارات. أما (العباد) فهم الذين يأتون

إلى ما فيه اختيار لهم، ويقولون لله: لقد نزعنا من أنفسنا صفةَ الاختيار هذه، ورضينا بما تقوله لنا (افعل كذا) و (لا تفعل كذا).

إذن: فالعبيد مقهورون بما يُجريه عليهم اللهُ تعالى بما يريد، والعبادُ هم الذين يرضون ويكون اختيارهم وفقَ ما يُحبّه الله ويرضاه، إنهم أسلموا الوجهَ لله، فهم مقهورون بالاختيار، أما العبيد فمقهورون بالإجبار.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ.. ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة] وقوامين: صفة مبالغة، والأصل فيها قائم، فإن أكثرَ الشخصُ القيامَ نقول: (قوّام).

إن اللهَ يطلب من كلِّ مؤمن ألاَّ يكونَ قائماً لله فقط، ولكن يطلب من كلِّ مؤمن أنْ يكونَ قوّاماً أي: مبالغاً فى القيام بأمر الله.

والقيام يقابله القعود، وبعد القعود الاضطجاع، وهو وضع الجنب على الأرض ثم الاستلقاء، وبعد ذلك ينام الإنسان ونحن أمام أكثر من مرحلة: قائم وقاعد ومُستلق ونائم، والنائم ليس عليه تكليفٌ، والمُستلقى هو المستريح على ظهره، والله تعالى يقول: ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ.. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النساء]

سُبُل السَّلام.. مُتعدِّدة

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦ ﴾ [المائدة]

آفة مَنْ يُشرّع أن يكون لهواه أو لهوى مَنْ يحب دخل فيما يُشرّعه، فالمُشرّع الحقيقى هو مَن لا ينتفع بما شرع، ولا يوجد هذا الوصف إلا فى الله ؛ لأنه يُشرّع للجميع، وهو فوق الجميع.

يقول الله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦ ﴾ [المائدة]

فالذى يتبع رضوانَ الله يهديه اللهُ لسُبُل السلام، وإذن ففيه رضوانٌ مُتَّبع، وفيه سُبل سلام كمكافأة.

وهل للسلام طرقٌ وسُبُل؟ نعم.. لأن هناك سلامَ نفس مع نفسها، وهناك سلام نفس مع أسرتها، وهناك سلام نفس مع جماعتها، وهناك سلام نفس مع أمتها، وهناك سلام نفس مع العالم، وسلام نفس مع الكون كله، وسلام نفس مع الله.

إذن: سُبل السلام مُتعددة. والسلام مع الله بأنْ يُنزِّه الإنسانُ ربه فلا يعبد معه إلهاً آخر. أى: لا يشرك به شيئاً.

والسلام مع الله يُحقق السلامَ مع النفس ومع الكون ومع الناس؛ لأن الإنسان إذا ما حقق سلامه مع خالقه سالمتْه جميعُ مخلوقات خالقه؛ لأنه ينسجم فى حركاته وسكَناته مع منهج الله، والمخلوقات تتوازى حركاتها مع ذلك المنهج، لأن الذى جبلها على ذلك هو الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا فمَنْ يُحقّق سلامه مع الله باتباعه منهجه يكون جزاؤه أنْ يهديه الله سُبل سلامه ليزداد هدى. يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وزيادة الهدى والتقوى بأنْ يصبح المنهج الإلهى من طبائع النفس التى تعودتْ على الهدى، كما يجد المؤمنُ آثارَ هدايته فيما حوله.

النجاح فى الابتلاء

﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

للعبادة لذة لا يعرفها إلا مَنْ ذاقها خاصة إذا ما كانت عن طواعية وحب ولا يصل إلى حلاوتها إلا مَن جُبلَ على أفعال معينة لا يملك تغييرها بإرادته ولا اختيارَ له فيها.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

الله سبحانه وتعالى يريد أنْ يُخبرنا أنه لو شاء لخلق النـاسَ جميعـا متفقين فى (افعل) و (لا تفعل) ولكنه لم يُرد ذلك حتى لا يألفَ النـاسُ العبادةَ، وتصير كالعادة عندهم فيُحرَمون من لذة التكليف والإيمان بـه، وكذلك ليُفرّق بين إمكانات قوم وإمكانات آخرين فى تحمُّل التكليف.

فالمسألة ليست رقابة أبداً بل هـى ابـتلاء واختبـار، لـذلك جـاء الاستدراك فـى قولـه تعـالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة].

والتسابق فى الخيرات إنما يكون بهدف النجاح فى الابتلاء، والنجاح يعطينا أكثر مما ننال بعد الامتثال.

إذن: فالابتلاء فى مصلحة البشر لأنه يعطى الناجحين نجاحاً أخلـد، وقصارى ما يُزينه الشيطانُ للناس أو تتخيله نفوسهم أنْ تمـرّ الشـهوةُ العابرة وتنقضى فى الدنيا العابرة أيضاً، وبعد ذلك يأتى العذاب المقيم.

وعندما نوازن هذا الأمر كصفقة نجدها خاسرة، لكن إنْ نجحنا فـى ابتلاء الله لنا فذلك هو الفوز العظيم، لأن الخير إنما يُقاس بعائده، فإياكم أن تفهموا أن الله حرمهم شهوات الدنيا لأنه يريـد حرمـانهم، ولكنـه حرمهم بعضاً من شهوات الدنيا لأنها مفسدة.

ثم تنتهي الآية بقوله: ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة] لأن الكلَّ سيرجع إلى الله، وما دام هناك اختلافٌ فلا بُدّ أن يوجد مَنْ أخذ جانب الخير ومَنْ أخذ جانب الشر.

ربْطُ الجريمةِ بعقَابِها والعمل بنتائجه

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المائدة]

يستغرب أحياناً بعضُ البشر من أحوال بعض الظالمين، وتماديهم في غَيِّهم، وفي نفس الوقت يجدونهم يَبْلغون في الدنيا شأواً عظيماً، ويتساءلون عن سرِّ عطاء الله لهم.

لو قيسَ عذاب الآخرة بهناءة الدنيا، وهناءة الآخرة بمعاناة الدنيا لَظهر لهؤلاء المُستغربين حقيقةُ الأمر، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المائدة]

وللإنسان أنْ يتصوّر الجماعةَ الكافرة التي تتكبَّر في الدنيا، ويعتلون ويرتفعون بالجبروت وموقفهم في الآخرة في ضوء هذه الآية حين

تضيع هذه القوةُ وتفلت، وهو مشهدٌ يجعل النفسَ تستشعر أن المسألة ليست لعباً ولا هزلاً، ولكن هى جدّ فى منتهى الجد.

وعلى الإنسان أن يقدر العقوبة قبل أن يستلذّ الجريمة، ولأن الذى يجعل الناس تستشرى فى الإسراف على أنفسهم أو الواحد منهم أنهم يعزلون الجريمة عن عقوبة الجريمة.

ولو قارن الإنسان قبل أن يسرف على نفسه العقوبة بالجريمة لَمَا ارتكبها وكذلك الذى يكسل عن الطاعة لو يقارن بجزائها لأسرع إليها.

فالطالب المجتهد الذى يتغلّب على النُّعاس ويتوضأ ويُصلى ويخرج من مدرسته فى برد الشتاء ليُحصّل الدروس.. ويعود إلى المنزل وهو مشغول بدروسه يختلف بالطبع مردودُ هذا الجهد عن الطالب الذى يهمل فى دروسه وينام، فالأول مُقدّرٌ للنتيجة، والثانى غير مُقدّر للنتيجة، والأول لا يعزل العمل عن النتيجة، والثانى يعزل العمل عن نتيجته.

بين الجَهْل والأُميَّة

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة]

فَرْقٌ كبيرٌ بين الجاهلية والأمية، فالجاهلية نسبة إلى جاهل، والجاهل شخص يعرف لكنه لا يعرف الحقيقة، وإنما يعرف المناقض لها، أما الأمى فهو شخصٌ لا يعرف.

لذلك وصف الإسلامُ التصرُّفات الخاطئة التى كانت قبل الإسلام (جاهلية) ووصف العصر الذى سبق الإسلام بـ (العصر الجاهلى) لأنهم كانوا يعتقدون أنهم على الصواب الذى لا شيء غيره وما دونه الخطأ، ولا يتصورون أنْ يأتىَ مَنْ يطالبهم بتغيير ما يعتقدونه الصواب·

وبالتالى كان وصفه سبحانه وتعالى للعودة إلى منهج ما قبل الإسلام فى التفكير والتعامل والتصرف والاحتكام بأنه جاهلية·

يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [المائدة]

فالله يتساءل فى آخر الآية: هل يرغبون فى الاستمرار بالاعتقاد الخاطيء الجاهل؟·

أما الأُمىُّ فيختلف الأمر معه، لأنه يكفيه أنْ نقولَ له العلم الصحيح الذى نريد أن نُعلِّمه إياه فيقبله، لأنه ليس لديه معلومات مُسبقة فيما تُحدثه فيه، أما الجاهل فلا بُدَّ للتعامل معه من عملين:

أولهما: أنْ نجعله يحذف ويستبعد من باله القضيةَ الخاطئةَ·

والثانى: أنْ نجعله يقتنعُ بالقضية الصحيحة·

لذلك فإن أكثر الذين يحتاجون إلى جهد كبير فى مجال الدعوة إلى الله هم الجهلة الذين يعتقدون اعتقاداً خاطئاً يتضمن قضايا باطلة، وإن اختلفتْ نسبةُ الجهل بينهم بين شكٍّ وظنٍّ ووَهْم، فإنْ كانت مجالاً للنفى والأسباب فهى شَكٌّ، وإنْ كان النفىُ راجحاً فذلك الوهم، وإنْ غلبَ الإثبات فذلك ظنٌّ·

شخصيةُ المنافق

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة]

لا يُغنى إيمانُ أحد عن كفر آخر، ولا تنفع كافراً صداقةُ مؤمن، كما لا تنفع الابنَ الفاسق استقامةُ أبيه، ولا تنفع الأبَ استقامةُ ابنه، لأن الإيمانَ عملٌ قلبيٌّ صدّقتْه الجوارح فى تصرُّفاتها، ولا تتغيَّر القلوبُ بتصرفات شكلية.

كذلك كان المنافقون الذين كانوا يأتون إلى رسول الله يزعمون له أنهم مؤمنون ويخرجون من عنده وهم على كفرهم، لأنهم اتخذوا دينَ الله هُزُواً ولعباً وسُخرية.

يقول الله تعالى فى وصفهم: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة]

أى: أن الدخول كان نفاقاً بدليل قول الله وهو أعلم. ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة] وهذا القول دليلُ نفاقهم فقد أعلنوا الإيمان، لكنهم دخلوا بالكفر وخرجوا بالكفر، وكانوا يكتمون أن الدخول إلى رسول الله هو مَحْض نفاق.

وهذه خاصية لمَنْ قالوا آمنَّا وهم لا يؤمنون، لأن كفرهم أمر مستقر فى قلوبهم لا يتزحزح، وكان يكفى فى الأسلوب أنْ يقول الله: وقد دخلوا

بالكفر وخرجوا به، ولكنه قال ﴿ وَهُم ﴾ وذلك تحديداً لهويتهم الكافرة، وكأن عملية الدخول بالكفر والخروج بالكفر هى عملية مُسبقة، لذلك كشفهم الله بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة]

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ ﴾ لا يعنى أن الناس لم يَكُنْ منهم مَنْ يعلم ذلك، وإنما يعنى أنه أعلم من الناس التى تعلم، ومنهم الرسول ﷺ، ولكن الله محيطٌ بكلِّ ما فى نفوسهم، فجاء الفعل في صيغة أفعل تفضيل: أَعۡلَم.

النَّبىُّ... المَعصُوم

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ.. ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة]

فى ليلة الهجرة دبَّرت قريشٌ مؤامرة لقتل رسول الله ﷺ، ولكن الله سبحانه وتعالى نجَّاه منها، ذلك لأنه تكفل بحماية نبيه من أيدى الناس، وهو القائل له: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ.. ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة]

ولأننا نعرف أن الرسول لا يجيء إلا بعد أنْ يعمَّ الشر ويسود الفساد، ذلك لأنه لو لم يَسُدْ الفساد، ولم يعُم الشر لاكتفى اللهُ بالمجتمع ليُردع بعضه بعضاً، أو يكتفى بأن تردع النفس اللوَّامة النفس الأمَّارة بالسوء لتستوى النفس المطمئنة على عرش السلوك البشرى، لكن عندما يعم الفساد الكون فالسماء ترسل الرسول بمنهج يصلح حال البشرية.

وبطبيعة الحال لن يترك المجتمع الشرير الرسول لحاله بل يقاومه، لأن مثل هذا المجتمع يريد أن تكون كفَّة الكون غير متوازنة، لأن هناك

منتفعين بالفساد والشر، وهم المدافعون عن الفساد، فإن جاء مَنْ ينصف الضعفاء والمظلومين فلا بد أن يتعرض للمتاعب التى تأتيه من قبل الأقوياء المفسدين

إن هذه المتاعب تبدأ أولَ ما تبدأ فى النفس، ولأن الرسول مخاطبٌ من الله فيمكنه أن يتحملها، لأن الله قد أعدَّه لهذه المهمة، مثل تلك المتاعب تأتى أيضاً للأتباع، لذلك يمدُّهم الله بالمَدد الذى يجعلهم يتحملونها.

والله يحفظ الرسول ذاته على الرغم من كل ما يحدث: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ.. ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة] فكأن الله يقول لرسوله: اطمئن يا محمد، لأن مَنْ أرسلك هداية للناس لن يُخلى بينك وبين الناس، ولن يجرؤ أحدٌ أن يُنهى حياتك، ولكن سأمكنك من الحياة إلى أنْ تُكمل رسالتك.

وإياك أن يدخل فى رَوْعك أن الناس يقدرون عليك، صحيح أنك قد تتألم، وقد تعانى من أعراض التعب فى أثناء الدعوة، ولكن هناك حماية إلهية لك.

ونحن نعلم قدر المتاعب التى تعرَّض لها الرسول ﷺ، ألم تُكسر رباعيته فى غزوة أحد؟ ألم يُشج وجهه؟ ألم تَدْم أصبعه، ألم تُدبَّر المؤامرة لقتله ليلة الهجرة، إن أحداً غيرُ قادر على أن يأخذ حياته.

ولم يمنع سبحانه المتاعبَ عن رسوله الكريم حتى لا يكون هناك أحدُ الداعين إلى الله لا يتحمل من الآلام أكثر مما تحمَّل رسوله ﷺ.

الإدراك.. والوجدان.. والنزوع

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة]

من دقة الأداء القرآنى الذى جاء من قبل أنْ يُجهد المفكرون أنفسهم فى دراسة ظواهر وأحوال النفس البشرية فى مجال علم النفس بالبحث والاستقراء والتجارب، وأثر ذلك فى وظائف الأعضاء قول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة]

لقد قال العلم: إن لكلٍّ آلة وظيفة، فالعينُ ترى، والأذنُ تسمع، واللسان يتذوّق ويتكلم، والأنف يشُم، واليد تلمس.

وقال العلماء فى البداية: إن هذه هى الحواسّ الخمس الظاهرة، وكلمة " الظاهرة " هذه إنما جاءت للاحتياط، لأن هناك أموراً يشعر بها الإنسان، ولكن لا يدرك كيفيةَ ولا مصدرَ شعوره بها مثل الجوع أو العطش، أو فى أثناء المقارنة بين شيئين أيّهما أكثر ثقلاً.

لقد حاول العلماء إدراك كيفية تمييز الإنسان بين ثقل وثقل آخر، فقالوا: إن هناك حاسة اسمها العضل، فعندما يحمل الإنسان شيئاً ما، فإنه يُجهد العضلات لدرجة تُمكِّنه من التمييز بين درجات الجهد.

وعرفوا أيضاً أن هناك حاسةً اسمها حاسة البَيْن، وهى الحاسّة التى يميز بها الإنسانُ درجةَ نعومة أو سُمْك أىَ نوع من القماش حتى ولو كان السُمْك يبلغ الواحدَ من العشرة من المليمتر.

إذن: فهناك حَواسّ كثيرة يمكن للإنسان الإدراك بها، وهناك حواسّ تترك بعضاً من الأثر فى النفس البشرية كآثار الحب والمَيْل أو البغض والنُّفرة، ومقرّها الوجدان كإدراك حلاوة طَعم شيء أو كراهة شيء آخر، فإذا استطاب الإنسان شيئاً أخذ منه مرة ثانية.

وهذا العمل هو نزوعٌ يتبع الوجدان الذي يتبع الإدراك. إذن: فهناك إدراك يُدرك، وهناك وجدان يجد، وهناك نزوع ينزع.

مثال ذلك: إدراك وردة جميلة المنظر واللون في بستان، هذا الإدراك قد يصيب من القلب عشقاً وحباً، أى وجداناً، وأنت حُرٌّ فى أن تدرك ما شئتَ، وأن تجدَ ما شئتَ، لكن ليس لك أنْ تمدَّ يدك لتقطف الوردة، لأن الشرع يُحرِّم ذلك، وحارس البستان أيضاً يمنعك من ذلك، هذا على الرغم من أن أحداً لا يمنعك من أن تنظرَ إلى الوردة وتستمتع بجمالها، فالإدراك إذن مباح والوجدان أمر مباح.

أما النزوع فهذا هو الأمر الذى تتدخَّل فيه الشريعة، ولنا أن نكرر أن الإدراك مباحٌ والوجدان مباح إلا فى إدراك جمال الأنوثة، فالشرع يتدخَّل من البداية، فأنت قد تدرك جمال المرأة فتجد فى نفسك حباً ومَيلاً، فإذا نزعتَ فكيف يمكنك أن تضبطَ نفسك؟

فانت بعد الإدراك والوجدان إما أن تنزع، وإما أن تكبت، وإن نزعتَ انتهكتَ أعراض الناس، وإنْ كبتَّ أصابك القهر والألم، لذلك يتدخَّل الشرع في هذه المسالة من بدايتها فيمنعك تحريماً من أنْ تدرك وذلك بأمر واضح هو غضُّ البصر، لأن المسألة الجنسية من الصعب أن تفصلها عن بعضها.

فالإدراك يمكن فصله عن الوجدان، والنزوع يمكن فصله عن الوجدان والإدراك في أمر الوردة، أما فى المسألة الجنسية فهى سُعار·· إما أن يقابله الإنسان بأنْ يعفّ، وإما أن يلغ، فإنْ عفَّ الإنسان فهو يكبت ويتوتر، وإنْ ولغَ الإنسان فى أعراض الناس فهذا أمر يُسبِّب هتك أعراض الناس، ولذلك يمنع الشرع من البداية مسألة الإدراك·

وقد جاءت هذه الآية الكريمة قبل أن يأتىَ علماءُ النفس ليُفسِّروا أمور الإدراك والوجدان والنزوع، فها هو ذا الحق يقول ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ﴾ وهذا إدراك بحاسة الأذن وما المسموع؟ يجيب القرآن ﴿ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ وهذا هو سببُ الوجدان الذى يأتى فى قوله: ﴿ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ.. ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة] فكيف يكونُ نُزوعهم بعد هذا الوجدان؟

إنهم ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة] وهذه هى العملية النزوعية· والقرآن الذى نزلَ من أربعة عشر قرناً جاء بترتيب الإدراك والوجدان والنزوع قبل أن يأتىَ به العلم، فساعةَ سمعوا بالأذن، حدث شيءٌ فى الوجدان، والتغير الذى فى الوجدان له علاماتٌ ظهرتْ فى عيونهم التى فاضتْ بالدَّمع·

مقياسُ الحُكْم على الأشْياء

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة]

الحكم على الأشياء، هل بكميتها وقَدْرها؟ أم بكيفيتها وصفتها وبعمرها فى الخير؟ الخبيث لا يستوى أبداً مع الطيِّب، بدليل أن الإنسان منا إذا ذهب لشراء سلعة فهو يفرز البضاعة ليختار الطيبَ ويبتعد عن الخبيث.

وهذه قضية كونية مثلُها تماماً مثل عدم تساوى الأعمى والبصير، وعدم استواء الظلمات والنور.

ويأتى اللهُ سبحانه وتعالى إلى المُحسَّات ليأخذ منها ما يوضح لنا الأمرَ المعنوى، ولذلك يُحذِّرنا أنْ نغترَّ بكميات الأشياء ومقدارها، فإن الطيِّب القليل هو أرْبَى وأعظم وأفضلُ من الكثير الخبيث.

والأمر الطيب قد يرى الإنسانُ خيره فى الدنيا، ومن المؤكد أنَّ خيره فى الآخرة أكثرُ بكثير مما يتصوَّره أحد، لأن غمر الآخرة لا نهايةَ له، أما عمر الدنيا فهو محدود.

ولذلك يقول تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المائدة]

وهناك خطأ كبير فى تصرُّف كثير من الناس عندما يحضرون قسمة ما، فكلُّ واحد يرغب فى أنْ يأخذَ لنفسه النصيبَ الأكبر، لأن الإنسان تُغريه الكثرة.

وهذا الطمع يُشيع الخُبْثَ فى جميع ما يأخذه الطامع، فالذى يطمع فى حفنة من قمح مثلاً تزيد على حقِّه، فهو يُفسد حياته بهذا الشيء الخبيث، وذلك كخلْط الماء الطاهر بماء نَجس فتغلب النجاسةُ على الماء.

إذن: فلا يصح أنْ نحكمَ على الأشياء بكميتها وقدْرها، ولكن يجب أنْ نحكمَ على الأشياء بكيفيتها وصفتها وبعُمرها فى الخير.

وعلى الإنسان أنْ يقدرَ استمرار النفع بدوامه، ولا يغتر بكثرة الخبيث، وعليه أن يرفض الخبيث لأننا لو تدبرنا الحكم بعقولنا لوصلنا إلى أن حكمَ الله هو الحكم العدل فى العطاء والمنع.

القرآن.. وتطوُّر العقل

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة]

من حكمة الله سبحانه وتعالى أنْ ترك فى الكون أشياءً لتطورات العقول فى العلم، بحيث كلما تقدَّم العلمُ وجدَ خيطاً يربط بين آيات الله فى الكون وآياته فى القرآن الكريم.

وقد ترك الرسولُ الكريم تفسيرَ الآيات الكونية لهذا الغرض، فكان قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ.. ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة]

لأن الرسولَ الكريم لو تعرَّض لهذه الآيات تعرُّضاً لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن، فإنه ربما صرف العقولَ عن أساسيات الدين إلى جدل فى أسرار الكون لا يستطيع العقل أن يستوعبه أو يفهمه فى ذلك الوقت.

كما أن تفسير الرسول لكونيات القرآن وقت نزوله لو تمّ فإن أحداً لن يجرؤَ على تفسير القرآن بعد رسول الله، وبذلك يكون عطاء القرآن الكريم قد جَمُد، ولكن ترك رسول الله ﷺ تفسيرَ القرآن أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن ولاجتهادات المجتهدين ونظر الناظرين إلى يوم القيامة.

ومن هنا كان المنع هو عينُ العطاء، وتلك معجزة أخرى من إعجاز القرآن. وكلمة (قرآن) حين نسمعها نفهم أنه يُقرأ لأن (قرآن) مصدر قرأ مثل غفر غفراناً، ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسماً لكلام مُوحىً به من عند الله سبحانه وتعالى لرسول الله ﷺ بقصد التحدِّى ويُسمِّيه الله تبارك وتعالى كتاباً.

إذن: هو قرآن إذا أخذنا أنه يُقرأ، وهو كتابٌ إذا أخذنا أنه يُكتب، والقراءة تستلزم حافظاً، والكتابة لا تستلزم حافظاً، فالإنسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجاً إلى الحفظ، ولذلك فللقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة: يُحفظ فى الصدور، ويُسجَّل فى السطور، بحيث تستطيع فى أىِّ وقت أنْ تقرأ من الكتاب.

وهذا نَهْيٌ عن السؤال، والنبي ﷺ قال: ((ذَرُوني ما تركتُكم.. فإنما هلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سُؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتُكم بشيء فأتُوا منه ما استطعتُمْ، وإذا نهيتُكُم عن شيء فدَعُوهُ)).

ونعرف أن بني إسرائيل شدَّدوا على أنفسهم عندما أخذوا يُماطلون في أمر ذبح البقرة، وتساءلوا عن لونها، وشدَّدوا فشدَّدَ اللهُ عليهم، ولو أنهم ذبحوا أيَّ بقرة لكانتْ مقبولةً منهم، لكنهم شدَّدوا فشدَّدَ اللهُ عليهم حتى جاءتْ البقرةُ الموصوفةُ مِلكاً ليتيم.

كان هذا اليتيمُ ابناً لرجل صالح، وكانت له (عِجْلة) فأتى بها موضعاً كثيرَ الشجر والمرعى. وقال: اللهم إنِّي استودعتُكَها لابني حتى يكبر. وعندما ساوموا اليتيمَ على ثمنها باعها لهم بمِلْءِ جلدها ذهباً.

وقد شدد بعضُ الناس في سؤال رسول الله ﷺ مثل عبد الله بن حُذافة بن قيْس السَّهْمي الذي سأل رسول الله ﷺ: مَنْ أبي؟ فأجاب رسول الله: أبوك حذافة.

ولو فرضنا أن هذا السائلَ كان يُنسب لغير أبيه ألاَ يكون في ذلك فضيحة لأمه، وقد قالت له أمه: ما رأيتُ أعقَّ منك قَطّ. أكنتَ تأمن أنْ تكون أمك قد قارفتْ ما قارف أهلُ الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس.

لقد أراد الحقُّ أنْ يُخفِّف من أسئلة الناس في الأمور التي تُؤدِّي بهم إلى المشقة والتعب وتُسيء إليهم.

وتقبّل الحقُّ من رسوله أسئلةَ المؤمنين عن القواعد الشريعة مثل: سؤالهم عن الخمر والأهِلَّة والحيْض والشهر الحرام وغيرها. أما الأسئلة الأخرى فقد قال الحقُّ في شأنها: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

[المائدة]

ذلك أن البعضَ استمرأ السؤالَ وكأنه يمتحن النبي ﷺ، ولذلك جاء الأمْرُ بألاَّ يتعمدَ المؤمنون السؤالَ عما ستره اللهُ عنهم كي لا ينفضحَ عِرْضُهم.

﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ [المائدة] فإنْ نزلَ القرآنُ وهو يحمل الإجابة كان بها، وإنْ لم تَأتِ الإجابةُ فلا يقولنَّ أحدٌ: إن النبيَّ ليس عنده جواب.

أو هي سؤالٌ عن الأشياء التي اقترحوها ادعاءً منهم أنها تُثبتُ صدقَ النبوة، فقد حكى اللهُ عنهم:

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

لقد ظهر من هذا القول سُوء النية المُبيَّتة منهم، فالرسول لن يأتيَ بالآيات، بل تأتيه الآياتُ بالأمر المُكلَّف به ؛ لأن الرسولَ لا يختار ما يُؤتَى به من آيات، ولكن الحقَّ هو الذي يُرسل الآيات المناسبة.

ولذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [المائدة]

والحق لم يرسل هذه الآيات رحمةً بمَنْ سألوا الرسول ﷺ عنها، فقد سأل قومٌ عن ناقة وعقروها فأبادهم الله. وقوم عيسى ـ عليه السلام ـ سألوا عن مائدة ونزلتْ عليهم وتوعَّدهم الحقُ بعدها إنْ لم يؤمنوا.

وكانت سُنة الله مع خَلْقه إنِ اقترحوا هم آية ولم يُصدِّقوها فإنَّ الحقَّ يُهلكهم أو يُعذِّبهم، ويعطي سبحانه أمةَ محمد ﷺ ضماناً ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن: فالأسئلةُ التي سألوا عنها لم يُجبْهم عنها، لأنه سبحانه قد عفا عنها. والعفو - كما نعلم - مأخوذٌ من عفّى الأثرَ. أي: أذهب الأثر، وعَفْوُ الله من مغفرته ورحمته.

الصِّرَاعُ بينَ الحَقِّ وَالبَاطل

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة]

الصراع بين الحق والباطل صراعٌ أزليٌّ منذ وجود الإنسان على الأرض وللحق أنصار يريدون له الغلبةَ والانتشار فى دنيا الناس لما

يعلمون له من آثار وعاقبة، وللباطل دُعاته والمستفيدون من انتشاره ويحرصون على غَلبته وتفوقه.

ودائماً ما يتأثر دعاةُ الحقِّ ويأسُون لمَا عليه دعاةُ الباطل لأنهم يدركون المصير الذى يتجه إليه دعاة الباطل.

من صفات المؤمن الحق أنه يحبُّ الطاعةَ، ويحاول أنْ يجعل أخاه المؤمن مُحباً للطاعة، فإنْ رآه على منكر فإنه ينهاه عنه ويدفعه إلى المعروف، فالخير حين يكون من الإنسان ينفع سواه، وقد يتأجل نفعه هو لنفسه إلى الآخرة.

وخير المؤمن يفيد المجتمع ويضر أهل الضلال، فصدْقُ المؤمن يفيد المجتمعَ ويضرُّ أهل الضلال، ونزاهةُ المؤمن يستفيد منها المجتمعُ وتضر أهلَ الضلال، أما أن المجتمع فاسدٌ فالمؤمن يشقى بفساد هذا المجتمع.

إذن: فمن مصلحة المؤمن أن يُعدّىَ الخير منه إلى سواه حتى ينتشر الخيرُ ويعود الخير إلى المؤمن من حركة الخير فى المجتمع، لذا يقول الله سبحانه وتعالى مُطمئناً المؤمنين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [المائدة]

كأن نفوسَ المؤمنين وحدةٌ واحدة، وهو تعبيرٌ عن ضرورة شيوع الرتابة الإيمانية المتبادلة بين المؤمنين، ولا يأبهون للذين لا يسمعون إلى دعواهم، ولا يتركونهم فى طريقهم المستقيم لأن المعركةَ بين الحق والباطل ستظلُّ إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

فأهلُ الضلال لا يستريحون إلا إلى مواطن الفساد، مثلهم مثل الأوبئة التى لا تعيشُ إلا فى الأجواء الفاسدة، فإذا تطهرتْ الأجواء لم يعُد للاوبئة مكان للحياة.

إنزال المائدة

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

[المائدة]

وكلمة الحَوَارِيّ مأخوذة من المُحسَّات. فالحُوَّاري تُطلق على الدقيق النَّقي الخالص. وأُطلقَتْ على كلِّ شيءٍ نقيٍّ بصفاء خالص. و(الحوَاريّ) هنا تعني المُخلص والمُحبّ لمنهج الخير.

وسبحانه يقول: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ والوَحْيُ بمعناه العام هو: الإعلام بخفاء أي: أن الحقّ سبحانه ألهمهم أنْ يُؤمنوا برسالة عيسى المُبلِّغ عن الله، أي: أعلمهم بخواطر القلب التي أعلمَ بها أُمّ موسى أنْ تُلقى ابنها في اليَمّ ليُلقيَهُ اليَمُّ إلى الساحل.

وهو غير الوحي للرسول، فالوَحْي للرسول هو الوَحْيُ الشرعي بواسطة رسول مُبلِّغ عن الله هو سيدنا جبريل عليه السلام، أما وحْيُ الله إلى أم موسى أو إلى الحواريين فهو استقرار خاطر إيماني يلتفت بعده المُوحَى إليه ليجد الواقعَ يُؤيد ذلك.

وعندما لا يصادم إلهامُ القلب أمراً واقعاً، ولا يجد الإلهامُ ما يُصادمه في نفس الإنسان، فهذا لوْنٌ من الوحي، أي: هو إعلامٌ بخفاء، كأنْ يتوقَّع الرجلُ مَقْدَم صديق من سفر، أو لوْناً من الطعام يشتهيه فيجده على المائدة.

إذن: فالإلهامُ واردٌ من الله لخَلْق الله ما دام لا يَصادم شيئاً في النفس أو في الواقع ؛ لأن الإلهامَ الذي يُقابل صداماً ليس من الله، فالشياطينْ يُوحِي بعضُهم إلى بعض زُخْرفَ القول غُروراً.

إن اللهَ أوحى للحواريين أنْ يُؤمنوا به وبرسالة عيسى عليه السلام، وبمجرد مَجِيء عيسى وسماعهم أنه رسولٌ من الله أعلنوا الإيمان به وصاروا من خلَصائه.

وساعة نرى: ﴿ وَإِذ ﴾ فلنفهمْ أن معناها تذكّر وقت الحدث الذي قال فيه الحواريون: نحن آمنَّا بعيسى نبياً من عند الله، وأشهدوه أنهم مسلمون.

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾

كان عيسى عليه السلام قال لهم: عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية، لأنكم ما دُمتُمْ قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آيةً لإثبات صدْق رسوله، وحَسْبُكم ما أعطاه اللهُ لي من آياتٍ لصِدْق رسالتي، وعليكم أنْ تُلزموا أنفسكم بالمنهج الذي أعلنتم أنكم مؤمنون به.

وقد توقَّف العلماءُ عند قولهم: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾

وتساءل العلماءُ: كيف كان هذا القول، خصوصا أن معناه الظاهري: أيقدر ربك؟ وكيف للحواريين أنْ يقولوا ذلك بالرغم من أنهم أشهدوا عيسى عليه السلام بأنهم مسلمون؟

وقال العلماء أيضاً: إن مَـنْ يـتكلّم فـي اللغـة عليـه أنْ يكـون مُتبصّرا باشتقاقات الألفاظ واستعمالات الألفـاظ وسِـمَات الألفـاظ، وكلمة ﴿ يَسْتَطِيعُ ﴾ بمعنى يطيـع. كمـا قـالوا: اسـتجاب بمعنـى أجاب، وكأن معنى سؤالهم: أيستجيب اللهُ ويُنـزلُ علينـا مائـدة مـن السماء؟

و(استطاع) تقابل: استجاب. وسبحانه وتعالى هو القادرُ على كلّ شيء، وهو الذي يُطيعه كلُّ شيء، وهو الذي يرضخ لحكمه كلُّ شيء، والحق لا يطلب، إنما يأمرُ مِصْداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

الله سبحانه وتعالى لا يقول لشيء كُنْ إلا ويعلم أنه يطيع، ولا يأمره الحقُّ أن يطيع إلا ويكون استعداده الانفعالي أنه حين يسمع قول الله: ﴿كن﴾ فلازمٌ أنْ يكون.

والمثال على هذا هو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾ [الانشقاق]

إنها لن تنتظر إلا سماع الأمر فقط. وساعةَ تسمع الأمر فهي تنفعل. ومعنى تنفعل أي: تطيع. وكلُّ الكوْن مُطيعٌ لخالقه سبحانه وتعالى. أو

يكون معنى هل يستطيع: هل يفعل؟ وذلك من باب التعبير عن المُسبَّب بالسبب؛ إذ الاستطاعة من أسباب إيجاد الفعل.

وقيل: المراد: هل تستطيع سؤالَ ربّك من غير صارف ولا مانع يمنعك عن سؤاله؟ فقد قرأ الكَسائي وغيره: هل تستطيع ربَّك بنصب كلمة (ربَّك) وأصلها: هل تستطيع سؤال ربَّك؟ فحذف المضاف (سؤال) وأُقيم المضافُ إليه وهو كلمة (رب) مقامه فنُصبَ.

وقال الزمخشري: ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص، وإنما حكى ادعاءهم، وقولهم: ﴿ هل يستطيع ﴾ كلامٌ لا يَتأتّى مثله من مؤمنين مُعظِّمينَ لربِّهم.


سورة الأنعام

سورة الأنعام

الله.. بالعقل والرسالة

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ.. ﴿٣﴾ ﴾ [الأنعام]

هذا الكون موجودٌ قبل خَلْق الإنسان، فالإنسان طارئٌ عليه وتساءل مَن الذى خلقه، ولكن الإنسان جاءته الغفلة بعد أنْ عرف آدمُ ربَّه، وبعد أن أشهد اللهُ ذريةَ آدم أنه ربُّهم، ثم أرسل الرسلَ ليُبلغوا منهجه واسمه وصفاته. وأراد سبحانه بذلك ألاَّ يُرهق خَلْقه، وأبلغ الناسَ من خلال الرسل أنه الخالق الأكرم.

وآفةُ الفلاسفة أنهم لم يكتفوا بتعقل الإله، بل أرادوا أنْ يتصوَّروه، وهذا أمر غير ممكن، لذلك نقول: علينا أنْ نستمعَ إلى الله يقول ما شاء عن نفسه ولا داعيَ للخلاف.

والحق سبحانه وتعالى يقول ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ.. ﴿٣﴾ ﴾ [الأنعام]. وليحذر المسلم أنْ يفهمَ أن السماء والأرض هنا ظرفية، لأن الظرفيةَ وعاءٌ وحيِّزٌ، وإذا كان الإنسانُ لم يعلم مكان رُوحه فى جسده، فكيف يعلم مكان الله؟

لقد قصد اللهُ بذلك القول أنه معبودٌ فى السماوات ومعبودٌ فى الأرض.

ولنلحظ أن بعضَ آيات القرآن توقَّف الذِّهن عنها كي تظلَّ الأذهانُ دائماً مشغولةً بكلمات الله، ولو جاء القرآن بكلمات يسهل على الفهم العادى إدراك معانيها لَمَا تجددتْ معانى الكتاب العظيم فى كل زمان.

وكأن الله قد قصد هذا حتى يتثبَّت الناس فى كل العصور من إيمانهم، وهاهم أولاء بعض الذين يحاولون الخوض فى القرآن، تساءلوا عن معنى قول الله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ.. ﴿٨٤﴾ ﴾ [الزخرف]

وظنَّ بعضُ السطحيين أنه قصد القول بأن هناك إلهاً فى السماوات وإلهاً آخر فى الأرض، ولم يفطنوا إلى أن المعنى المقصود هو: أنه إله يُعبد فى السماء ويُعبد فى الأرض، وهو صاحب الحكمة المُطلقة فى كلِّ أفعاله، وهو المحيط بكلِّ كونه.

الولاية لله

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنعام]

دائماً ما يبحث الإنسان عن أسباب القوة التى توفر له الحماية والأمن، ويلتمس ذلك فى كلِّ ما يُحقق له هدفه، حتى ولو كان إنسانا مثله، فيتخذه ولياً له ومعيناً وناصراً.

عندما يُخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه أقوى الأقوياء، وأنه هو الناصر والمعين، والمُعز والمُذل فالأحرى بالإنسان أنْ يجعله وليه الذى يلتمس عنده الأمان والقوة.

وهو ما يُعبّر عنه القرآن فى قولـــه تعـــالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]

الهمزة فى قوله (أَغَيْرَ) هى للإنكار أى: إنكار اتخاذ غيـــر الله وليـــا لوضوح الصواب، أى: أنها ليست للاستفهام.

والله سبحانه وتعالى يُعلِّم خَلْقه من خلال الآية أنْ يكونوا أهل حكمة يضعون الأمور فى نصابها ويتوكلون عليه، فهو الحَيُّ الذى لا يمـــوت. عندما يسمع الإنسانُ السؤالَ الاستنكارى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ لا بُدّ أن يسأل نفسه ويُدير عقله كى يجد جواباً، ولن يجد الإنسانُ جواباً سوى أنْ يقولَ: ليس لى ولىٌّ غير الله.

ويتخذ المؤمنون بعضُهم بعضاً أولياءَ فى إطار الولاية مصداقا لقوله تعـــالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة]

أى: أنهم يتبادلون المحبة والنُّصرة طبقاً للتعاقد الإيمانى بينهم وبـــين الله، فيأمر بعضُهم بعضاً بأوامر المنهج الإلهـــى، أى: أنهـــم يـــأمرون بعضهم بالولاية لله، ويَنْهى بعضُهم بعضاً عمَّا نهى عنـــه المـــنهج، أى: أنهم يأمرون بعضهم أيضاً بالولاية لله.

اللعب واللهو

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام]

الحياة الدنيا لعبٌ ولهو كما وصفها الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فإن الدنيا مزرعة الآخرة، فكيف ذلك؟

على الإنسان أنْ يعلمَ حقيقة الدنيا بأنها دارُ لعب ولهو كما وصفها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنعام]

واللعب هو مزاولة حدث ونقضه فى وقت واحد، ويُقصد به قتْل وقت فى عمل قد ينقض، فالبناء والنقض فى هذه الحالة لعبٌ، ولا يشغل اللعب الإنسانَ عن الواجب، أما اللهو فهو قَتْل الوقت فى عمل قد يُنقض ويشغل الإنسان عن الواجب أيضاً.

والحياة الدنيا مُجردة من منهج الذى خلقها وخلق الإنسان فيها هى لهو ولعب، ولكن إذا أخذ الإنسانُ الحياةَ بمواصفات من الخالق فهى حياة مُنتجة للخير فى الدنيا وفى الآخرة.

ومن هنا فإن المؤمنَ له حياتان: حياة صلاح الدنيا، وحياة النعيم فى الآخرة، لأنه يعيش الحياة الدنيا على مراد وإرادة الله سبحانه وتعالى لأنه يُقدِّم لنا حياة عالية دائمة تخلف الحياة التى تنتهى.

والذى يتوقف عن أخْذ منهج الله فى حياته يكتفى بمثل ما يأخذ الحيوان من الحياة، وهى النفخ فى الروح، لكن الذى يأخذ بمنهج الحياة العالية·· حياة الخير والجمال والإصلاح والإحسان ونعلم أن الجمال فى الحياة هو الذى لا يورث قُبْحاً، والخير الحقيقى هو الذى يعُمّ خَير الله على العباد·

وبذلك يكون الوجودُ جميلاً، فالحياةُ بدون منهج الله تكون قبيحةً، لأن القوىّ يعيش فيها فساداً بقوته، وينزوى الضعيف إلى الإحساس بالذلَّة والضياع·

وعلى الإنسان أن يأخذ حظه من الحياة بالأسباب التى يعمل فيها ولا يأخذ الإنسان من أسباب غيره، صحيح أن هناك أُناساً يعيشون بلا أسباب، ويأخذون تعب غيرهم، ولكن عليهم أن يحذروا الله·

الفَرْق بين الجهل والجهالة

﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام]

السوء هو الأمر المَنْهىّ عنه من الله، وهناك مَنْ يفعله بجهالة، وهناك مَنْ يفعله بجهل، والجهل غير الجهالة·

يقول الله تعالى: ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام]

والجهل هو أنْ يعلمَ الإنسانُ حُكماً ضد حقيقته أى على غير واقعه، ومعالجة الجهل تتم بالإقناع أولاً بخطأ ما يعتقد الجاهل، ثم إقناعه بالاعتقاد السليم، ومن هنا فإن الجهلَ لا يعنى عدم العلم هو الأمية.

أما الجهالة فهى السَّفه والطَّيش، والطيش يكون بعدم تدبّر نتائج الفعل، والسفه ألاَّ يُقدر الإنسانُ قيمةَ ما يفوته من ثواب، وما يلحقه من عقاب، وقد يكون الإنسانُ مؤمناً لكنه يرتكب السوء لأنه لم يستحضر الثوابَ والعقاب، ويرتكب من السوء ما يُحقّق له شهوةً عاجلة دون التمعُّن فى نتائج ذلك مستقبلاً، ولو استحضر الثوابَ والعقابَ لَمَا فعل ذلك السوء.

كما أن الجهالةَ هى ارتكاب الأمر السيىء أيضاً، دون أنْ يُبيّت له الإنسان أو يُخطط، كأنْ يكونَ الإنسانُ فى سفر أو فى عمل ما، ويعرض له أمرٌ من الأمور فيتصرَّف فيه بطيش دون تَرو منه.

لذا فإن توبة مَنْ يفعل ذلك قريبة ويسيرة. ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء]

هناك فَرْقٌ بين منْ يبحث عن عناوين بيوت اللذة ويسافر إليها وبين الذى توقعه ظروفٌ خارجةٌ عن إرادته فى خطيئة الزنا دون إعداد أو تدبير، فالأول هو مَنْ عَناه قوله تعالى: ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء]

عطاء الفعل.. وبركة العطاء

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام]

البركة فى العطاء تكون بألاَّ تعين النعَم وعطاءات الله الإنسان على المعصية، بل تُعينه على الطاعة، لأن اللهَ سبحانه وتعالى يريد من الإنسان أنْ يتصلَ بمنهجه اتصالاً وثيقاً، ليُعطينا لا ليأخذَ منا.

الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الخالصة لله أن السيد يأخذ خيرَ عبده، ولكن عبوديتنا لله تعطينا خيره من خزائن لا تنفد، نأخذ منه كلما ازددنا له عبودية.

إذن: فاللهُ دائماً يريد أن يصلَنا به، قد يستغرب مُستغربٌ ممّا يحصل عليه الذين لا يُقيمون منهج ـ من نعَم ونجاحات دنيوية وأموال، لأنه لا يفرق بين عطاء الفعل وعطاء البركة.

فإذا زرع الكافرُ الأرضَ أعطتْه ثمارها، وإذا بنى مصنعاً نال نتيجة جهده لكنه لا يأخذ البركةَ فى العطاء.. وهو ألاَّ يصرفه اللهُ عن استخدام ما نال من خَير فى الفساد فيفسد ماله وصحته ويفسد الأرض نفسها، وبدلاً من أنْ ينالَ نتيجةَ جهده بالأمن والاطمئنان ينال الخوف والقلق.

وهو ما يفسر قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام] فالذى لا يتبع منهج الله ينال كل نتيجة جهده، لكنه لا ينال الأمن والهداية. أى: لا ينال بركة العمل.

من هنا نجد هؤلاء الذين يُحقّقون المكاسب الحضارية دون أن تكون وجهتهم له لا يستخدمون ما يُحققونه من مكاسب إلا في الشر، لا يعرفون ما يعرفه المؤمنُ من طمأنينة وسلام وتوازن روحى ومادى وهداية، تلك الهداية التى تجعل المسلم مُوفَّقاً فى عمله مهتدياً إلى الصواب فيه.

على عكس المُعرض عن منهج الله، فإنه يعيش من ضنك إلى ضنك، وكلما حقَّق نجاحاً ازدادت تعاسته، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه]

منهج منْع الفساد

﴿ وَذَرُوا ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأنعام]

من وسائل الإسلام فى منْع الفساد تحريمه ظاهراً وباطناً، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأنعام]

فتقنيناتُ السماء تحمى المجتمع من بعضه، وذلك فى ألاّ تقع عينُ أحد على مخالفة من أحد، لأن المخالفات التى تُدركُ بالعين ليستْ كل الفساد فى المجتمع، ففسادُ المجتمع يأتى من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات.

والحقيقة أنه قبل أنْ يكونَ هناك إثمٌ ظاهر يوجد إثمٌ باطن، لأن الإثم الباطن سابقٌ على الإثم الظاهر، ومنهج السماء يحرص على حماية الإنسان من فساد الظاهر والباطن.

وهنا يتضح الفرق بين تقنين البشر للبشر وتقنين الإله، فسبحانه رقيبٌ على مواجيد الناس ووجداناتهم وسرائرهم، فلا يكفى للإنسان أنْ يحمىَ نفسه من القانون، لأن قصارى ما يصنع القانونُ هو منع الناس من المجاهرة بالجريمة، لكن تشريع السماء يحمى الناس من ظاهر الإثم وباطنه.

وكلمة (كسب) تأتى بالاستعمال العام للخير، و (اكتسب) تأتى للشر، لأن الخير يكون فيه الفعل العملى رتيباً مع الملَكات، لا افتعالَ فيها، فمنْ يريد مثلاً أنْ يشترىَ من محل ما فهو يذهب إليه فى وضح النهار.

أما مَنْ يريد أن يسرق المحل فيرتب للسرقة ترتيباً آخر، وهذا افتعال لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المِرَان والدُربة عليه لا يتطلب انفعالاً، لأنه قد أضحى لوناً من الكسب.

وكلمة (يكسبون) تدل على الربح لأن (كسب) تدل على أن الواحد أخذ الأصل والزيادة على الأصل، والإنسان حين يصنع الخير إنما يعطى لنفسه مُقوِّمات الحياة ويأخذ أجر الآخرة زائداً، وهذا هو قمة الكسب.

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى أراد من العبد فى حركته أنْ يُحقّق لذاته نفعا هو بصدد الحاجة إليه، ولكن الإنسان قد يحقق ما ينفعه وهو بصدد الحاجة إليه، ثم ينشأ من ذلك الفعل ضررٌ بعد ذلك.

ومن أجل هذا يحمى اللهُ المؤمنَ بالمنهج حتى يُميز ما يحقق له الغرضَ الحالى، ويحقق له نفعاً مُمتداً ولا يأتى له الشر، وما يُحقق له نفعاً عاجلاً ولكن عاقبته وخيمةٌ ونهايته مؤلمة.

وَعْدُ الله ووعيده لا يتخلَّفان

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

[الأنعام]

الوعد والوعيد تختلف طبيعةُ كلٍّ منهما باختلاف طبيعة الواعد أو المُوعد، فالله سبحانه وتعالى إذا وعدَ فلا بدَّ أنْ يتحقَّق وعده، وإذا أوعد فلا بدَّ أنْ يأتيَ وعيده، والوعدُ عادة يكون فى الخير، والوعيدُ يكون فى الشر.

وإخلاف الوعد أو الوعيد إذا كان من البشر فهو أمرٌ مُتوقَّع، لأن البشر من الأغيار لا يثبُتون على حال، فقد يعد الإنسانُ بشيء يعتقد أنه فى إمكانه، وبعد ذلك لا يستطيع أنْ يؤدىَ ما وعد به، لأنه ليس له سيطرةٌ على الأشياء، ولكن إذا كان منْ وعد قادرا ولا يوجد منْ يستطيع أنْ يغلبه على تنفيذ ما وعد أو أوعد فلا بدَّ أنْ يتحققَ هذا الوعد أو يأتى الوعيد.

لذلك حينما يحكم اللهُ حُكماً فإن المؤمنَ يأخذ هذا الحكم مأخذ التسليم، لأنه يدرك تماماً أنه لا إلهَ مع الله سيغير الحكم، وسبحانه ليس من

الأغيار، كما أنه يقول: ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأنعام] فهذا حُكمه.

أما إذا تتبَّعنا وعده ووعيده فنجده يقول سبحانه جلَّ في عُلاه: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد]

وفى الآية وعيدٌ لأبى لهب فى أمر له فيه اختيارٌ، ومع ذلك فلم يحاول أبو لهب أنْ يثبتَ عكس ذلك ويعلن إسلامه، لأن قضية الإيمان قضيةٌ اختياريةٌ للإنسان ليس مُخيَّراً فيها، ولكن لأن الله يعلم ما سيصير إليه اختيار أبى لهب فقد قدَّم هذا الوعيد.

وفى قوله: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [الأنعام] حتى لا يظن بعضُ الناس أن اللهَ قد يأتى بما أوعد ويستطيعون الهروب منه، ومن هنا كان تأكيده فى نهاية الآية: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ أى: لنْ تفرّوا من وعده أو وعيده.

الطَّريق المُوصِّل للغاية

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]

مسئوليةُ العقل عند الإنسان هى أنْ ينظرَ فى أدلة الوجود الأعلى لله، فإذا ما آمن الإنسان بالوجود الأعلى لله بقيتْ مرتبة الإيمان بالرسول المُبلِّغ عن الله، لأن قصارى ما يطلبه العقلُ من الدليل الإيمانى على وجود الله أن وراء الإنسان ووراء الكون قوةً قادرةً حكيمةً عالمةً فيها كلُّ صفات الكمال.

ولا يستطيع العقلُ معرفةَ اسم هذه القوة، ولا يستطيع أنْ يتعرَّف على مطلوباتها، لذلك لا بُدَّ من البلاغ عن هذه القوة من خلال الرسل عليهم السلام.

فإذا ما تبيَّن للإنسان الهدى فى الوجود الأعلى وفى البلاغ عن الله، فلا بُدَّ للإنسان أنْ يلتحمَ بالمنهج الذى جاء به المُبلِّغ عن الله، ويفعل الإنسان مطلوبَ القوة العليا، لأن الله قد أمر به ولأن رسول الله قد بلَّغ الأمر أو فعله أو أقرَّه.

أما إذا دخل الإنسانُ فى دائرة المُماحَكات والجدل فإن عليه أنْ يراجعَ إيمانه بالله أولاً وإيمانه برسول الله ثانياً، ولذلك يقول الله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء]

والهدى هو الطريق المُوصِّل إلى الغاية، وكلُّ فعل لا بُدَّ أنْ يكون له هدفٌ، ومَنْ فعل فعلاً بلا هدف يعتبره المجتمعُ فاقداً للتميُّز، أما إذا كان الإنسانُ صاحبَ هدف فهو يتعرَّف على جديَّة هدفه وأهميته، ويبحث له عن أقصر طريق، هذا الطريق هو ما نُسمِّيه الهدى.

وبالتالى منْ يعرف الطريق المُوصِّل إلى الهدى، ثم يتبع غير سبيل المؤمنين فهو يُشاقق الرسول ولا يلتحم بمنهج الإيمان ولا يلتزم به، والله سبحانه وتعالى حدّد طريقاً واحداً هو الطريق المُوصِّل له فى قوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام]

ومنْ يخرج عن هذا السبيل فكما جاء فى الآية: ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء] أى: أن الله يَكِلْه إلى أصحاب الشرك، لأنه سبحانه القائل: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمنْ عملَ عملاً أشرك معى فيه غيرى تركتُه وشركه)) كما جاء فى الحديث القدسى.

أمراضُ التَّشْرِيعَاتِ الوَضْعِيَّة

من أخطر أمراض التشريعات الوضعية أنها تشريعاتٌ، للهوى فيها جانب كبير، فالذى يريد أنْ يتكاسلَ ويتساوى مع المجتهدين نجده يخترع المذهب الشيوعى، أما الذى يريد أنْ يمتصّ عَرَق الغير ويستبعد الناس، فإنه يضع المذهب الرأسمالى، فالرأسمالى يُقنِّن، كما تميل نفسُه، وكذلك الشيوعى.

وليس أدلَّ على ذلك من أننا نجد تشريعات البشر تأتى لتنتقض تشريعات أخرى، لأن البشر على فرض أنهم عالمون فقد تغيبُ عنهم أشياءُ كثيرة.

وبرغم أن الذى يضع التشريع يحاول أنْ يضعَ أمامه كلّ التصورات المستقبلة، إلا أننا نجد التعديلات تجرى دائماً على التشريعات البشرية، لأن المُشرِّع غاب عنه وقتَ التشريع حُكمٌ لم يكُنْ فى باله، وأحداثُ الحياة جاءتْ فلفتتْه إليه، فيقول: إن التشريع لم يُراعِ كذا وكذا، ويجب تعديله.

ولا شكَّ أنه من الأفضل أن مَنْ يضع المنهج ليسيرَ عليه الناسُ أنْ يكون عالماً بكُلِّ الجزئيات التى قد يأتى بها المستقبل، ومن الأفضل أيضاً أنْ يكونَ واضعُ التشريع لا مصلحةَ له فيما وضع.

ولا يتحقق ذلك إلا لغنيٍّ عن تلك التشريعات، وغنيٍّ عمَّنْ يُشرِّع لهم، وليس هناك سوى الله سبحانه وتعالى الذى لا يحتاج إلى التشريعات، كما أنه غنيٌّ عن العالمين.

لذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

[الأنعام]

ولا نستطيع أنْ نعرفَ هذا الصراط المستقيم الذى يجب علينا اتباعه إلا من خلال ما حدده اللهُ فى قرآنه من قواعدَ وأسسٍ، يقول الله تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

والهدى كلمة تعنى الشيء المُوصِّل للغاية بأقصر طريق، أى: أن السالك حسب هذا الهدى سيصل إلى الطريق والهدف بأقلّ جهد وأيسره·

ومع ذلك فإن الناسَ تترك الأيسر والأقرب وتُجهد نفسها وذهْنها فى البحث عن الأصعب تسير فيه، وللأسف لا تصل إلى هدف ولا إلى غاية، بل تتفرّق بهم الطرق فيضلُّون السبيل، ولو أنهم اتبعوا الهدى الحق، وهو هدى الله لَكانَ خيْراً لهم·

على كلِّ كافر أنْ يترقَّبَ نهايته

﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام]

نزل القرآن الكريم لتنقية ما شابَ الكتبَ السابقة عليه، وكذلك حتى لا تكون لدى أمة العرب حُجة أنهم أُميّون، فلم ينتبهوا إلى ما فى الكتابيْن السابقيْن·

لذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ

وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام]

ومن هنا نجد القرآنَ يقطــع علـــى المشـــركين محاولـــةَ ادعـــائهم أنهم لم يعرفوا أو أن التوراة أو الإنجيـــل لـــو نـــزلا علـــيهم لَكـــانوا أهدى من اليهود والنصارى.

والمتأمل فى الآية يجد كلمة " صدف " من الأفعال التى تُستعمل متعديةً وتُستعمل لازمةً، فلو كانت لازمةً أى تحتاج إلى الفاعل فقط دون المفعول فإنها تعنى: انصرف وأعرض بنفسه وذاته.

أما إذا كانت متعديةً -يعنى: تحتاج إلى الفاعل والمفعول، فهى تدلّ على أن الفاعل يصرف غيره عن الإيمان أى يُضلّ غيره، ويقع عليه الوزر لضلال نفسه أولاً، ثم عليه وزر مَنْ أضلّ ثانياً، ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذى يصلح للحالتين.

﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ ﴾ أى: انصرف ضلالاً لنفسه، وصدف غيره. أى: جعل غيره يصدف ويُعرض، فأضلَّ غيره، وبذلك يُعذِّبه اللهُ عذابيْن، فيقول سبحانه: ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام]

فكأنَّ المسألةَ يرتكبهـــا الـــذين صـــدفوا أنفســـهم وصـــرفوها عـــن الإيمان، ويُصدفون كلَّ مَنْ يحـــاول أنْ يـــؤمن، وهـــؤلاء هـــم القـــوم

الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى، أو تغالوا في ذلك، فصرفوا غيرهم عن منهج الهدى.

ولو أنهم استقرأوا الوجودَ الذى يُعايشونه لَوجدوا الموت يختطف كلَّ يوم قوماً على غير طريقة رتيبة، فلا السنّ يُحدّد وقتَ وزمنَ انقضاء الأجل، ولا الأسباب تحكمه، ولا المرض أو العافية تحكمه، فالموت أمرٌ شائعٌ فى الوجود.

ومعنى ذلك أن على كل إنسان أنْ يترقبَ نهايته، فكأنه يتساءل: لماذا إذن يصدفون، وماذا ينتظرون من الكون ؟

الدين يجمع لا يُفرِّق

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾

[الأنعام]

من أهداف الدين تجميعُ الناس لا تفريقهم، فهو يجمعهم على الأوامر والنواهى، فلا يحدث بين الناس فى الثوابت خلافاتٌ، بل الخلافُ يكون فى المُباحات فقط، إنْ فعلها المسلمُ كان بها، وإنْ لم يفعلها فلا شيءَ عليه.

لذلك كان خطابُ الله لرسوله كما حكى القرآن فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾[الأنعام]

لأن الذين يُفرّقون فى الدين إنما يُناقضون منهجَ السماء الذى جاء

ليجمع على شيء واحد، لتتساندَ حركاتُ الحياة فى الناس ولا تتعاند، وذلك لأن كلَّ واحد يسعى لتغليب هواه، فتتعارض الأهواءُ وتتعاند الطاقاتُ بدلاً من أنْ تتعاضدَ.

والشِّيَع جمع شيعة، وهى الجماعةُ التى تتبع أمراً ما ويجتمعون عليه ولو كان ضلالاً، وهناك تشيُّع لمعنى نافع وخيِّر، وهناك تشيُّع لعكس ذلك.

والله سبحانه وتعالى يخاطب نبيَّه مُخبراً له أن الذين يتخذون الدينَ وسيلةً للتفريق حتى تصبحَ الجماعةُ الواحدةُ عدة جماعات مختلفات متطاحنات ليسوا مسلمين، ولا يتبعون منهج الإسلام، لأن الإسلام جاء ليجمع الناسَ على الحق، وجعل العبادات وسيلةً من وسائل الجمع، فالقبلة واحدةٌ يتجهون إليها فى كل صلاة، ويصومون فى وقت واحد، ويحجُّون فى زمن واحد، وهى عواملُ تجميع.

كما قررت السُّنة قاعدةً دائمة، وهى مَيْزة تميَّزتْ بها الأمة الإسلامية، وهى ألاَّ تجتمعَ على باطل أبداً، واجتماعها يكون على خير، وبالتالى فالدَّاعون إلى الفُرْقة لا يمكن أنْ يكونوا من الإسلام فى شيء.

الدين لونٌ واحد.. والفرق من الهَوى

الدين يهدف فى النهاية إلى تجميع الناس وليس تفريقهم، لأنه جاء ليُوحِّد الأمر والنهى فى الأفعال الأساسية فلا يحدث بين الناس أىُّ خلاف، وإنْ كان هناك خلاف فإنه يكون فى المباحات فقط.

فإذا كان الدين من أسباب التفريق بين الناس فلا شكَّ أن المتبعين ناقضوا منهج السماء الذى جاء ليجمع الناس على شيء واحد لتتساند حركاتُ الحياة فى الناس ولا تتعاند.

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

[الأنعام]

والشيعة هي الجماعة التى تتبع أمراً، هذا الأمر يجمعهم، ولو كان ضلالاً، وهناك تشيُّع لمعنى نافع، وخيِّر، وهناك تشيُّع لعكس ذلك، والتشيُّع على إطلاقه هو أن تجتمعَ جماعةٌ على أمر سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شراً.

إذن: الذين فرّقوا دين الله بعيدون عن منهج الله، ولا يصح أنْ يُنسبوا إلى الإسلام، لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات الحياة، وإذا كان الماء لا يأخذ لوناً، ولا طَعماً، أو رائحة فهو يفقد قيمته كماء صاف، وكذلك الإسلام إنْ أخذ لوناً وصار المسلمون طوائف، فهذا أمر يضر بالدين لأن الإسلام لا يتعدد.

ويعتبر الذين يتخذون من الدين وسيلةً لتحقيق الهوى والأغراض الأخرى مُتلفِّعين بعباءة الدين من أخطر وأعدى أعداء الدين واتباع الدين، لأن العداء الظاهر والواضح أيسرُ على المسلمين من العداء الخفيّ الذى يُظهر غير ما يُبطن.

لذلك كان توعد الله الذين يُفرِّقون دينهم ويُحوِّلونه إلى مطية لأهوائهم مخاطباً نبيه بأنه بريءٌ منهم، وسوف يتولَّى سبحانه وتعالى محاسبتهم فى قوله تعالى: ﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

الحسنةُ.. وثوابُها

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام]

الحسنةُ هى الخير الذى يُورث ثواباً، وكلما كان الثوابُ أخلدَ وأعمق كانت الحسنةُ كذلك.. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام]

وهذا هو مُطلق الرحمة والفضل، ولذلك ورد الحديث القدسى الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه تبارك وتعالى: ((إنَّ ربَّكم عزَّ وجلَّ رحيمٌ، مَنْ همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبتْ له حسنة، فإنْ عملها كُتبتْ له عَشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومَنْ همَّ بسيئة فلم يعملها كُتبتْ له حسنة فإنْ عملها كُتبتْ له واحدة، أو يمحوها الله عزَّ وجلَّ، ولا يهلك على الله إلا هالك)).

ويفسّر العلماءُ تضاعفَ الحسنة إلى عَشْر أمثالها، ثم إلى أضعاف كثيرة بأن لكل فعل طاقةً من الإخلاص تلازمه، من نية خالصة وتفانٍ في إقامة الفعل وحرص على إنجازه.

وهذه الطاقة الإخلاصية تتفاوت بتفاوت الأشخاص والقلوب والنفوس، فوضع اللهُ سبحانه وتعالى هذا النظام لأنه جلَّ في عُلاه يريد للحسنة أنْ تكون قاعدة وعُرْفاً ونظاماً من لوازم المجتمع ينتفع بها فاعلوها والآخرون.

وقد ورد الحديث عن فعل الحسنات فى القرآن الكريم بصور مختلفة ترغب فى الفعل وتُجمّله لفاعله.

يقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾

[البقرة]

وفى سورة الحديد قوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الحديد]

كما يسوقُ اللهُ سبحانه وتعالى تشبيهاً لمَا تفعله الحسنةُ من أثر، سواء فى ثوابها لفاعلها أو أثرها عند الناس فى قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

وإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله نعطيها حبة فتعطينا سبعمائة حبة، فماذا يعطى خالق الأرض؟ إن عطاءه غيرُ محدود·

أما السيئة فإنه لا يُجزَى فاعلُها إلا مثلها، وما دام لا يُجزَى فاعلها إلاَّ مثلها، فهُم لا يُظلمون أبداً·


سورة الأعراف

سورة الأعراف

لا حرجَ فى صَدْرِ الرَّسول

﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ [الأعراف]

حين نسمع التعبير القرآنى عن إنزال القرآن الكريم على رسول الله ﷺ بالفعل المبنىّ لمَا لم يُسَمَّ فاعله "المبنىّ للمجهول" (أُنزل) بضم الهمزة وكسر الزاى، يجب أنْ نعلم أن مادةَ الفعل تعنى الإنزال من أعلى، والتعبير بالفع الذى لم يُسمَّ فاعله مع الالتزام بالكتاب المُنزَّل، يعنى الاشتراك فى الإنزال بمعنى الرضا.

وذلك قول الله تعالى فى الآية الثانية من سورة الأعراف: ﴿ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

[الأعراف]

قال بعض العلماء: وهل يُوجد فى صدر رسول الله حَرَجٌ، لننتبه أنه ساعةَ يأتى أمرٌ من الله ويُوضِّح فيه ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾، فالنهى ليس لرسول الله ﷺ، وإنما النهىُ للحرج أو الضيق أنْ يدخلَ لرسول الله، وكأنه سبحانه يقول: يا حرج لا تنزل قلبَ محمد.

لكن بعض العلماء قال: لقد جاء اللهُ بقوله سبحانه: ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾، لأن الله يعلم أن محمداً قد يضيق صدره ببشريته

ويحزن، لأنهم يقولون عليه: ساحر، وكاذب، ومجنون. وإذا ما جاء خصم الشاب وقال فيه أوصافاً وهو أعلم منه بعدم وجودها فيه فهو الكذب، لأن المَقول فيه لم يكذب ولم يسحر، ويريد هدايةَ للقوم.

وقوله سبحانه ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ قد جاء لأمر من اثنين: إما أنْ يكونَ الأمر للحرج ألاَّ يسكنَ صدر رسول الله، وإما أنْ يكون الأمر للرسول طمأنةً له وتسْكيناً، أى: لا تتضايق لأنه أُنزل إليك من الله، وهل يُنزل الله عليك قرآناً ليصبح منهج خَلْقه وصراطاً مستقيما لهم، ثم يُسلمك إلى سفاهة هؤلاء.

لا.. فاطمئن تماماً ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الأعراف] والإنذار لا يكون إلا للمخالف، لأن الإنذار يكون إخباراً بشرٍ ينتظر المُخاطب، وهو أيضاً تذكيرٌ للمؤمنين مثلما قال فى سورة البقرة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾ [البقرة]

وهنا نلاحظ أن الرسالات تقتضى مُرسِلاً –بكسر السين– أعلى، وهو أعلى وهو الله، ومُرسَلاً – بفتح السين – وهو الرسول، ومُرسَلا –بفتح السين– إليه وهم الأمة، والمُرسَل إليه إما أنْ يستمعَ ويهتدىَ، وإما لا.

وجاءت الآية لتقول: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ ﴾ من الله وهو المرسل ﴿ إِلَيْك ﴾ لأنك رسولٌ والمُرسَل إليهم هم الأمة، إما أنْ تُنذرهم إنْ خالفوا، وإما أنْ تُذكِّرهم وتهديهم وتُعينهم أو تُبشِّرهم إنْ كانوا مؤمنين.

الظالمون.. لأنفسهم

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف]

بعد الأمر والنهى اللذين وجَّههما الله بالأكل من كل شيء فى الجنة مع عدم قُرْب شجرة بعينها ذكر لهما أن الذى سيُعكِّرُ عليهما تطبيق منهج الله هو العدو الذى ثبتتْ عدواته.

إنه (إبليس) لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقَّى الطرد واللعنة، فأقسم وقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص]

جعل الله سبحانه وتعالى الجنة كمكان فيه كلُّ مُقوِّمات الحياة لآدم بصُنْع الله سبحانه وإعداده، وأعطى له منها القدر الذى يعطى المقوَّم بلا فضلات تتعبه، فلا ينتفخ ولا يعانى من متاعب فى الصحة.. الخ لأنه سبحانه يعطى لآدم القدر المقوّم.

وسبحانه قادر على كلِّ شيء بدليل أنه يرعى الجنين فى بطن أمه، والجنين ينمو، والنمو معناه أنه يتلقَّى الغذاء، ولا يخرج منه فضلات. لأن الغذاء الذى يُدخله اللهُ له على قَدْر النُّمو فقط، وحين يكون ربُّنا هو الذى يمدُّ جنة بالتدريب بالغذاء، فهو قادر على كامل الإعداد.

إذن: فالجنة التى وُجدَ فيها آدم ليستْ هى جنة الجزاء، لأن جنة الجزاء لا بدّ أنْ تأتى بعد التكليف، ولا يمكن أنْ يكون فيها تكليف، ومن

يسكنها لا يخرج منها. وآدم ــ كما علمنا ــ مخلوقٌ للأرض، إذن: وجود الجنة هنا يعنى أنها مكانُ التدريب على المهمة فى الخلافة.

يقول الحق سبحانه: ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعراف]

أمر متمثلٌ فى (فَكُلَا) ونهيٌ متمثلٌ فى (وَلَا تَقْرَبَا) ولم يقُلْ لهما: لا تأكلا، بل قال: (وَلَا تَقْرَبَا) لأن القربان مظنةُ أنه يؤدى إلى الغواية ويدفع إليها. وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها، ولو كان قد استمع ولم يقرب لَمَا أكل منها.

فكأنَّ اللهَ جعل لآدم فى جنة التدريب والتمرين رمزين.. الرمز الأول: لـــ "افعل" والرمز الثانى: لـــ "لا تفعل" ونجد أن الذى نهى الله عنه قليلٌ بالنسبة لما أباحه وأمر به ، وهذا من رحمة الله بالعباد، فيفعل المؤمن ما يُؤمَرْ به، ولا يحوم حول ما حرّمه الله، لأنه لا يأمن حين يرى ما حرَّم الله أن تميلَ نفسه إليه.

ولذلك قال (وَلَا تَقْرَبَا) فلو أنهما لم يَقْربَا ما كانت الشجرة تُغريهما بأىِّ منظر، ولذلك فى كثير من الأشياء التى يُحرِّمها الحق سبحانه وتعالى وفى قمَّتها ما يصون ويحفظ العقيدة الاساسية يقول بعدم الاقتراب أو الاجتناب.

فالله سبحانه هو القائل ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ ولم يقُلْ: لا تعبدوا الأوثان، بل قال: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ﴾. والشأن فى الخمر أيضاً جاء بالاجتناب.

ولكن بعضاً من السطحيين يقولون: لم يَردْ فى الخمر تحريمٌ، بل قال بالاجتناب، ونقول له: الاجتناب يقتضى ألاَّ تذهبَ ناحيتها، ولا تقعد فى المكان الذى تُوجد فيه، ولا تعصرها، ولا تحملها.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ [الأعراف] والظلم هو تجاوز الحدِّ أو إعطاء الشخص غير حقِّه.

ويُوضِّح سبحانه: أنا لم أجعل لكما حقاً فى أنْ تقربَا ناحية هذه الشجرة، فإنْ قرَبها أىٌّ منكما فهو قد خالف ما شرَّعته لكما ﴿ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

أى: تدخُلا فى إطار مَنْ يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحدا، وأنت تظلم نفسك لأنك تعطى نفسك شهوةً قليلةً فى زمن يسير، وبعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً فى زمن طويل وبشكل أشدّ، وهذا ظلمٌ لنفسك، كما أنه دليلٌ على أنك غيْرُ مأمون عليها.

إيمانٌ بلا تقليد

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]

من الحكمة أنْ نُدرِّبَ أبناءنا على إعمال العقل، بحيث لا نُجبرهم على التسليم بما نأمرهم به دون معرفة أسبابه، حتى لا يصيروا مُقلِّدين تتغلب فى داخلهم ملَكات التقليد لا الابتكار وإعمال العقل، لأن المقلَّد تغيب عنه عيوب منْ يُقلده.

والذى يُعمل النظر والعقل تكون عينه وعقله مُدرَّبيْن على التقاط ونَقد الغثِّ من السمين، وبالتالى لا يعطى التقليد حكماً تكليفياً، وإنْ أعطى علماً تدريبياً، كأنْ ندرب الأولاد على مطلوب الله من المكلف ليستطيعوا ويألفوا ما يُكلّفون به عندما يصلون إلى سنِّ التكليف.

ومما يدلُّ على أن التقليد لا يعطى حقيقةً خالصةً أننا كُنا نجد المذهبين المتناقضين الشيوعية والرأسمالية لكلٍّ منهما مُقلدون وسائرون على منهجهما ويؤمن كل فريق بما يُقلده، وكلاهما متضادان، والمتضادان لا يكونان حقيقةً أبداً لأنهما لا يجتمعان، فقد يكون أحدُهما حقيقةً والآخر خطأ، أو كلاهما خطأ لأن التقليد والاتباع لا يدل على صحة أو خطأ.

ومن هنا نلحظ فى أسلوب الأداء القرآنى فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]

فنجد أن الله ردَّ على ادعائهم أنه أمرهم بها وترك قولهم: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا.. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف] ذلك لأن تقليد الآباء ليس دليلاً على حقٍّ، وبالتالى هو أمر لا يحتاج إلى ردٍّ لوضوح بطلانه.

ثم جاء الرد على أمر الله بالفحشاء ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف]

بل يصبح السؤال: كيف أمركم الله بها، ولا يكون أمره إلا بالتجلى على الإنسان أو بالوحى من خلال الرسول، وهم يُكذِّبون الرسول ولا يؤمنون بالله، وهو ما يُثبت زعمهم لقوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشورى]

صيانة الأنساب

﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف]

حتى تتحقق خلافةُ الإنسان لله فى الأرض لا بُدَّ من صيانة أشياء ضرورية فى الكون حتى تسلم هذه الخلافة وتؤدي مهمتها على وجهها الصحيح.

أول الأشياء التي يجب أنْ تُصان فلا تتعرض للأذى هي الأنساب التي تحقق صيانتها طهر النسل وسلامته، لأن سلامة أنساب المجتمع

تجعل انتفاء الاختلاط موجوداً، فلا يوجد فردٌ من أفراد المجتمع إلا وهو محسوبٌ على أبيه، بحيث يقوم أبوه بكلٍّ تبعات حياته.

فالإنسان إذا شكَّ للحظة فى صحة نسب طفله إليه ماتتْ عنده غريزةُ الحنان الأبوى نحوه ولَفَظه من دائرة رعايته، بل قد يتحول إلى كاره له.

وبالتالى فإن المجتمعات التى لا تُولى اهتماماً بسلامة الإنسان أفراداً وجماعات تتهاوَى فيها الصِّلاتُ الإنسانية والروابطُ الأُسريّة التى يُغلِّفها الدِّفءُ الأُسَرى والحُنو العائلى، لأن الرجلَ لا يعرف أن الطفل الذى أنجبتْه زوجتُه ابنه أم لا، فلا يُبالى به إنْ جاع أو أكل، إنْ لبس أو تعرَّى، إنْ مرض أو شُفى، إنْ باتَ فى البيت أم فى الشارع.

ذلك على عكس الرجل الذى يدرك أن الطفلَ الذى أنجبته زوجتُه هو ابنه والمجتمع يعرف ذلك، وهو الأمر الذى يساعد على تنشئة اجتماعية سليمة واعية مُدركة لطبيعة العلاقة الإنسانية لما بثَّه الأبُ وبثَّته الأم من حنان وقيم ودفء فى أطفالهما فشبُّوا على ما تعلَّموه.

إذن: فطهارةُ الإنسان ضمانٌ لسلامة المجتمع، لأن المجتمعَ ما هو إلا مُرَبٍّ ومُربَّى، والمُربِّى يقوم على شأن الصغير المُربَّى، وهو قادر على أنْ يعملَ، والصغيرُ يحتاجُ إلى التربية.

من هنا كان تحريمُ الزنا ووَصْفه بالفحش، لأن أثره لا يلحق بفاعله فقط، بل يلحق بمَنْ حوله وبمَن ينتج عن هذه الفعلة من نسل، يقول الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[الأعراف]

نهاية حتمية للأقوياء

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف]

لكل أمة أجَلٌ معروف، لأن الباطل إنْ لم يعضّ الناس عضَّة تجعلهم يصرخون فهم لا يستشرفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه، والألم وسيلة للعافية لأنه يؤكد للإنسان أن وضعه غيرُ طبيعى، وعلى ذلك فالمسائل التى تحدث فى الكون، والأمم التى تظلم أمماً أخرى وتضطهدها إنما تفعل ذلك إلى أجَل.

وعلى المظلومين ألاَّ ييأسوا، وإنما يستشرقون إلى الحق وإلى جناب الله يلوذون به وحده، وهو ما يُلحظ فى الناس الذين حدثتْ لهم أحداث فيها شدة بأنهم لم يجدوا إلا واحةَ الإيمان بالله يفرُّون إليها:

إلى بيته حُجَّاجاً، وإلى مساجده عُمَّاراً، وإلى قراءة قرآنه ذاكرين، وإلى الالتزام بمنهج الله فى كُلِّ ما يعملون، والتجارب تؤكد أن كثيراً من الناس لولا ما أصابهم من ضرر لَمَا فرُّوا إلى الله بحثاً عن نجاة، ولَمَا التفتوا لربهم عابدين داعين.

كما أن الظالمين أفراداً وأمماً لا يظلّون على قوتهم، بل لهم عمر وأجلٌ فى القوة، بل فى الحياة نفسها ينتهى بمجيئه، وبانتهاء مهمتهم فى الحياة يقول الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف]

والتاريخ يذكر أن أمماً بلغتْ من القوة مبلغاً كبيراً، وسادتْ الدنيا والشعوب، ثم بعد فترة من الزمن حلّ بها الضعف والهوان، بل قد يسيطر عليها ضعاف كانت تستضعفهم من قبل، فإذا جاء هذا الأجل فلا أحد يستطيع تأخيره لأن التوقيت فى يد قيُّوم الكون، وهم أيضا لا يستطيعون تعجيل هذا الأجل.

آفة التقليد

﴿ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

[الأعراف]

من الآفات التى تُصيب البشر فى كلِّ زمان ومكان آفةُ التقليد الأعمى، وهو تقليدٌ عادةً ما يكون من قبَل المفتون بقوم لمَنْ يفتن

بهم، وغالباً ما يكون فى حالة شعور المفتون بالانهزام الداخلى وشعوره بتفوق الآخر.

انتظم هذا الشعور أمماً مختلفة على مرّ العصور، كانت له نتائجه التى أساءتْ كثيراً وأحسنتْ قليلاً، وهو الأمر الذى أشار إليه القرآنُ فى أكثر من موقع مُنبِّهاً على أهمية إعمال العقل الذى وهبه اللهُ لنا، مُؤكداً أن النارَ هى جزاء التقليد الأعمى خاصةً إذا كان تقليداً لمَا هو ضلالٌ وانحراف.

ويُصوِّر الحق سبحانه حالةَ المقلد، وهو يكشف خطأ تقليده عندما يلتقى بمَنْ قلَّده. يقول تعالى: ﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأعراف]

وفى قوله تعالى: ﴿ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأعراف] هو حكمٌ من الله بأن لكلٍّ قوم ضعفَ عذابه بما ضلَّ وأضلَّ، لأن الذى قلدَ الضلال لا شكَّ أنه كان أُسْوة لآخرين سلكوا مَسْلكه هذا، فأصبح الضالُّ مُضلاً، والمُضلّ ضَالٌّ.. وهكذا.

ثم يُصوِّر القرآنُ ما يكون فيه هؤلاء وأولئك من صراع فى طَرْح المسئولية عن النفس وتحميلها للآخر إلى أنْ يصدرَ الحكمُ الإلهى بمضاعفة العذاب للطرفين لأنهما يتبادلان المواقع، فيقول

الذين قاموا بالإضلال للذين يدعون الله إننا مشتركون في العذاب، فلا نجاةَ أو تخفيف لبعضنا.

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف]

أي: ما دُمتم ستأخذون ضعفَ العذاب مثلنا فقد تساوتْ الرؤوس ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف] كأن المجرمَ ساعةَ يلقَى مجرماً مثله يقول له: اشرب من العذاب نفسه، وليس ذلك تجنياً من الله ولا بسلطة القهر لعباده، ولكن بعدالة الحكم، لأن ذلك إنما حدث بسبب ما كسبتم.

ما هي الأعراف؟

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأعراف]

فقد تقدم عندنا فريقان: أصحاب الجنة، وأصحاب النار. وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف. و(الأعراف) جمع (عُرف) مأخوذٌ من عُرْف الديك وهو أعلى شيء فيه، وكذلك عُرْف الفرس.

كأنَّ بين الجنة والنار مكاناً مُرتفعاً كالعُرف يقف عليه أناسٌ يَعرفون أصحاب النار بسيماهم، فكأن من ضمن السِّمات والعلامات ما يُميِّز أهل النار عن أهل الجنة.

وكيف توجد هذه السمات؟ يقال: إن الإنسانَ ساعةَ يؤمن يصير أهلاً لاستقبال سِمَات الإيمان، وكلَّما دخل في منهج الله طاعةً واستجابةً أعطاه اللهُ سِمةً جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه، وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سِمَاتُ الجلال والجمال، وتحلُّ محلَّها سماتُ القُبْح والشَّناعة والبشاعة.

وإذا ما رأى أهلُ الأعراف أصحابَ الجنة يقولون: سلامٌ عليكم ؛ لأن الأدنى منزلةً –أصحاب الأعراف –يقول للأعلى– أصحاب الجنة: سلامٌ عليكم.

وجماعة الأعراف هم مَنْ تساوتْ سيئاتُهم مع حسناتهم في ميزان العدل الإلهي الذي لا يظلم أحداً مثْقالَ ذرَّة.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [القارعة]

ويا ربّ لقد ذكرتَ الميزان، وحين قدَّرتَ الموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين: فريقاً ثَقُلتْ موازينه، وفريقاً خَفَّتْ موازينه، ومنتهى المنطق في القياس الموازيني أنْ يُوجدَ فريقٌ ثالثٌ هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة، ولم تخفّ موازينهم فيدخلوا النار.

وهؤلاء هم منْ تُعرَض أعمالهم على (لجنة الرحمة) فيجلسون على الأعراف. ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهلَ الجنة يقولون لهم: سلامٌ عليكم. على الرغم من أنهم لم يدخلوا، لكنهم يطمعون في أنْ يدخلوا، لأن رحمةَ الله سبقتْ غضبه.

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾

[الأعراف]

وبطبيعة الحال ليس في هذا المكان غِشٌ ولا خداع.

وماذا حين ينظرون إلى أهل النار؟

يقول الحق سبحانه: ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [الأعراف]

انظرْ إلى التعبير القرآني ﴿ صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ ﴾ أي: لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليستْ اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أنْ ينظروا لهم لأنهم ملعونون، وكأن في ﴿ صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ ﴾ لوناً من التوبيخ لأهل النارِ.

وقوله الحق: ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ ﴾ أي: جهة أصحاب النار يقولون: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾ [الأعراف]

. هنا يدعو أهل الأعراف: يا ربّ جَنِّبْنا أنْ نكونَ معهم. إنهم حين يروْنَ بشاعة العذاب يسألون اللهَ ويستعيذون به ألاّ يُدخِلهم معهم.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) ﴾ [الأعراف]

وكأنَّ أصحاب الأعراف قد صُرِفَتْ أنظارُهم لأصحاب النار ويرونَ فيهم طبقات من المُعذَّبين، فهذا أبو جهل، وذاك الوليد، ومعه أُميَّة بن خلف وغيرهم ممَّنْ كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تُعطيهم كُلَّ سلطان وكيان.

وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعمَّار وبلال وصُهيْب وخبَّاب، وغيرهم ممَّنْ عاشوا للحقِّ مع الحقِّ، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأعراف]

وكأنهم يقولون لهم: إن اجتماعكم على الضلال في الدنيا لم ينفعكم بشيء.. شياطينكم والأصنام والسلطان لم ينفعوكم، وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان، هل أغنى عنكم شيئاً؟ لا. لم يُغْنِ عنكم شيئاً.

ويقول الحق بعد ذلك: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأعراف]

ويشير أهلُ الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال: بلال وخباب. ويقولون لأهل النار من أمثال: أبي جهل والوليد بن المغيرة: أهؤلاء الأبرارُ من أهل الجنة الذين تقولون: إنهم لن ينالوا رحمةَ الله؟

هم إذن –أهل الأعراف– قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار، وكأنهم نَسُوا حالهم أنْ يقفوا في انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة ووبَّخوا أهل النار، ولم يشغلهم حالهم أنْ يقفُوا موقفَ الفَصْل في هذه المسألة.

وهنا يُدخلُ الحقُّ سبحانه أصحابَ الأعراف جنّته لفرحهم بأصحاب الجنة وتوبيخهم أهل النار، ويقول لهم: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأعراف]

وهؤلاء -كما قُلنا- هم الذين تساوتْ حسناتُهم وسيئاتُهم؛ هي الطائفة التي جلستْ على الأعراف، فلم تَثقُلْ حسناتُهُم لتُدخلَهم الجنةَ، ولم تثقُلْ سيئاتُهم ليدخلوا النار.

خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ فى سِتَّةِ أيَّامٍ

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ.. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف]

من الادعاءات التى يدَّعيها المُستشرقون بتناقض آيات القران قولهم: إن الله سبحانه وتعالى قال في آية أنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، وفى آيات أخرى يقول أنه خلقها فى ثمانية أيام، وذلك فى قوله تعالى:

﴿ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِى يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوۡمَيۡنِ.. ﴿١٢﴾ ﴾ [فصلت]

ويدَّعى المستشرقون أن عدد الأيام فى الآية ثمانية، فى حين أن الله يقول فى سورة الأعراف ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ۝٥٤ ﴾ [الأعراف]

والحقيقة أنه سبحانه وتعالى خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام كاملة بلا زيادة أو نقصان. أى: أنه خلق الأرض فى يومين، ثم أتمّ ما فيها فى يومين آخرين، فأصبح المجموع بخَلْق الأرض وخَلْق الجبال وتقدير الأقوات فى أربعة أيام، ثم كان خَلْق السماوات فى يومين فيكون المجموعُ ستة أيام، لذلك فإن الآيات التى جاءت شاملة وجامعة ذكرتْ ستة أيام، لأن هناك فرقاً بين ميلاد الشيء وبين تهيئته للميلاد.

كما أن خَلْق السماوات والأرض كان بالأمر (كُنْ) وبعد ذلك تركت مكوّنات السماء والأرض لتأخذ قدْرها ومراحلها، لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام، وقد ألمحت آية سورة (ق) إلى شيء من ذلك فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨ ﴾ [ق]

ولقوْل الله تعالى السابق حكمةٌ أرادها لرسوله وللمسلمين خاصة، وقد جاء بعدها قوله تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ.. ۝٣٩ ﴾ [ق]

وهذه الحكمة هى أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل مسألة وقتها وكتابها، فلا تعجل يا محمد على مَنْ يُكذِّبك ويضيق صدرُك به، لأن الله كان يستطيع أنْ ينجزَ السماوات والأرض وما بينهما فى لحظة واحدة.

وإنما قال (كُنْ) فكانتا، ثم ترك المواد تتفاعل لستة أيام حتى تتمَ السموات والأرض على حالاتهم، وهو مايعلمنا التأنِّى وعدم العَجَلة، وأن نعطى لكلِّ شيء وقته ومقداره وجهده الذى يحتاج إليه·

معنى عَجز الداعين

﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

[الأعراف]

الدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إيجاد وتحقيق ما عجز عنه أو يُعينه عليه، وعندما يشعر الإنسانُ أنه عاجزٌ فإنما يركن إلى منْ له مُطلق القدرة لأن قدرته محدودة·

والدعاء هو التضرع والذلَّة والخشوع، والإقرار بأن الإنسان عاجزٌ ويطلب من ربه المددَ والعَونَ·

واستحضارُ الإنسان لعجزه وقدرة الله عليه يُمثِّل استدامة اليقين الإيمانى، وما جعل ربُّنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك، لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياءَ تنفعل له ويبتكر ويخترع فقد يأخذه الغرورُ فيأتى له بحاجة تعزّ وتعجز فيها الأسباب فيقف ليدعو·

ومَنْ كان مُتكبِّراً وعنده صَلَفٌ وغطرسة يذهب إلى رجل زاهد تجرّد من الجاه والسلطان مُنقطع لعبادة الله، ويقول له: أستحلفك برسول الله أنْ تدعو لى لأنى فى أزمة· والذى يسال مثل .هذا الزاهد هو رجلٌ عزيزٌ فى قومه، لكنه يظن أن الزاهدَ الغلبان أقربُ إلى الله منه·

يقـــــول الله تعـــــالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝ ﴾ [الأعراف].

وعلى ذلك فإن الإنسان لا يصح له أنْ يدعوَ ربَّه وفى باله أن الأشياء تُقضى بالدعاء، وإنما الدعاءُ فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع، والإنسان قد يتعلَّق قلبه بالأمانى التى تضره وهو يظن أن الخيرَ كلَّ الخير فيما تعلَّق قلبه به.

يقول الله تعالى: ﴿ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ۝ ﴾ [الإسراء] لأن الذى نظَّم أمور الإنسان وقدَّرها هو أعلم به، ومن ثَمَّ فإن الذين يحزنون إذا دعوا ربَّهم فلم يستجب دعواهم لا يدركون إنْ كان الخيرُ فى العطاء أو المنع.

ومن هنا كانت الحكمةُ فى جَعْل حفظ الإنسان من الدعاء هو الخشوع والتذلُّل والضراعة حتى لا يظلَّ الإنسانُ مقهوراً بعجزه أمام ما يواجهه، لأن الدعاءَ يُحقق له اليقين الإيمانى بأن له رباً قوياً مقتدراً.

بل إن الله سبحانه وتعالى قد يجعل من المشكلات والأزمات التى تواجه الإنسانَ عاملاً قوياً لعودة الإنسان إلى الله وذكره بعد أنْ كان قد نسى وانصرف عن منهج الله القويم.

التحذير المُبكِّر فى الدنيا

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأعراف]

يُمثل أخْذ الله عباده بذنوبهم فى الدنيا التحذير المبكر لمَا سيكونُ لهم فى الآخرة من عقاب على ما يقترفونه من ذنوب، كما يُمثل عبرةً لمَنْ يرى ويسمع ما حدث ويحدث مَنْ أدبر وتولَّى واستعذبَ الخروج على منهج الله، وعاش فى رُغام المعصية فارّاً من طيب الطاعة.

وهذا الإنذار المبكر يهدف فيما يهدف إلى عودة الضّال إلى دائرة الهدى، والشارد إلى سبيل الإيمان. يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأعراف]

والبأساء: هى المصيبة تصيب الإنسان فى أمر خارج عن ذاته من مال يضيع أو تجارة تبور وتهلك، أو بيت يُهدم والضراء. المصيبة: هي التى تصيب الإنسان فى ذاته ونفسه كالمرض.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ .. ﴿١٢﴾ ﴾[يونس]

ويقول تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

ولا شكَّ أن لُجوءَ المُصَاب إلى الله ليكشفَ عنه مصيبته تُوحى بأن المصابَ لا يزال يحملُ فى قلبه الخوفَ والخشوع لله، ويحمل إيمانا بطلاقة قدرة الله تساعده فى العودة إلى صراط الله المستقيم.

أما إذا كان الكفرُ والعياذ بالله قد ملأ قلبه، والكبرياء قد أخذ منه غايته فإنه يُصر على عناده، ولا يرجع ما مسَّه من ضر إلى أخذ الله، بل إنه يسعى إلى دفعه بعيداً عن رحمة الله واللجوء إليه.

وهو ما نراه فى كثير من البلاء الذى ينزل بالبشر فى أيامنا هذه، وأنهم يبحثون عن علاجه بعيداً عن الله والتضرع إليه، لذا فإن الله يعاقب الذين لم يلجأوا إليه ولم يدعوه بأنْ يبسطَ لهم فى العيش والحياة حتى يأخذَهم بعد ذلك أخْذَ عزيز مُقتدر.

يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأعراف]

القوانين.. طبيعية.. وتنظيمية

يستطيع الإنسانُ أنْ يتحرّكَ فى كَوْن الله حسْب القوانين التى وضعها اللهُ سبحانه وتعالى، وهى نوعان من القوانين: طبيعية، وتنظيمية.

فالقوانين الطبيعية تتمثَّل فى نظام الكون من نواميسه التى لا تتغيَّر ولا تتبدّل، كالصيف والشتاء، والنهار والليل، وحركة الشمس والقمر والنجوم وغيرها.

والقوانين التنظيمية تتمثل فى شرائع الله التى أرسل بها رُسله لتنظيم حياة الناس فى خلافتهم لله فى أرضه، بينهم وبين الخالق عزّ وجلّ، وبينهم وبين كَوْنه، وبينهم وبين بعضهم البعض.

إلا أنّ القوانينَ الطبيعية ذاتَ الناموس الذى لا يتبدّل ولا يتغيّر شاءتْ إرادةُ الله أنْ تتأثر بمدى التزام الناس بقوانين الله التشريعية (التنظيمية) حتى يتبينَ للناس فى حياتهم آثارُ أيديهم وما تعمله فى كَوْن الله من خلال درجة إخلاصهم فى عبادته، ودرجة التزامهم بشرائعه.

وهو ما يُفسِّر قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وكذلك قوله سبحانه ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم] وقوله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن]

ويُفسّره أيضاً صلاة الاستقساء، والتى يشير إليها قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ [البقرة]

النِّعمةُ بعدَ الإيمَان

﴿ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف]

أكثرُ عقوبات الله لخَلْقه تكون من قِلَّة شُكرهم لنعمه، وأصل قلّةِ الشُّكر الجهلُ بالنعمة، وأصلُ الجهل بالنعمة قُصُور العلم بالله

تعالى، وطُولُ الغفْلة عن المُنْعِم، وتَـرْكُ التفكُّـر فـى نِعمـة التـذكُّر لآلائه ومِنَنهِ سُبحانه وتعالى.

فقد أمر بذلك فى قوله تبـارك وتعـالى: ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف] وآلاءُ الله هى نِعَمهُ.

وقـال أيضـاً: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾

[البقرة]

يقول علىٌّ بن أبي طالب ﷺ: ((لا يستطيع العبدُ شُكْرَ نعمة الإيمـان، ومعرفةَ بداية التفضيل به، وقديمَ الإحسان من غير قدم من العبـد، ولا استحقاق، بل بفضل الله وبرحمته))

وهذا أحدُ الوجوه فى قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾

[عبس]

أى: لا يقضى العبد أبداً شُكْرَ ما أمره الله تعالى من نعمـة الإسـلام التي هي أصول النِّعَم في الدنيا والآخرة، وهي سببُ النجاة من النـار، ومفتاحُ دخوله الجنة.

ويقول الإمام علىٌّ ﷺ أيضاً: (فلو قَلبَ اللهُ قلوبنا عن التوحيد كمـا يُقلِّبُ جوارحنا فى الذنوب، ولو قلَّبَ قلوبنا فى الشكِّ والضلال كما يُقلِّب نيَّاتنا فى الأعمال أيَّ شيء كُنَّا نصنع، وعلى أيِّ شيء كُنَّا نُعوِّل، وبأىِّ شيء كُنَّا نطمئن ونرجو، فهذا من كبائر النِّعَم ومعرفته هو مـن شُـكْر نعمة الإيمان، والجهلُ بهذا غفلةٌ عن نعمة الإيمان يُوجب العقوبةَ)).

جعل اللهُ تعالى الخيرات من كَسْبِ الإيمان، وليس لنا فيما يكسبنا الخيرات، فكأن الله تعالى مَنَّ علينا أنْ هدانا للإيمان، وجعله سبباً يكسب لنا بإحسانه الإحسان.

ومن النِّعَم بعد الإيمان توفيقُنا للحُسْنى، وتيسيرُنا لليُسْرى، ثم صرْف الكُفْر وأخلاق الكَفَرة وأعمالهم، ثم تزيين الإيمان وتحبيبه إلينا، وتَكْريه الفسوق والعصيان فضلاً منه ونعمة إلى ما لا يُحصَى من نِعَمه.

فى قصة موسى وهارون

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف]

النبى معصومٌ من الخطأ، وإذا ما حدث وتصرَّف تصرّفاً به شبهة خطأ إنما يكون للتشريع والعظة، والمتأمل فى قصة موسى وهارون في آيات القرآن التى أوردت حادثة عبادة قوم موسى للعجل يدرك أن هارون عليه السلام لم يكُنْ له علاقةٌ بالذين قاموا بعبادة العجل من اليهود أثناء ذهاب موسى إلى الجبل للكلام مع الله وتأخره أربعين ليلة.

وقد جاء فى سورة الأعراف ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ

بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ [الأعراف]

من الآية ندرك أن موسى عاد غاضباً، لأنه علم بما فعلوه قبل أنْ يعود فألقى الألواح في لحظة غضبه، والألواح بها المنهج، ثم اتجه إلى أخيه الذي يقدر عليه، وأخذ برأسه يلومه ويعاتبه ويحاسبه، إلا أن أخاه هارون أخذ يستعطفه برابطة الأخوة، وخاصة من الأم حتى يدرك الحقيقة.

ثم يشرح قائلاً: ﴿ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى..﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف] وذلك دليلٌ على أنه وقف منهم موقفَ المعارض المُقاوم الذى أدى ما عليه إلى درجة أنهم فكَّروا فى قَتله.

ويتابع هارونُ استضعافه لأخيه قائلاً: ﴿ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف] والشماتة هنا إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل، وقد وصفهم بالأعداء دليلاً على أنه وقفَ منهم موقفَ العداوة، وبالتالى فإن خلافَ هارون الذى قاومهم مع أخيه سيُسعدهم ويُفرحهم.

وفى نهاية كلامه يقول له: ﴿ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الأعراف]

وكأنه يقول له إنك إنْ أخذتنى هذه المؤاخذةَ فى حالة غضبك ربما ظنَّ بى أننى كنتُ معهم أو سلكتُ مسلكهم فى اتخاذ العجل وعبادته.

والله سبحانه وتعالى عندما ساق هذا الحوار أراد سبحانه أن يُظهر موقفَ موسى وموقف أخيه، فموقفُ موسى ظهر فى غضبه على أخيه وموقفُ هارون ظهر فى بيان حقيقة ما حدث.

لماذا يذُم الإسلامُ المُتكبرين؟

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ (١٤٦) ﴾ [الأعراف]

كثيراً ما يذمُّ الإسلامُ الكبرَ والمتكبرين حين يعتبره البعضُ من الناس إرضاءً للنفس واحتراماً للذات، فلماذا هذا الذم؟

من الحمق أن يدّعى الإنسان ما ليس فيه من الصفات، فإذا كان الادعاء لصفة لا يتصف بها بشرٌ، وهى الكبرياء التى هى صفة الله سبحانه وتعالى فإن المتكبر يكون قد بلغ غاية فى الحُمق، وهو الكفر والعياذ بالله، لأن الذى يتكبَّر عليه أن يتكبر بشيء ذاتى لا يُسلب منه أبداً.

فإذا ما حاولنا تطبيقَ ذلك على البشر فلن نجد أحداً يستحق ذلك، لأن كلَّ صفات الإنسان صفاتٌ موهوبة له، ومن الأغيار التى قد تزول، فكلُّها من الله، وليستْ أموراً ذاتية.

لذلك كان عقاب المتكبرين من أشد ما عاقب به الله سبحانه وتعالى عبيداً من عباده، لأنهم يُنازعونه فى صفاته، وكان العقاب هو صَرْفهم عن الوصول إلى الحقيقة والرجوع إلى الرشاد·

قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف]

فسبحانه جلَّ فى عُلاه يصرف عن المتكبرين النظر فى الآيات الكونية، فلا يعتبرون، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نُبوة الأنبياء، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ويطبع على قلوبهم·

فما بداخلها من الكفر لا يخرج، وما فى خارج هذه القلوب من الإيمان لا يدخل· وهم برغم حركتهم فى الحياة إلا أن الله يُعجزهم عن رؤية آياته فى الكون·

والشاهد على ما حكم الله به على المتكبرين أنهم حين يرون الآيات الكونية أو الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها، وحين يرون سبيل الرُّشد لا يتخذونه سبيلاً، لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها فينتهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كَبْح جماح شهواتهم، لأنها تمكَّنت منهم·

أما سبيل الغَيّ فيطلق العنان لشهوات النفس، ولا يكون كذلك إلا إذا غفلَ عن معطيات الإيمان الذى يحرمه من شيء ليُعطيه أشياء أثمن، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية.

وفى نهاية الآية يُقدم المَوْلى سبحانه وتعالى أسباب حُكمه هذا على أهل الكبرياء، بقوله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف] والغفلة هنا ليست نسياناً أو سهواً مما لا يوجب الجزاء، وانما إعراض عقليٌّ مقصود.

العفو فى القرآن

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

[الأعراف]

العفو يأتى بمعان كثيرة، لكنها تلتقى فى معنى اليُسْر والسهولة، والكلمة تأتى على ألسنة الناس، فإذا سأل سائلٌ: من أين لك بكذا؟ فقد يردّ عليه: جاءنى عفواً، أتى بدون جهد أو مشقة أو سَعى أو احتيال، أو جاءتنى الفكرة عَفْوَ الخاطر، أى: دون تفكير فيها، فما هى الحقيقة؟

إن المتأمل فى سورة الأعراف يجد الله سبحانه وتعالى بعد أن أبلغ رسوله بأن كيدَ المشركين لن يضره بشيء أوضح له بأن يأخذ الناسَ بالعفو. أى: أن يأخذهم الأمر اليسير السهل الذى لا تكلُّفَ فيه، ولا اجتهاد؛ لأن الإنسان حين يتكلف الأشياء يُرهق الناس.

لذلك يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه قائلاً: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [ص] أي: أنه ﷺ لا يتكلف الأمور حتى تصير سهلة، ولا يوجد لددٌ بين الناس، لأن الذي يوجد اللدد هو التكلف وقهر الناس؛ لذلك يُقال: المؤمن هو السَّمْح إذا باع، والسَّمْح إذا اشترى، والسَّمْح إذا اقتضى من غيره، والسَّمْح إذا اقتضى منه، أي: أنه في كلِّ أموره سمحٌ.

كما أن للأمر بأخْذ العفو معنىً آخر، وهو أنْ يعفوَ الإنسانُ عمَّنْ ظلمه، وله معنى ثالث وهو ما زاد عن حاجة الإنسان، كما في قوله تبارك وتعالى قبل أنْ تُفرضَ الزكاة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ.. ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة] أي: ما زاد عن حاجتك.

والمتأمل في كلمة (خذ) في قوله ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف] وما للأخْذ من دلالة النفع يفهم أنه إذا كان عفو الإنسان عمَّنْ ظلمه في ظاهره العطاء والتنازل، فإنه في حقيقته مكسبٌ وغُنم، فالله سبحانه وتعالى يُعلِّم رسوله والمؤمنين أنهم حين يُعطون العفوَ إنما يأخذون الخيرَ من خلاله.

فالظالم بظُلمه يجعل اللهَ في جانب المظلوم، وقد رُوِيَ أن الحسن البصري بلغه يوماً أن شخصاً قد اغتابه فنادى خادمه وأمره بالذهاب إلى المغتاب وتقديم طبق من تكر له، فسأله الخادم عن سرِّ تصرُّفه، فقال له: أفلا أُحسن إلى مَنْ جعل اللهَ بجانبي؟

قُلْ له: يقول لك سيدى أنكَ قد اغتبْتَه فأهديْتَ إليه حسناتك. وهو أهدى لك رُطَبه.

العطاء

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

[الأعراف]

وقد شاءتْ إرادةُ الله سبحانه وتعالى أنْ يكونَ عطاؤه بقدر ما يأخذ عبده التكليفَ، فمَنْ أخذ التكاليفَ بتخاذل وبكسل وبتهاون أُعطى بقدر ما أخذَ التكاليف.

لذلك يقول اللهُ تعالى فى معرض كلامه عن بنى إسرائيل: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف]

الإنسانُ عادة يأخذ ما هو نافعٌ له بقوة، ومنهجُ الله لا شكَّ نافعٌ للبشر، فيجب أنْ يُؤخذ بقوة ويقين ليعطى خيراً كثيراً بقوة ويقين. وإذا أخذ الإنسانُ منهجَ الله بقوة فقد أؤتمنَ عليه، فإذا انشرح صدره له طلب الزيادةَ من المنهج.

لذلك تجد القرآنَ فى حديثه عن المسلمين يردُّ أسئلتهم للرسول، ويُجيب عنها ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ... ﴾ وهو دليلٌ على أنهم عشقوا التكليف، وعلموا أنه نافعٌ فهم يريدون زيادةَ النفع.

المُثقَّفون الجاهلون

عجيبٌ أمر الذين لهم نصيبٌ من الثقافة ويعارضون الإسلام ويقفون منه موقفَ الأعداء.

يُخطيء مَنْ يظن أن الجاهل هو الذى لا يعلم لأن مَنْ لا يعلم هو الأميُّ، أما الجاهل فهو مَنْ يعلم قضيةً تُخالف الواقع والحقيقة ويؤمن بهذه المخالفة على أنها الحقيقة ويتعصَّب لها.

لذا كان حَثّ القرآن إلى الإعراض عن هؤلاء المتعصبين لأفكارهم الخاطئة في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾ [الأعراف] لأن الجدال مع أمثال هؤلاء لا يؤدى إلى نتيجة مفيدة.

لذا فمن الحكمة لمن يواجه قضَيةَ التدين، ولم يقرأ عن الدين كتابا واحداً وإنما قرأ كلَّ ما يهاجم الدين وينكره ويحطُّ منه أن يكونَ عادلا ويقرأ بعض الكتب التى تتحدث عن الدين على الجانب الآخر.

بل الأكثر من ذلك، فإن مَنْ يريد بحثَ قضية الدين ويصل فيها إلى أحكام حقيقية سليمة فإن عليه قبل أنْ يبدأ أنْ يتخلَّى عن كل القناعات المُسبقة والمُسلَّمات التى يؤمن بها، ويبدأ خالياً من المَيْل إلى أيِّ فكرة معينة.

وهو ما صنعه الإمام الكبير أبو حامد الغزالى عندما دخل فى مرحلة الشكِّ فقد روَّض نفسه على التخلى عن كل أفكاره وقناعاته، ثم بدأ فى البحث عن الحقيقة حتى وصل إلى الإيمان الذى وصل إليه.

وحدثنا عنه في كتابه (المنقذ من الضلال) فالإنسان الذي يحتفظ في قلبه بفكر معين يرتاح إليه ويناهض منطوقها بظاهر لسانه أو يناقش ما يخالفها، فقلّما يصل فيها إلى حقٍّ، لأن القلب إما أنْ يمتلئَ بالإيمان واليقين، وإما بغير ذلك.

البصر.. والبصيرة

﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

[الأعراف]

تتردد كلمتان على ألسنة الناس هما: " البصر والبصيرة " دون فهْم لمَا بينهما من فرْق ولاختلاف اللفظيْن، فإنَّ كلاًّ منهما له مفهومٌ خاص، فالبصر يختلف عن البصيرة.

فالبصر مهمة العين حيث ترى ما يوجد أمامها من أشياء حسية، لكنّ هناك أموراً معنوية لا تكتشفها إلا البصيرة التي تأتي بعد أن يمتلئ القلبُ بنور اليقين الإيماني، فيضيئ بهذا النور ويستكشف تلك الأمور المعنوية.

وقد وصف اللهُ سبحانه وتعالى كتابه العزيز بأنه بصائر في قوله: ﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف] لأنه يعطي ويمنح مَنْ يؤمن به ويتأمله قدرةً على تحديد الأمور المعنوية وكأنها محسوسةٌ مرئيّةٌ أمامه، بل يستطيع بهذه المنحة أنْ يتوقعَ الخير أو الشر.

وفى وَصْف القرآن بأنه بصائر وهدى ورحمة إشارة إلى أنه يدلُّ الإنسان ويهديه إلى المنهج الحق وإلى طريق الله المستقيم، وهو رحمةٌ أيضاً لمَنْ لا يملك إشراقات القلب التى تهدى للإيمان، ولا يملك قوةَ أخْذ الدليل الذى يُوصِّله إلى الهداية. إذن: فهو رحمةٌ لكلِّ الناس وهدى لمنْ يسأل عن الدليل، وبصائر لمَنْ يتقن الإيمان.

ومع هذه العطاءات التى تتيح للإنسان أن يصل إلى الحق، إلا أننا نجد الكافرين يتركونها كلها ويعمُون عنها، وكما حكى القرآنُ فى قوله :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

وهو ما يدلُّ على ما فيه الكافرون من عَمى، حيث إنهم يطلبون معجزات حية معينة متناسين ما جاءتْ به آياتُ القرآن من معجزة لم يستطيعوا هُم أنْ يأتوا بآية واحدة من مثلها.

سَماع القرآن تعبُّد وأدب

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف]

القرآن الكريم هو دستور السماء الذى أُنزل على رسولنا الكريم. وهو لأصحاب المنزلة والدرجات العالية بصيرةٌ من الله، وهُدى لأصحاب الاستدلال ورحمةٌ للجميع، وبالتالى كان الإنصات إليه حين يُقرأ تعبداً لله وجنياً لتلك الفوائد الثلاث.

فالإنسان يسمع كل ما يُقال حوله، وقد يتنبه إلى ما يسمع وقد لا يعيه مُطلقا، ومن الرحمة المحمدية أن رسولنا الكريم نبّهنا إلى عدم تسمُّع أسرار الغير والبحث عن عوراتهم، فقال: ((لا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا، ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا)).

وحين دعا الله سبحانه إلى الاستماع إلى القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف]

لم يقل: اسمعوا. بل (فَٱسْتَمِعُوا) لأن الاستماع فيه تعمُّد، أما السمع فهو سماعُ كلِّ ما يحدث حول الإنسان دون إرادة أو انتباه، كما أن الإنسان قد يستمع بغير نية التعبُّد فيحرم ثواب الاستماع، كما أن السماع بنية التعبُّد حُسن أدب مع الخالق، لأن القرآن كلامُه.

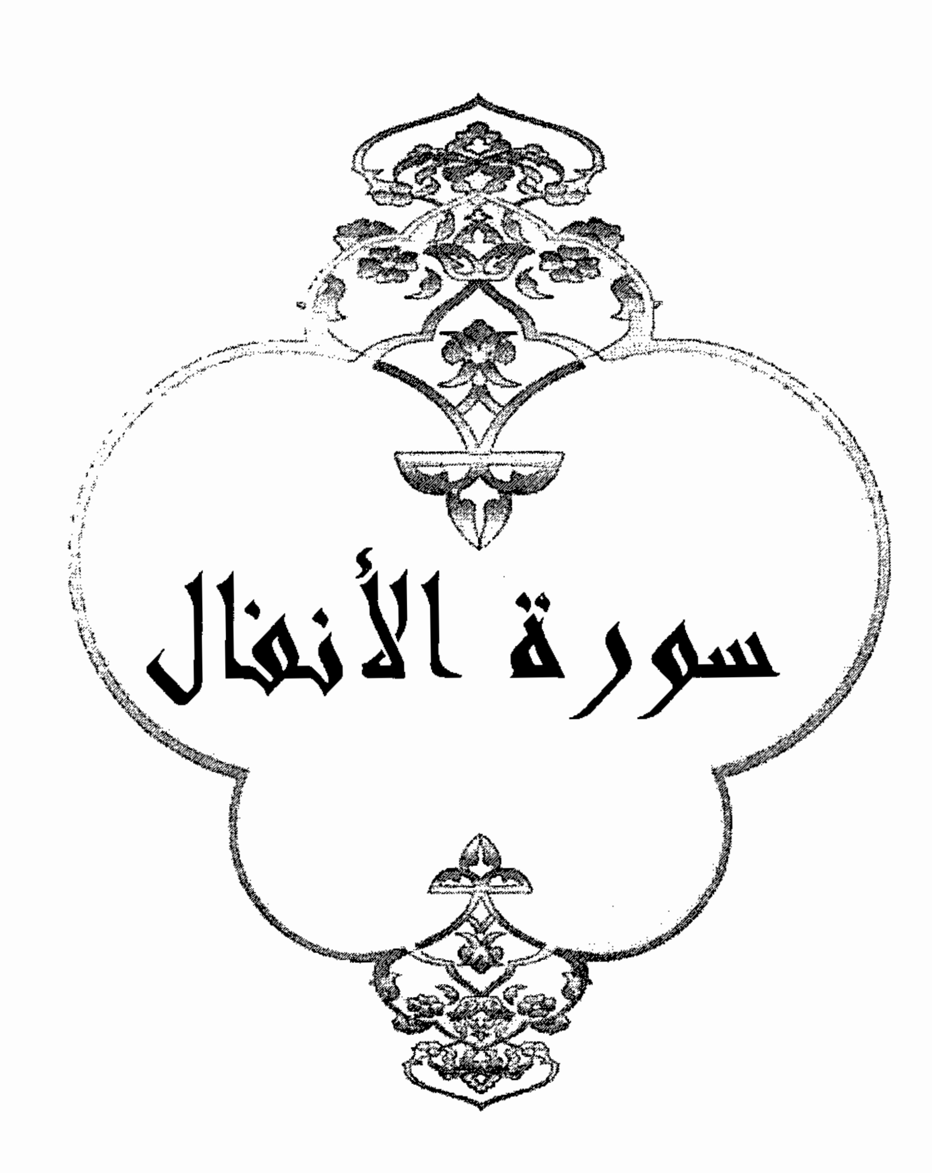
وقد اختلف العلماءُ حول الاستماع والإنصات: أنْ يكونَ مطلقاً، وفى أىِّ حال من الأحوال، أو حين يقرأ فى الصلاة، أو حين يقرأ فى خطبة الجمعة؛

بعض العلماء قالوا: إن المقصود بالإنصات للقرآن حين يُقرأ فى الصلاة والسبب فى ذلك أن الأوائل من المسلمين كانوا حينما يقرأ رسول الله ﷺ فى الصلاة يُعيدون بعده كلَّ جملة قرأها، فإذا قال " بسم الله الرحمن الرحيم " وبالتالى نزلتْ الآيةُ مُنبِّهة لهم أنْ يتركوا رسول الله ﷺ يقرأ وهُم يستمعون إليه دون ترديد للقراءة.

وقال آخرون: الإنصات للقرآن يكون فى الصلاة وخطبة الجمعة والعيدين، لأنها تشتمل على آيات من القرآن.

وهناك قولٌ بأن الإنصات يكون فى كلِّ حال يُقرأ فيه القرآن احتراما ومهابةً لكلام الله عز وجل.

كما أنه ليس المطلوب مجرد الاستماع بالآذان، بل المقصود بالاستماع هنا هو أنْ تستجيبَ لمطالبه.


سورة الأنفال

سورة الأنفال

الأنفال لله ورسوله

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأنفال]

تتردد كثيراً كلمات النافلة والأنفال، ويختلف الناسُ في معنى كلِّ كلمة منهما، ومن فضل الله على رسولنا صلواتُ الله وسلامه عليه أنْ أعطاه من العطايا ما لم يُعطه نبياً قبله، كما قال رسولنا الكريم في حديثه:

((أُعْطيتُ خمساً لم يُعطهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قَبلي: نُصرْتُ بالرُّعب مسيرةَ شهر، وجُعلتْ ليَ الأرضُ مسجداً وطَهُوراً، فأيُّما رجل من أمتي أدركتْه الصلاةُ فليُصل، وأُحلَّتْ ليَ الغنائمُ ولمْ تحل لأحد قَبلي، وأُعطيتُ الشفاعةَ، وكانَ النبيُّ يُبعثُ إلى قومه خاصةً، وبُعثْتُ إلى الناس عامة)).

وهذه المنح بالنسبة لمَا كان عليه الأنبياء تُعتبر نافلةً أو نوافلَ بالنسبة للرسول لأنها زيادة، والنافلة في اللغة هي الزيادة.

وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأنبياء]

والآية في سورة الأنبياء، وجاءتْ في معرض الحديث عن ما اختبر به اللهُ سبحانه نبيه إبراهيم في أمره بذبح إسماعيل، فلمَّا انصاع لأمر الله كافأه المَوْلى بفداء ابنه إسماعيل، وزاد على ذلك أنه رزقه بإسحاق، ثم رزق إسحاق بيعقوب، وكلهم جعلهم أنبياء.

والأنفال كما جاءتْ فى القرآن: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأنفال] هى إشارة إلى أسلاب الكفار فى معركة بدر، فقد اختص الله رسوله الكريم وأمته دون الأمم بأنْ أحلَّتْ لهم الغنائمَ، وهو ما لم يكُنْ لأىِّ نبى قبل ذلك.

وأسلاب الكفار المهزومين تتوزَّع بين نَفْل وغنيمة وفَيء وقَبْض :

والغنيمة هو ما يأخذه المسلمون من الأعداء المهزومين، ويقسم بنسب فللرجل المقاتل سهم، والفارس {أى: راكب الفرس} سهمان.

والفَيءُ هو كل ما صار للمسلمين من الكفار من غير حرب ولا قهر.

والقبض هو ما جُمعَ من الغنيمة قبل أن تُقسم.

لكن رسول الله ﷺ تشجيعاً للمسلمين فى بدر، قال: ((مَنْ قتل كافرا فَلَهُ سلَبه)) وذلك زيادة للمسلم على حصَّته المعروفة التى ذكرناها، فأصبح هذا السَّلَب نفْلاً على المعروف.

ولمَّا انتهتْ المعركةُ جاء الشيوخ الذين حضروا المعركة إلى الرسول قائلين: يا رسولَ الله، هم قاتلوا وقُتلوا -يقصدون الشباب- لكن نحن عند المحرومات يفيئون إلينا إنْ وقعتْ عليهم هزيمةٌ فلا بُدّ أنْ نتشارك، وحدث فنزل قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأنفال]

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

[الأنفال]

الطريقُ إلى الإيمان الكامل

معرفةُ الإيمان ضرورةٌ للالتزام به، ومعرفةُ الزيادة فيه والنقصان ضرورةٌ للتمسُّك بالكمال.

وقد اختلف العلماء حول الإيمان، وإنْ كان يزيد أو ينقص من عبد إلى عبد، أو عند عبد واحد من وقت إلى وقت، ومن حالة إلى حالة، إلا أن الإنسان إذا تأمل قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال]

نجد الآية تؤكد زيادة الإيمان، والإيمان كما عرَّفه رسولُ الله ﷺ فيما رواه أبو هريرة ﷺ ((أنْ تؤمنَ بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر)) وفي رواية ذكر القضاء والقدر خيره وشره، وهي أمور غيبية، لأن المحسوسات لا يُقال فيها إيمان، فلا يصح أن يقول شخص إنني مؤمن بأنني أتحرك على الأرض لأن ذلك أمر حسيّ.

إذن: الإيمان لا يكون إلا فى الأمور الغيبية، وأولها: الإيمان بالإله الواحد الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو غيبٌ، والملائكة وهى غيب، وإنما أخبرنا بها والكتب المنزلة على الرسل.

صحيح أن الكتاب أمر حسى إلا أننا لم نَرَ الوحى وهو يُنزل الكتاب على الرسول، إذن: فهو أمر غيبى، وكذلك اليوم الآخر والقضاء والقدر وهو ما غابت عنَّا حكمته، وكلها أمور غيبية.

هذا الإيمان الذى جاء فى الحديث الذى رواه الصحابى الجليل أبو هريرة ﷺ هو أعلى الدرجات فى الإيمان، إلا أن هناك إيماناً آخر يُواكب التشريعات، حيث إن التشريعات لم تنزل مرة واحدة. وهو الإيمان الذى يزيد وينقص.

فكلما كانت تنزل آية بتشريع جديد كانت تُزيد المؤمنين إيمانا، فعندما نزل الأمر بالصلاة آمن المؤمنون بإقامتها واستجابوا ونفَّذوا، ثم جاء الصوم فامتثلوا للأمر به، ثم جاءتْ الزكاة فكانت الطاعة والتنفيذ.

وطبعاً هناك فرّقٌ بين أن يؤمن الشخص بالأمر وأن يفعله، فالإيمان شيء وفعله شيء آخر، فهذا الفعل هو الإسلام وهو الانقياد الظاهرى للمنهج وتطبيق كل ما يجيء به الدين هو إيمان مستمر متزايد، لأننا آمنا بأن ما يجيء من المنهج هو من الله، وبالتالى فالذى يزيد هو توابع الإيمان من التكليفات والامتثال لهذه التكليفات.

عملُ القلب.. وعملُ الجوارح

التوكل هو إيمان الإنسان بأن له وكيلاً يقوم بمهام أموره، وقد جاء فى أوصاف المؤمنين أنهم يتوكلون على ربهم فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال]

أى: أنهم يكلُون أمورهم على مَن ائتمنوه على مصالحهم، وهو الله سبحانه وتعالى القادر العظيم الذى خلق الكون، وخلق فيه أسباباً تؤدى إلى مُسبِّبات. والمؤمن الذى يستقبل منهج الله بالفهم يجد الأسباب التى يجب أن يأخذها سبحانه وتعالى هو المُسبِّب الأعلى.

والإيمان يؤكد أن الجوارحَ تعمل والقلوب تتوكل، فعلى الجوارح أن تحرثَ الأرض وأن تختار البذرة الطيبة وتنثرها فى الأرض ثم ترويها وتتعهدها، وهذه العمليات هى الأسباب التى يؤمن المؤمن أيضاً أن فوقها سبباً، لأن الإنسان قد يحرث الأرض ويرويها ويبذر البذور ويتعهدها إلا أن آفة قد تصيبها فتُهلك الزرع، لأن فوق الأسباب مالكَ الأسباب.

ومَنْ ينقل التوكل إلى الجوارح يكون قد تواكل، لأنه نقل عمل القلب إلى الجوارح فيتكاسل عن الأخذ بالأسباب، ويدَّعى أنه متوكلٌ على الله، وهو ليس صادقاً مع نفسه، وإلا لترك الطعام والشراب دون أن يسعى إليهما لأنه متوكلٌ ويتركهما يبحثان عن فمه، وهو ما لا يمكن أن يحدث.

فالتوكل عمل القلب والجوارح عليها أن تأخذ بالأسباب، إلا أن قوماً أفسدوا داخلهم الكسل، وسيطرت عليهم الدعة وسوّلت لهم نفوسهم أن يكونوا عالةً على العاملين الجادّين، وأرادوا أن يجدوا لأنفسهم المبررات أمام الآخرين، فادَّعوا أن كسلهم وقصَر همَمهم توكلٌ على الله، فألبسوا الحقَّ بالباطل.

التَّوكل والتَّواكل

الخلط بين التوكل والتواكل قائم، ولهذا تحدث أخطاء كثيرة يقع فيها مَنْ يخلطون بين الأمرين، ويُفوِّتون على أنفسهم منافعَ كثيرة، ويُفوِّتون هذه المنافع أيضاً على غيرهم.

من صفات المؤمنين بالله التوكل عليه، لأن التوكل هو إيمانُ المؤمن أن له وكيلاً يقوم له بمهام أموره، فالإنسان بطبعه فى حياته العادية حين لا يَقوى على شيء ما يعهد به لمَنْ يَقوى عليه بإنجازه.

إذن: المؤمنون يعهدون بأمورهم لمَنْ هو قادرٌ على تحقيق مصالحهم، وهو الله سبحانه وتعالى، القادر العظيم على خَلْق الكون وما فيه من أسباب تؤدى إلى مُسبِّبات. والأسباب بالطبع مقدمة والمُسببات هى النتيجة، وبعد ذلك ترك الخالق أموراً ليس فيها أسباب، والمؤمن إذا عزَّتْ عليه الأسباب لا ييأس، بل يقول تلك هى قضية الأسباب، أما أنا فَلى ربُّ الأسباب وهو القادر فوق الأسباب.

والغريب أن هناك مَن يخلط عملَ الجوارح وعملَ القلوب، فنجد مَنْ لا يأخذ بالأسباب مُدعياً أنه مُتوكل على الله، فى حين أن التوكلَ على الله هو الأخْذ بالأسباب، ثم ترك النتيجة لصاحب الأسباب.

وبالتالى فإن الذين يتركون الأسباب يتواكلون وليسوا مُتوكلين، لأنهم نقلوا عملَ القلب إلى الجوارح، ولو كان ذلك صحيحاً فلماذا لا يتركون الطعام لا يمدون إليه أيديهم مثلاً لينتقل هو إلى أفواههم ومَنْع جوارحهم من العمل.

وقوله تعالى فى صفة المؤمنين كما جاء فى سورة الأنفال: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ [الأنفال] يعنى: أنهم يُؤمنون بأن الأسباب من خلق الله، وحين يأخذ المؤمنُ بالأسباب فهو يؤمن أنه لاجيءٌ إلى الله ومُعتمدٌ عليه، ولكن إنْ عزَّتْ عليه الأسباب يلجأ لربه، لذلك كان قوله ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ [الأنفال]

تعذيب الكافرين فى بدر
قضية عامة إلى يوم القيامة

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٣ ﴾ [الأنفال]

الأمر بقتال الكافرين فى غزوة بدر، والتوعّد بعقابهم الشديد يوم القيامة الوارد فى قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾

[الأنفال]. هل ذلك خاص بالكافرين الذين حاربوا المسلمين في بدر، أم هو عام في الكافرين جميعاً؟

إن النصر الذى حققه الله للنبيِّ وللمؤمنين معه فى بدر على المشركين، كان لأنهم شاقُّوا الله ورسوله. و ﴿ شَآقُّوا ﴾ من الشق، ومعناه قسمة الشيء الواحد إلى اثنين، يعني حدوث شق فيه يقسمه.

فالمفروض فى الإنسان أنْ يستقبلَ منهج الله الذى نظَّم له حركته فى هذا الكون، ولم يكُنْ هناك دَاعٍ لتبديد الطاقة بالانشقاق إلى جماعتين، إحداهما مع الرسول ﷺ والأخرى مع الكفر والشرك، لأن الطاقة التى كانت مُعدّة لإصلاح أمر الإنسان فى الكون لخلافة الله فى الأرض إنما يتبدد جزءٌ منها فى الحروب بين الحق والباطل.

لو توقفتْ هذه الحروب لصارت الطاقة الإنسانية كلها مُوجهة للإصلاح والارتقاء والنهوض وتحقيق الخير لبنى الإنسان، لكنهم شاقُّوا الله ورسوله، فجعلوا أنفسهم فى جانب يواجه جانبَ المؤمنين بالله والرسول، لذلك استحقوا عذاب الله وعقابه، وبسبب أنهم شاقُّوا الله ورسوله عليهم أنْ يتحمَّلوا العقاب الشديد من الله.

هذه العملية ليستْ خاصة بالكافرين الذين حاربوا الرسول فى بدر وانتصر عليهم، وإنما هى قضية عامة، وسنة من سُنن الله فى كونه تشمل كلَّ مَنْ يُشاقق الله ورسوله من بَدْء الرسالة وإلى قيام الساعة.

وليحذر الذين يخالفون عن أمر الله.

قراءةُ القرآن.. وفَهْمه

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[الأنفال]

دعا القرآنُ الناسَ إلى تدبُّر كلماته والتفكُّر فى معانيه، والتأمّل فيما يعرض من منهج لحياة الناس، وحذر من أخذ الأمور على علاَّتها، لأن الأخذَ بفَهْم يكون أوثقَ من الأخذ دون فَهْم حيث تسهل العودة فيه أو التأثير على الأخذ.

وليس كلُّ سامع للقرآن بفاهم أو مُتدبّر، وليس كلُّ قاريء بعاقل لما يقرأ، لذلك يقول الحق سبحانه في القرآن: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنفال]

والذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون هم الذين أخذوا السمع بقانون الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمعوا ولم يلتفتوا، لأن المرادَ بالسمع هو أن يؤدى السامعُ مطلوبَ ما سمع، فإنْ لم يُؤدِّ مطلوبَ ما سمع كأنه لم يسمع، بل يكون شراً ممَّنْ لم يسمع، لأن الذى لم يسمع لم تبلغه دعوةٌ.

أما منْ سمع فقد بلغتْه الدعوةُ ولم يستجبْ ولم يُنفِّذ مطلوبها، لأن منْ لم تبلغه الدعوةُ لا لَوْمَ عليه ولا حساب، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

والمجتمعات النائية البعيدة عن الالتقاء بالإسلام وبمنهجه لن يُحَاسبوا حساب مَنْ بلغتْه الدعوةُ، أما مَنْ بلغتْه الدعوةُ وأهمل فى معرفة المنهج

أو تولَّى وأعرض فإن أمره مختلفٌ، كذلك منْ بلغتْه الدعوةُ وآمن بها لكن لم يُنفِّذ منهجها.

يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنفال] وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ ﴾ ولم يقلْ: ولا تولوا عنهما. لأن الرسولَ مُبلِّغٌ عن الله، فلا تقسيمَ بين الطاعتين لأن طاعةَ الرسول هى طاعةُ لله.

ومع ذلك يأتى مَنْ يقول لا نأخذ بما قال به الرسول ونأخذ بما فى كتاب الله فقط، فهذا إما جاهلٌ لم يفهم الأسلوب القرآنى، وإما عدو لدين الله يريد بالإسلام والمسلمين شراً، لأنه لو نجح فى دَعْواه واقتصر المسلمون على القرآن لَضاعَ جانبٌ مُهم من تعاليم الإسلام، لأن السنة النبوية مُفسِّرة ومُكمِّلة لمَا جاء بكتاب الله.

يسمعون ولا يسمعون

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[الأنفال]

فرْقٌ كبير بين أنْ يستمع الإنسان إلى ما يدور حوله من أحداث لمجرد أنها تصل إلى أذنه وبين أن يستمع ما يدور ويدرك مدلولاته معتبراً بمعانيه، فالأول ينتهى ما سمعه بمجرد توقُّف الأصوات التى تصل به إلى أذنه.

لقد تحدَّث القرآن عمَّنْ يسمع ولا يستمع، وهو من أخذَ الأحداث الجارية على ظواهر الحركة فسمع ولم يلتفتْ، لأن المراد بالسماع ليس مجرد السماع فقط، بل أنْ يؤدى السامع مطلوبَ ما سمع، فإنْ لم يُؤد مطلوبَ ما سمع فكأنه لم يسمع شيئاً، بل هو شر ممَّنْ لم يسمع، لأن الذى لم يسمع لم تبلغه الدعوة.

أما مَنْ سمع فقد بلغتْه الدعوة ولكنه لم يستجب ولم ينفذ مطلوبها، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأنفال]

ويرى بعض العلماء أن السمع المراد هو القبول، مثلما يقول الإنسان: اللهم اسمع دعاء فلان، وهو يعلم أن الله سميعُ الدعاء، وإنْ لم يَقُل هو ذلك إذن: فالمعنى هنا اللهم اقبلْه فيكون المراد بالسمع القبول.

لذلك يُردف المولى سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال]

والدابة تعنى كل ما يدبّ على الأرض، والآية تشير هنا إلى الكفار، لأنهم افتقدوا وسيلةَ الهداية وهى السماع بإدراك وقبول فأصبحوا بُكْماً لا يعقلون، وبالتالى فَهُم أقل درجة من الحيوانات التى تتباين درجات إدراكها.

المسئوليةُ عن الآخرين

﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنفال]

لا يظن ظانّ أنه مسئولُ عن صلاح نفسه فقط دون أنْ يلتفت إلى الآخرين، سواء أحسنوا أو أساءوا لأن الإسلام لا يؤمن بمبدأ: (أنا ومن بعدى الطوفان) فهو مبدأ أنانى يدمر ولا يصلح، فكيف يعيش الإنسان وحده إذا ترك الطوفان يقتلع كل شيء.

فلا يعتقد المسلم أنه غيرُ مسئول عن الفساد الذى يستشرى فى المجتمع، بل عليه أن يسعى إلى إصلاح الآخرين بالمنهج الإسلامى القويم، وهو ما نلمسه فى قوله ﷺ: ((ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب)). فقيل له: ((أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كَثُر الخبث)).

فالصالحون مسئولون لا شكَّ عن كثرة الخبث، إما بالتهاون فى دفعه والاكتفاء بأنفسهم وعدم الجهد فى النُّصح الذى فى أدناه غضب الوجه إذا اقتُرفتْ معصيةٌ فى وجودهم.

ولقد حذَّر اللهُ من آثار هذه السلبية فى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ ﴾

[الأنفال]

ولقد وضع الإسلام هذه الحقيقة فى تشريعاته بأن جعل (العائلة) وهم الأهل مسئولون عن جرائم بعضهم، فحمّلهم الديات فى القتل.

أى: أن القاتلَ الذى لا يستطيع أن يدفع دية جريمة قتله لأهل القتيل، فإن أهلَ القاتل مسئولون ضمناً عن جريمتهم، لأنهم قد رأوْه يمارس فساده ابتداءً، فلم يُردعه أحدٌ منهم، ولو أخذوا على يده من البداية لَما جاءهم الغُرْم بدفع الدّية.

ومن هنا تكون فلسفة الإسلام فى وَضْع وسائل للرقابة متعددة، سواءُ من الحاكم وولىّ الأمر أو من الضمير من خلال مراقبة الله والشعور بمعيته فى أية لحظة، وكذلك مراقبة المجتمع الذى يشعر أفراده بمسئوليتهم عن أخطاء الآخرين حسب درجة الصّلة التى تتسع إلى الأخوة الإنسانية.

العُدَّة للنصر

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]

من التكليفات والأوامر التى أمر بها الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين: إعداد أعلى ما يستطيعون من قوة للدفاع بها عن دين الله،

ولأن الإنسانَ محدودٌ بطاقةٍ فقد كان الأمرُ بقدر الاستطاعة، لأن وراءَ قدرة المؤمنين قدرةَ الله سبحانه.

فالإنسان يُعدّ قَدْرَ ما يستطيع، ثم يطلب من الله أنْ يُعينه، فإذا فعل ذلك فلا بدَّ أن يثقَ في النصر، ولا يجوز له أنْ يظنَ أن ما قدَّمه لن يُوصله إلى مواجهة ما يملكه خَصْمُه من مُعدات، لأن خَصْمه لا مددَ له من السماء، أما هو فإن مددَ السماء يُعينه على ما هو فيه، خاصةً بعد أنْ قدَّم كل ما يستطيع ومُستعيناً بالله.

ومن هنا يأتي معنى قوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [آل عمران]

والقوة تتنوَّع وتتعدَّد، فقد تكون قوةً ذاتية في الناس بحيث يكون الإنسانُ من الشجاعة فلا يخاف شيئاً، وقد تكون قوةَ سلاح بأنْ يكون السلاحُ مُتطوراً بعيدَ المدى.

وقد كان الرَّمْي قديماً بالسهام، فأول ما تبدأ الحرب يضربون العدو بالنِّبال كان ذلك بالسيوف، وكانت أحسنُ قوة في الحرب هي السهامُ لأنها تنال الخَصْم وهو بعيد دون أنْ يستطيعَ أنْ ينال الخَصم الرامي أو يقترب منه.

لذا فإن رسول الله ﷺ عندما نزل قول الله تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]

قال: ((ألا إن القوةَ الرمى. ألا إن القوةَ الرمى. ألا إن القوةَ الرمى)).

وما زال الرَّمىُ فى العصر الحديث هو القوة، وبقدر ما يتمكن صاحبه بقدر ما ينتصر، فالطائرات ترمى والصواريخ ترمى، والمدافع ترمى، فإذا أعدَّ المؤمنُ ما استطاع واجتهد قَدر طاقته، ولو كانت أقل من طاقة عدوه تحقَّق له النصر كما وعده ربُّه.

الفتنة.. والأجر العظيم

﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال]

الفتنة فى حقيقتها اختبار يختبر اللهُ سبحانه وتعالى بها الإنسان، ونتيجتها هى التى تحدد إنْ كانت فتنة ممدوحة أو مذمومة، فإذا نجح الإنسانُ فى الاختبار كانت الفتنةُ خيراً له وبركة، وإذا فشل كانت شراً عليه وخُسْراناً.

تناول الحق سبحانه وتعالى هذا المعنى فى سورة الأنفال، عندما قال تبارك تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال]

بعد قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال] وذلك لمَا للآية من ارتباط بالثانية، لأن خيانةَ الله وخيانةَ الرسول وخيانةَ الأمانات، إنما يكون لتحقيق شهوة أو نَفْع فى النفس.

وقد جاء اللهُ فى الآية بأمرين هما: المال والأولاد. والمتبعون لأسرار الأداء القرآنى يعرفون أن لكل حرف حكمه، ولذلك قدَّمت الآيةُ المالَ على الأولاد لأن لكل واحد مالاً، ولو لم يكُنْ له إلا مليم.

وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد، ثم إن الأبناء ينشأون من الزواج، والزواج يحتاج إلى المال، لذلك كان من المنطق أنْ يأتى اللهُ بالأموال أولاً، ثم يأتى بذكر الأولاد.

وفى الآية تحذيرٌ من الله سبحانه وتعالى من أن يفشل الإنسان فى الاختيار الذى يوضع فيه، فمَنْ جمع المال من حرام لترف أبنائه فهو خائنٌ للأمانة، وهذا له عقاب، لذلك يُذكِّرنا اللهُ تبارك وتعالى فى آخر هذه الآية بما يُحبِّب إلينا النجاح فى الاختيار، فيقول سبحانه:

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال]

معادلات.. فى الكون

الكون لونٌ من المعادلات التى تستقيم ما لم يدخل عليها ما يغيرها، وكذلك حياة الإنسان فى الكون وعلاقاته بالأشياء فيه تظل منسجمة ومُتسقة كما أرادها الله له من لّدُن آدم حتى يتغير

الإنسان ويطـــرأ عليـــه التحـــوُّل مـــن الاســـتقامة، فتتغيَّـــر بالتـــالى استجابات بقية كائنات ومخلوقات الكون له.

وقد عبَّر عن ذلك القـــرآن فـــى قولـــه تعـــالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنفال]

المُتأمل لبداية البشرية يجد أن الله تعالى خلق آدم ليجعله خليفة فى الأرض، وخلق معه حواء لإبقاء النوع الإنسانى، وقبل أنْ ينزل آدم على الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى المنهج وسارتْ الذرية على المنهج حتى تغيَّرتْ وجحدتْ النعمة، وأنكرت أن للنعمة خالقاً.

فأصبح منطق الأشياء هو أن يُغيِّـــر الله نعمـــه علـــيهم، وإلا لَمَـــا أصبح هناك أيّ منطق للاستقامة، فالإنســـان قـــد طـــرأ علـــى الـــنِّعَم لأن الله خلق النِّعمَ أولاً، ثـــم خلـــق الإنســـان فـــى كـــوْن فيـــه كـــلّ مُقوِّمات الحياة واستمرارها.

وظل الإنسان فترة طويلة فى طفولة الحيـــاة يرتـــع فـــى نعَـــم الله حتى تغيَّر، وتحوَّل عن منهج الله، وتحوَّل إلى الكفـــر بنعمـــه فجـــزاه اللهُ بقدْر ما تغيَّر: بالطوفـــان تـــارة، وبالصـــواعق تـــارة، وبـــالهلاك تارة، والاستعباد من قبَل الآخرين تارة، وبـــالجوع تـــارة، وبـــالخوف تارة، وبغيرها من شتى أنواع التحـــولات والجـــزاءات التـــى تناســـب مقدار ما تحوَّل الإنسان عن منهج الله.

والذين عادوا إلى منهج الله فى بعض مراحل التاريخ أعاد اللهُ لهم النعم من أمن واستقرار وحياة طيبة، وهو ما يلفتنا إليه الله فى قوله

سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

[الأعراف]

ومن هنا كان الأجدر بالإنسان الذى يشكو العنت والضيق فى الدنيا أن يلتفتَ إلى نفسه يفتش فى عيوبها، ويلتفت إلى عمله وقوله ليرى ما فيهما من انحرافات دفعته إلى تلك الحالة من العنت والضيق فيُغيِّر من نفسه، وعمله حتى يُغيِّر الله عليه حاله إلى ما يحب ويرضى.

أُخوَّة الدين

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال]

أخوة الدين حين تتألف القلوب، فهذا أقوى رباط، لأن كلّ عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة فى القلب، إن القلب هو مصدرُ النية التى يتبعها السلوك، فالذى يُحرِّك إنساناً موتورا ويثير جوارحه ضد آخر، إنما هو القلب.

فإنْ وجد إنسانٌ إنساناً يعبس فى وجه صاحبه فاعلم أن فى قلبه شيئاً وكذلك إذا حاول ضَرْبه أو قَتله. يكون فى قلبه شعور أعمق بالبغض والكراهية.

إذن: فالينبوع لكلِّ المشاعر هو القلب، ولذلك نرى الإنسان يُضحِّي بكل شيء، وربما يُضحِّي بحريته وبماله في سبيل ما يؤمن ويستقر في قلبه.

ونحن نرى العلماء في معاملهم يعيشون سنوات طويلة ويحرمون أنفسهم من مَتَع الحياة الدنيا، لأن العلم قد تحوّل إلى عقيدة في قلوبهم، سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، فكأنما نيَّةَ القلب وما يستقر في النفس هو أقوى ما في الحياة.

ثم يُبيِّن الله تعالى لنا أن هذا فضلٌ عظيم منه أنْ ألَّفَ بين قلوب المؤمنين فيقول ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) ﴾ [الأنفال]

درس التآلف والوحدة
في الهجرة من مكة للمدينة

من خيرات الهجرة النبوية الشريفة من مكة إلى المدينة أنها رسمتْ منهج التآلف والوحدة بين المسلمين، حتى يكونوا مجتمعاً متماسكاً قوياً، يرتفع فيه الإيمانُ على المال والنسَب والعصبية.

وأن هذا المنهج من توفيق الله وصُنْعه وليس من صُنْع بشر، حتى ولو كان نبياً.. ذلك لأن الله سبحانه وتعالى وجد في المؤمنين استعداداً لقبول منهجه فأعطاهم مشاعرَ الوحدة والقوة فيما بينهم، والدليل من هذه النقلة الكبيرة للأوس والخزرج في المدينة المنورة.

ونقرأ فى ذلك قول الله تعالى فى سورة الأنفال:

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال]

والتأييد هنا عناصره ثلاثة: الله يُؤيد بنصره، والله يُؤيد بالمؤمنين، والله يُؤلف بين قلوب المؤمنين. والتأليف بين القلوب جاء لأن رسول الله ﷺ أُرسل لقوم لهم عصبية وحميَّة، وهم قبائل مُتفرقة تقوم الحروب بينهم لأتفه الأسباب، لأن عناصر التنافر موجودة بينهم أكثر من عناصر الائتلاف

إن القبيلةَ مجتمعةً تهبُّ للدفاع عن أىِّ فرد فيها مهما كانت الأسباب والظروف، حتى إنه ليكفى أنْ يسبَّ واحدٌ من الأوس واحداً مثلاً من الخزرج لتقوم الحروبُ بين القبيلتين، ولو أن القلوبَ ظلت على تنافرها لَمَا استطاعت هذه القبائل أنْ نُواجه أعداء الإسلام، ولَشغلتْها حرُوبها الداخلية عن نُصرة الدين والدفاع عنه ومواجهة الكفار.

ولكن اللهَ ألَّفَ بينهم، فبعد أنْ كانوا أعداءً أصبحوا أحباباً، وبعد أنْ كانوا متنافرين أصبحوا مُتوادِّين.. وهكذا ألَّفَ بين قلوب المسلمين بحيث أصبح الإسلام فى قلوبهم وأعمالهم وأسلوب حياتهم، فأصبح الإسلام هو أقوى رابطة تربط بينهم، فأصبحت أُخوَّة الدين أقوى من أُخوَّة النسب.

مجالات القوة لدى المؤمنين

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]

هنالك مجالاتٌ كثيرة يعينها إعداد المؤمنين لقوَّتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإنما لا تعنى فقط كثرةَ السلاح والذخيرة، وإنما أبعادها تتجاوز ذلك إلى آفاق أخرى فى تحقيق نصر الله.

هناك تكليفٌ من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين الذين يجاهدون لإعلاء كلمته بضرورة أنْ يُعدوا دائماً قدر إمكانهم ما استطاعوا من قوة.

وإذا كان الإنسان مُحدداً بطاقته وقدرته، فإن الله عز وجل يكون بقدرته وراء المؤمنين، ولذلك عليهم أنْ يُعدوا ما يقدرون عليه من قوة لتخويف أعدائهم، ثم يطلبون من الله سبحانه وتعالى أن يعينهم.

وعليهم أنْ يحذروا القول أن استطاعتهم لن تُوصِّلهم إلى مواجهة ما يملكه العدو من معدات وأسلحة، لأن هذا العدو ليس له مددٌ من الله، أما المؤمنون فلهم هذا المَدد، وبذلك تكون قوتهم بمدد الله تجعلهم الأقوى مهما كان العدو.

ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ.. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال]

وليعلم المؤمنون بأن اللهَ عز وجل كما قال فى كتابه ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [آل عمران] فإنه سبحانه بذلك سيجعل هؤلاء الأعداء مرعوبين، وسيتمكَّن المؤمنون منهم وينتصرون عليهم بالقوة التى استطاعوا أنْ يُعدوها.

فقد تكون هذه القوةُ ذاتيةً فى النفس بحيث لا تخاف شيئاً، فجسم كل قاتل بالإضافة إلى قوة الأسلحة التى يجب أنْ تكونَ متطورة فى يد المؤمنين، وأنْ يحرصوا على امتلاك كل شيء موصول بالقوة.

ونجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول: ((ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى)). لأن الإنسان بالرمى يتمكن من عدوه، ولا يتمكَّن العدو منه، وبذلك يكون المسلم دائماً في وضع المنتصر على عدوه بإذن الله تعالى.

التأليفُ بينَ القلوب

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال]

والتأليف بين القلوب هو جمَاع القواد والمساندة، والرسول ﷺ يقول فى الحديث الذى يرويه عنه النعمانُ بن بشير رضى الله عنهما: ((ألا وإنَّ فى الجسد مُضغةً، إذا صَلُحتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه)).

والحديث بتمامه: ((إن الحلالَ بيِّنٌ، وإن الحرامَ بيِّنٌ، وبينهما مُشتَبِهاتٌ لا يعلمهُنَّ كثيرٌ من الناس، فمَن اتَّقى الشُّبهات استبرأ لدينه وعرْضه، ومَنْ وقع فى الشُّبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول

الحمى يُوشك أنْ يرتعَ فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملك حمى، ألاَ وإنَّ حمى الله محارمه، ألاَ وإنَّ فى الجسد مُضغةً إذا صلُحتْ صَلُحَ الجسد كله، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ، ألا وهي القلب))٠

ولم تَكُنْ المسألةُ فى تأليف القلوب مسألةَ احتياج إلى مال، لأن المالَ لا يمكن أنْ يعطىَ الحبَّ الحقيقى، ولذلك فهناك بين الناس ارتباطُ مصالح وارتباطُ قلوب، وارتباطُ المصالح ينتهى بمجرد أنْ تهتزَّ أو تنتهى هذه المصالح٠

لكنَّ ارتباطَ القلوب يتحدَّى كلَّ الأزمان، وأنت لا تستطيع أن تجعل إنساناً يُحبك حقيقة مهما أعطيته من مال، لأن الحبَّ الحقيقى لا يُشترَى ولا يُباع، إنما يُشترى النفاق والتظاهر وغير ذلك من المشاعر السطحية٠

والعرب الذين ألَّفَ الله بين قلوبهم لم يكُنْ يهمهم المال بقدر ما تهمهم الحميَّة والعصبية التى تجعل فى القلوب غلاًّ وحسداً وحقداً، لذلك تنفعل جوارحهم ولكن الله يحميها من هذا الانفعال، حيث يقول تبارك وتعالى:

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال]

التنافر··· والتأييد

التأليف بين القلوب هو جماعُ المودة بين الأشخاص والمساندة، لأن التوادّ قد يحدثُ بسبب مصالح مشتركة إلا أنه ينتهى بانتهاء المصالح، أما إذا حدث بسبب ألفة بين قلبين فإنه

يكون دائماً وأقوى وأمتن، لأن أُلفةَ القلوب لا يملكها إلا اللهُ سبحانه وتعالى الذى يُقلّب القلوبَ كيف يشاء.

تأييد الله سبحانه وتعالى لرسله وأوليائه إنما يكون بعناصر ثلاثة، وهى: النصر، وكثرة المؤمنين به، والتأليف بينِ قلوبهم.

وطبيعة الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ، وخاصة فى المدينة كانت طبيعةً متنافرة، لذا كانت أقوى عناصر التأييد التى منحها الله سبحانه وتعالى لرسوله هى تأليف القلوب المتنافرة التى كانت تقوم بينها الحروب لمجرد أن يتشاتم واحد من الأوس مثلاً مع آخر من الخزرج.

لذا جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [الأنفال]

وهكذا ألَّفَ اللهُ بين قلوب المسلمين بحيث أصبح الإسلام فى قلوبهم وأعمالهم وأسلوب حياتهم هو أقوى رابطة تربط بينهم، فأصبحتْ أُخوَّة الدين أقوى من أُخوَّة النسب، ذلك لأن القلبَ هو مصدرُ النية التى يتبعها السلوك.

فنحن نرى الإنسان يُضحى بكل شيء وربما بحريته وماله فى سبيل ما آمن به واستقرّ فى قلبه، فنرى العلماءَ فى معاملهم يعيشون سنوات طويلة ويحرمون أنفسهم من مُتَع الحياة الدنيا، لأن العلمَ قد تحوّل إلى عقيدة فى قلوبهم سواء كانوا مسلمين أو غير ذلك.

لذلك كان حديث رسول الله ﷺ الذى ينتهى بقوله: ((ألا إن فى الجسد مضغة إذا صَلُحتْ صَلُح الجسدُ كله، وإذا فسدتْ فسد الجسدُ كلّه، ألا وهى القلب)).

ليسَ بالمال تتآلفُ القلوب

تآليف القلوب لا يحتاج إلى مال، لأن المال لا يمكن أنْ يعطىَ الحبَّ الحقيقى، لذلك فهناك بين الناس ارتباطُ مصالح وارتباطُ قلوب وارتباطُ المصالح لا ينتهى بمجرد أنْ تهتزَّ المصالح أو تنتهى، ولكن ارتباط القلوب يتحدى كلَّ الأزمان.

والإنسان لا يستطيع أنْ يجعل إنساناً آخر يحبه حباً حقيقاً مهما أعطاه من مال، لأن الحب الحقيقى لا يُشترى ولا يُباع، وإنما يشترى النفاق والتظاهر وغير ذلك من المشاعر السطحية.

من هنا يجيء قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأنفال]

ذلك لأن العرب الذين آمنوا برسول الله رغم ما بينهم من عداوات وثارات لم يكُنْ يُهمهم المال بقدر ما تُهمهم الحمية والعصبية التى تجعل فى القلوب غلا وحسداً.

والله سبحانه وتعالى وحده القادر على أنْ يجعل القلوب تتآلف، لأن القلوب فى يد الرحمن يُقلبها كما يشاء، لذلك فإن دعاء الرسول ﷺ هو: ((يا مُقلّبَ القلوب ثبّت قلبى على دينك)).

تأليف القلوب على الإسلام يجعل العقيدة هى الأقوى لدى المرْء، بحيث تصبح فى قلبه وأسلوب حياته، وهى الرابطة الأقوى أيضا بين الإنسان وإخوته فى الدين والتى تتفوق على رابطة النسب.

ذلك لأن القلب هو مصدر النية التى يتبعها السلوك، فالذى يُحرِّك إنساناً مَوْتُوراً على آخر، ويثير جوارحه ضده إنما هو القلب، لأنه نيبوع المشاعر فقد يُضحى المرءُ بحريته وبماله فى سبيل ما استقرَّ فى قلبه من مشاعر.

لولا ذلك ما وجدنا العلماء فى معاملهم يقضون السنوات عاكفين على أبحاثهم محرومين من مُتَع الدنيا جَرْياً وراء اكتشاف جزئية صغيرة من جزئيات الحياة، أو التوصل إلى نتيجة معينة فى موضوع لا يشغل الكثيرين دقائق معدودة، وما كُنا نجد آخرين تركوا أموراً يسعى الناسُ للحصول عليها سنوات، واهتموا بما يتصوَّره الناسُ مما لا يحتاج إلى اهتمام.

الرباط العلمى للناشئة

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ

لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [الأنفال]

الرباط فى الجهاد هو أنْ يُشعر المسلمُ عدوه بأنه مستعدٌّ دائما للقائه بكل ألوان القوة، وذلك هو ما يُستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [الأنفال]

والإعداد يكون قبل المواجهة، فإذا تمَّتْ هذه المواجهة سواء بمقدمات لها أو فجأة ينطلق المسلم لمواجهتها، كما أن للإعداد والرباط فائدة أخرى وهي إشعار العدو بالاستعداد، لأن علمَ العدو بذلك يُخيفه ويُرهبه فلا تُسوِّل له نفسه الانقضاض، فلا يقع العدوان.

والرباط ليس بالعُدَّة والسلاح فقط، بل بكل ما يردُّ عن الحق صيحة الباطل، وبالتالى فإعداد الناشئة إعداداً إسلامياً جيداً من الرباط، لأن الغزو لا يكون بالجيوش فقط، فقد يكون بالفكر الذى يتسرب إلى النفوس من حيث لاتشعر، فإذا جاءت قضيةٌ من قضايا الإلحاد التى قد تفد على المؤمنين يكون عند كلِّ واحد منهم الحصانة ضدها، والقدرة على مواجهتها.

لذلك ففى فترات الغفلة والتراخى وترك المرابطة يلجأ المسلمون إلى اتباع الغرب فى مناهجه العلمية حتى فى الأمور الخاصة بنا، فيدرس التاريخ على طريقته مثلاً، ويُفلسف الأمور كما يفلسفها، ولهذا فإن

الدعوة القائلة بأن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان تَلقى رواجا عند المسلمين·

أما لو كان هناك رباط فكرى لانتبه المسلمُ إلى أن حقوق الإنسان جاءت مع مجيء القرآن، وأُعلنتْ منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، والثورة الفرنسية حادثة قريبة، بل وجاءتْ الحقوق التى أعلنتها ناقصة كثيرا عما جاء به النبى ﷺ·

وإذا ما قيل إن الطبيعة هى التى تمدُّ الحيوان بلونه الذى يناسب البيئة التى يعيش فيها حتى يتقى بها عدوه تجد لها رواجاً، لو كان هناك الرباط الإسلامى للناشئة لرفضوا وقالوا: إن الله هو الذى يمدّ الكائنات بما يُيسِّر لها قيامها بمسئوليتها فى الحياة، فلا تتسرب للناشئة الأفكار التى توحى بأن الكون بلا خالق وجاء صدفة، أو غيرها من الأمور·


سورة التوبة

سورة التوبة

تَرْكُ الحَرَامِ.. يَأتِى بِالحَلالِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

لا يكفى الإنسان أنْ يعملَ فقط لكى يُحقِّقَ إرادة الله فى الكون، وإنما يجب أن ينظرَ إلى ما يعمل، فلا يكون فى الباطل لأن الذى يسرق يعمل، ولكن عمله فى غير شرف، وكذلك الغضب، والتدليس والغشّ، وعدم الأمانة فى العمل، والخيانة فى الوديعة، وإنكار الأمانة.

وكلُّ ذلك باطل، وكلُّ حركة فى غير ما شرع الله باطلةٌ، حتى المعونة على حركةٍ فى غيرِ ما شرع الله، كلُّ ذلك باطل.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ.. ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة]

فَالذين يشتغلون بعمل لا يُقره الله فهم يأكلون أموالهم بالباطل، ويُدخلون فى بطون أولادهم الأبرياء مالاً باطلاً، وعلى الذين يأكلون من مثل هذه الأشياء أن ينتبهوا جيداً إلى أن الذى يعولهم إنما أدخل عليهم أشياء من هذا الحرام بالباطل.

وعلى أبناء الذين يعولهم الذى يكسب من الباطل أنْ يُنبِّهوه إلى ذلك، فإن رفض الأبناء لعمل أبيهم إذا كان عملاً حراماً يكون قاسياً على الأب، ويجعله يُفكِّر جدِّياً فى تَرْكه.

وقد عالج اللهُ سبحانه وتعالى خوفَ البعض من تَرْك عملهم الحرام فلا يجدوا عملاً يعملونه، فحينما أراد اللهُ أنْ يُحرِّم بيت الله الحرام في مكة على المشركين، وكان هناك أُناس يعيشون على ما يأتي به المشركون في موسم الحج.

وكان أهلُ مكة يبيعون في هذا الموسم الاقتصادي كل شيء للمشركين الذين يأتون للبيت، وحين يُحرِّم الله على المشرك أنْ يذهب إلى البيت الحرام فماذا يكون موقف هؤلاء؟!

إن أولَ ما يخطر على البال هو الظن القائل: من أين يعيشون؟ ولنتأمل القضية التي يريد اللهُ أنْ ترسخ في نفس كل مؤمن في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

إذن.. فإن نموذجَ تحريم البيت الحرام على المشركين يمكن أنْ يُتخذ قدوة في الامتناع عن العمل الحرام، فلا يخشى الجوع أو التشرد، لأن الله يُغني مَنْ يشاء من فضله.

رَحْمَةُ اللهِ فِي التَّوْبَةِ

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

[التوبة]

التوبةُ لها مراحل، فهناك توبةٌ شرعها الله، ومجرد مشروعية التوبة من اللهِ رحمةٌ بالخَلْق، وهي أيضاً رحمةٌ بالمُذنب ؛ لأن الحقَّ سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستَشرَى الإنسانُ في المعاصي بمجرد انحرافه مرة واحدة.

وإذا استشرى في المعاصي، فالمجتمعُ كلُّه يَشْقَى عليه الذنب، فمشروعيةُ التوبةِ نفسها رحمةٌ بمَنْ عملَ الذنب، وأنت إذا سمعتَ قوله الحق سبحانه: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ .. ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

فافهم أن تشريعَ التوبة إنما جاء ليتوبَ العبادُ فعلاً، وبعد أنْ يتوبوا يقبل اللهُ التوبةَ.

والحق هنا يقول: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ.. ﴿١١٧﴾ ﴾ وعطف على النبي ﷺ ﴿ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ.. ﴿١١٧﴾ ﴾ فأيُّ شيءٍ فعله رسولُ الله ﷺ حتَّى يقول الله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ.. ﴿١١٧﴾ ﴾؟!

ونقول: ألم يَقُلْ الحقُّ سبحانه له: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [التوبة]

فحين جاء بعض المنافقين استأذنوا النبي ﷺ في التخلُّف عن الغزوة، فأذن لهم، مع أن الله سبحانه قال: ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ.. ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة]

إذن: فرسول الله ﷺ كان بالفطرة السليمة قد اتخذ القرار الصائب، ولكن الحقَّ سبحانه لا يريد أنْ يتبعوا فطرتهم فقط، بل أراد أنْ يضع تشريعاً مُحدَّداً.

وشاء الحقُّ سبحانه أنْ يخبرنا بأنه قدَّم العفو لرسول الله ﷺ، لأنه أذن لمَنْ استأذنه من المنافقين ألاَّ يخرجوا إلى القتال، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده ؛ لأن العبد قام به ضد صالح نفسه.

ومثال هذا من حياتنا، ولله المثل الأعلى: أنت إذا رأيتَ ولدك يذاكر عشرين ساعة في اليوم، فإنك تدخل عليه حجرته لتأخذ منه الكتاب أو تُطفيء مصباح الحجرة، وتقول له: (قُمْ لتنام).

وأنت في هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه، لا لأنه خالف منهجاً، بل لأنه أوغلَ في منهجٍ وأسلوب عملٍ يُرهق به نفسه.

وحين سمح النبيُّ ﷺ لقوم أنْ يتخلَّفوا، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب، أم مع مصلحة الحرب؟ إنهم لو اشتركوا في الحرب لَكثُرَ ثوابهم، حتى ولو حرسوا الأمتعة أو قاموا بأيِّ عمل. إذن: فإذنه ﷺ لهم بالتخلُّف هو تصعيبٌ للأمر على نفسه.

ولذلك نجد أن كلَّ عَتَبٍ على نبي الله، إنما كان عَتباً لصالحه لا عليه، فسبحانه يقول له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ ﴾ [التحريم]

والنبي ﷺ لم يُحل ما حرَّم اللهُ، بل حرَّم على نفسه ما أحلَّ اللهُ له، وهذا ضد مصلحته، وكأن الحق يُسائله: لماذا تُرهق نفسك؟. إذن: فهذا عَتَبٌ لمصلحة النبي ﷺ.

وأيضاً حين جاء ابن أم مكتوم الأعمى يسأل رسولَ الله في أمر من أمور الدين، وكان ذلك في حضور صناديد قريش، فالتفت ﷺ إلى الصناديد وهم كافرون، يريد أنْ يُلينَ قلوبهم، وترك ابن أم مكتوم، فنزل القول الحق:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝ ﴾ [عبس]

وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيماني، ولن يجادل مثلما يجادل صناديد قريش، فلماذا يختار الرسولُ ﷺ الأمرَ الصعب الذي يحتاج إلى جهد أكبر ليفعله؟

إذن: العَتَب هنا لصالح محمد ﷺ، وحين يقول الحق له: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ.. ۝ ﴾ [التوبة]

ثم جاء ها في الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله، وذلك حتى لا يتحرَّج واحدٌ من المهاجرين أو الأنصار من أن اللهَ تاب عليه، بل التوبةُ تشمله وتشمل الرسولَ ﷺ نفسه، فلا تحرُّجَ.

وهذه المسائل التي حدثتْ كان لها مبررات، فقد قال الحق: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ.. ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة]

ويزيغ: يميل. أي: يترك ميدانَ المعركة كله ؛ لأنها كانت معركة في ساعة العسرة، ومعنى العسرة: الضيق الشديد، فالمسافة طويلة، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم، والجو حارٌّ.

وليس عندهم رواحل كافية، فكل عشرة كان معهم بعير واحد، يركبه واحدٌ منهم ساعةً، ثم ينزل ليركبه الثاني، ثم الثالث، وهكذا، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذي تقالد فيه الدود.

وقد بلغ من العسرة أن الواحدَ منهم كان يُمسك التمرةَ فيمصُّها بفِيهِ يستحلبها قليلاً، ثم يُخرجها من فِيهِ ليعطيها إلى غيره ليستحلبها قليلاً، وهكذا إلى أنْ تصيرَ على النواة، وكان الشعير قد أصابه السُّوسْ، وبلغ منه السُّوسُ أنْ تعفَّن.

وقال مَنْ شهد المعركة: (حتى إن الواحد منَّا كان إذا أخذ حفْنةً من شعير ليأكلها يُمسك أنفه حتى لا يتأذَّى من رائحة الشعير)). كلُّ هذه الصِّعاب جعلتْ من بعض الصحابة مَنْ يرغب في العودة، ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة.

إذن: فالتوبة كانت عن اقتراب زيْغ قلوب فريق منهم. وجاء الحق بتقدير ظرف العُسْرة، ولذلك تنبأ بالخواطر التي كانت في نواياهم.

ومنهم أيضاً مَنْ همّ ألاَّ يذهب، ثم حدَّثتْه نفسه بأنه يذهب مثل أبي خيثمة الذي بقي من بعد أن رحل رسول الله ﷺ إلى الغزوة ومرَّتْ عشرة أيام، ودخل الرجل بستانه فوجد العريشين، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء، وقد طَهَتْ كلٌّ منهما طعاماً.

وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة، والثمر المُدلَّى، فمسّته نفحةٌ من صفاء النفس، فقال: رسول الله في الفيح – أي الحرارة الشديدة جدّاً – والريح، والقُرّ والبرد، وأنا هنا في ظل بارد، وطعام مطهوّ، وامرأتين حسناوين، وعريش وثير، والله ما ذلك بالنِّصَفة لك يا رسول الله، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلَّمته المرأتان، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله ﷺ.

فقال صحابة رسول الله: يا رسول الله، إنَّا نرى شبحَ رجلٍ مُقْبل. فنظر رسول الله ﷺ وقال: ((كُنْ أبَا خيْثمةَ))، ووجده أبا خيثمة، هذا معنى قول الحق سبحانه:

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة]

وفي واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أنْ يرجعوا وتاب الله عليهم أيضاً على آخرين اعترفوا بذنوبهم، فتاب الحقُّ سبحانه عليهم حين قال:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة]

وأرجأ الحقُّ أمرَ آخرين نزل فيهم قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمۡ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة]

وما دام اللهُ قد قال: ﴿ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ أي: ما بَتّ اللهُ سبحانه في أمرهم بشيء، فلا بدَّ من الانتظار إلى أنْ يأتيَ أمرُ الله، ويجب ألاَّ نتعرَّض لهم حتى يأتي قولُ الله.

وتاب أيضاً على الثلاثة الذين خُلِّفوا، في قوله سبحانه: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة]

قد يظنُّ أحدٌ أن ﴿ خُلِّفُوا ﴾ هنا تدلُّ على أن أحداً قال لهم: اقعدوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ولكن لم يَقُلْ لهم أحدٌ هذا. إنما ﴿ خُلِّفُوا ﴾ معناها: لم يظهر أمرُ الشارع فيهم كما ظهر في غيرهم، بل قال الحق فيهم من قبل: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ لِأَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة] وما دام قد تأخَّر فيهم الحكمُ فلا بُدَّ من الانتظار.

ونعلم أن الإنسانَ إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأنْ يتركَ المكانَ الذي يجلس فيه، ويُسبِّب له الضيق، لعل الضيق ينفكُّ. ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق في كلِّ مكان ذهبوا إليه حتى ضاقتْ

عليهم الأرض بسعَتِها، فلم يجد واحدٌ منهم مكاناً يــذهب إليــه، وهــذا معناه أن الكرب الذي يُحيطهم قد عَمَّ، والإنســان قــد تضــيق عليــه الأرضُ بما رَحُبتْ ولكن نفسه تسَعُه.

والحق يقول عنهم: ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي: ضاقتْ عليهم الأرض بما رَحُبتْ، وضاقتْ عليهم أنفسُهم أيضاً، فقد تخلَّفَ الثلاثةُ عن الغزوة، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتَّواني.

وأمر رسولُ الله ﷺ المسلمين بمقاطعتهم، فكان كعب بن مالك يخرج إلى السوق فلا يُكلِّمه أحدٌ، ويذهب إلى أقربائه فلا يُكلِّمه أحدٌ، ويتسوَّر عليهم الحيطانَ لعلهم ينظرون إليه، فلا ينظرون إليه.

وبعد ذلك يتصاعد الأمر في عزل هؤلاء، حتى تعدَّى إلى نسائهم، فأمرهم رسول الله ﷺ بألاَّ يقربوا نساءهم، هكذا بلغ العزلُ مَبلغاً شديداً ودقيقاً، فقد كان التحكم أولاً في المجتمع، ثم في الأقارب، ثم في خصوصيات السكن وهي المرأة.

حتى إن امرأةَ هلال بن أمية ذهبــتْ إليــه، وقالــت: يــا رســول الله، إن هلال بن أمية، رجل مــريض ضــعيف، وأنــا أســتأذنك فــي أنْ أصنعَ له ما يُقيمه، قال لها: ((ولكن لا يقربنَّــكِ)). قالــت: والله يــا رسول الله ما به حركةٌ إلى شيء، ووالله مــا زال يبكــي منــذ كــان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

وذهب بعضُ المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله صرَّح لامرأة هلال أنْ تخدمه، وقالوا له: اذهب إلى رسول الله واستأذنه

أنْ تخدمك امرأتك. فقال: إن هلالاً رجلٌ شيخٌ، فماذا أقول لرسول الله وأنا رجلٌ شاب؟ والله لا أذهب له أبداً.

وظلَّ الثلاثةُ في حصار نفسيٍّ ومجتمعيٍّ لمدة خمسين يوماً إلى أنْ جاء اللهُ بالتوبة، وفي هذا تمحيصٌ لهم، فكعب بن مالك -على سبيل المثال- يقصُّ عن حاله قبل الغزوة قائلاً: لم أكُنْ قَطّ أقوى ولا أيسر منِّي حين تخلَّفْتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتين قَطّ حتى جمعتُهما في تلك الغزوة.

أي: أنه لم يكُنْ له عذرٌ يمنعه.

بعد ذلك يجيء البشير بأن الله قد تاب عليه، فيأتي واحدٌ من جبل سَلْع فيقول: يا كعب، أبشر بخير يومٍ مرّ عليك، فقد أنزل اللهُ فيك قرآنا، وأنه تاب عليك.

قال كعب: فلم أجد عندي ما أهديه له لأنه بشَّرني إلا ثَوبيّ فخلعتهما وأعطيتهما له، ثم استعرْتُ ثوبيْنِ ذهبتُ بهما إلى مسجد رسول الله ﷺ.

وقال: يا رسول الله، إن من تمام توبتي أنْ أنخلعَ من مالي -الذي سبَّب لي هذا العقاب- صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ.

إذن: فتأخُّر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء، وإعطاء الأُسْوة لغيرهم، فحين يروْنَ أن الأرض قد ضاقتْ عليهم بما رَحُبتْ، وكذلك ضاقتْ عليهم أنفسهم يتيقنون من قول الحق: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ.. ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

أي: أن أحداً لا يجير إلا الله، وسبحانه يجير من نفسه. كيف؟

أنت تعلم أنك ساعةَ لا يُجيرك إلا مَنْ يتعقبك، فاعلم أنه لا سلطانَ لأحد أبداً؛ ولذلك نقول: أنت تلجأ إلى الله لا من خَلْقه، ولكنك تلجأ إلى الله ليحميَك من الله.

فسبحانه له صفاتُ جلالٍ وصفاتُ جمالٍ، وتتمثَّل صفاتُ الجلال في أنه: قهَّار، وجبَّار، ومنتقم، وشديد البطش، إلى آخر تلك الصفات.

وفي الحق سبحانه صفاتُ جمال مثل: غفور، ورحيم، وغيرها، فإذا ما أذنبَ الإنسانُ ذنباً، فالمجالُ في هذه الحالة أن يُعاقب من صفات الجلال، ولا ينفع العبد وقاية من صفات الجلال إلا صفات الجمال.

وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ قد دعا الله بقوله: ((أعوذ بكَ منك)).

أي: أعوذُ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك، فلن يحميني من صفات جلالك إلا صفاتُ جمالك.

ولذلك حينما جاء في الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله ﷺ: ((فإذا ما كان آخرُ ليلة من رمضانَ تجلَّى الجبَّار بالمغفرة)).

يظنُّ بعضُ الناس أن هذه المسألة غيرُ منطقية، فكيف يتجلَّى الجبّار بالمغفرة؟ ألم يَكُنْ من المناسب أنْ يُقالَ: يتجلّى الغفّار؟ ونقول: لا، فإن المغفرةَ تقتضي ذنباً، ويصبح المقامُ لصفة الجبار.

وهكذا تأخذ صفةُ الرحمة من صفة الجبار سُلْطتها، وكأننا نقول: يا جبار أنت الحقُّ وحدك، لكننا نتشفَّع بصفات جمالكَ عند صفاتِ جلالكَ.

هذا هو معنى: ((يتجلى الجبار بالمغفرة)).

وقد سمعَ الأصمعيُّ -وهو يطوف- مسلماً عند باب الملتزم، يقول: اللهم إني أستحي أنْ أطلبَ منك المغفرة لأني عصيتُك، ولكنِّي تطلّعتُ فلم أجد إلهاً سِواكَ.

فقال له: يا هذا، إن الله يغفرُ لك لحُسْن مسألتك.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة] والتوبةُ أولاً - كما عرفنا - هي تشريعها، ثم تأتي التوبة بالقبول، وقوله: ﴿ لِيَتُوبُوٓاْۚ ﴾ أي: أنها تصبحُ توبة رجوعٍ وعودةٍ إلى ما كانوا عليه قبلَ المعصية.

ويُنهي الحقُّ سبحانه وتعالى الآيةَ بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]، فلا توّابَ ولا رحيم سَوَاهُ سُبحانه وتعالى.


سورة يونس

سورة يونس

سُؤال العَاقل

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس]

من أغرب ما يدَّعيه المُدَّعُون فى هجومهم على الإسلام هو ادعاؤهم بأن القرآن هو تمكُّنٌ لُغويٌّ أخرجتْه عبقرية الرسول ﷺ وأخفاه عن الناس حتى سن الأربعين فأظهره.

وهو أمر غريب أنْ يصلَ التجنِّى إلى هذا الحد الذى لو أعمل فيه الناسُ بعضَ عقولهم لاكتشفوا تفاهته وعَجْز مُدَّعيه عن تسوية أكاذيبهم حتى تبدو أمام البُسطاء من الناس كأنها حقٌّ، كما يفعل كثيرون من الضَّالين المُضلِّين.

فإذا وضعنا فى اعتبارنا أننا نعيش فى عالم الأغيار يموت فيه الناسُ قبل العشرين، وقبل الثلاثين، وقبل الأربعين، ولا يستطيع أحد أنْ يعرفَ كم يعيشُ من السنين، ومتى يأتى أجله.

كما أن ظروفَ الرسول ﷺ لا تدفعه حتى إلى الظن أنْ يطول أجله إلى الأربعين، فقد مات أبوه وهو فى بطن أمه، كما ماتت أمه وهو لم يزلْ طفلاً، وهى مُقدِّمات لا تُوحى له بأنْ يكتمَ عبقريته عن الناس حتى يصل إلى سنّ الأربعين.

الأغرب من ادعاءات الدعاة أنهم اتفقوا مع كافرين أمثالهم وهم كفار مكة وإنْ كان بشكل آخر، حيث برَّر كفار مكة كفرهم بأن القرآنَ الذى أتى به الرسول، لا يحبونه وهم مستعدون لاتباع الرسول لو أتى بقرآن آخر.

وهو ما يحكيه القرآنُ الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [يونس]

ولو أن هذا القرآن من عند الرسول الكريم كما يدَّعى الأدعياء لبدَّله كما طلب منه الكفارُ، بل إن القرآنَ فى تفنيده لحُجج الكفار قد أخبر بما يمكن أنْ يكون رداً على ما يدعيه الأدعياء من أن الرسول الكريم كتمَ القرآن إلى سنِّ الأربعين، فيقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس]

والعاقلُ قد يسألُ نفسه: مَن الذى يُنسب إليه الكمال فيرفضه، خاصة لو كان دَعيًا ويقول: هذا ليس من عندى؟

الإيمان يكشف العذاب

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس]

وهكذا يُبيِّن لنا الحقُّ سبحانه أن هناك كثيراً من القرى لم تؤمن إلا وقت العذاب، فلم ينفع أيّاً منهم هذا الإيمان، ولكن قومَ يونس قبل أنْ تأتيَ بشائرُ العذاب والبأس أعلنوا الإيمانَ، فقَبِل الحق سبحانه إيمانهم؛ لأنه سبحانه لا يظلم عباده.

فمَنْ وصل إلى العذاب، وأعلن الإيمان من قلب العذاب لا يُقبَل منه، ومَنْ أحس واستشفَّ بواكيرَ العذاب وآمن فالحقُّ سبحانه وتعالى يقبله.

وكملة (لولا) إذا سمعتَها فمثلها مثل (لوما)، وإذا دخلتْ (لولا) على جملة اسمية فلها حُكمٌ يختلف عن حكمها لو دخلتْ على جملة فعلية، فحين تدخل على جملة اسمية مثل: لولا زيدٌ عندك لأتيتُك. تفيد أن امتناعَ المجيء هو بسبب وجود زيد.

لكنها إنْ دخلتْ على جملة فعلية فيُقال عنها (أداة تحضيض وحثّ)، مثل قول الحق سبحانه: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة]

أي: أنه كان يجب أنْ ينفرَ من كُلِّ طائفة عددٌ ليتدارسوا أمورَ الدين.

والحق سبحانه يقول هنا: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ. ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس]

أي: أنه لو أن هناك قريةً آمنتْ قبل أنْ ينزل بها العذاب لأنجيْناها كما أنجينا قومَ يونس، أو كنا نحب أنْ يحدث الإيمانُ من قرية قبل أنْ يأتيها العذاب.

إذن: فقومُ يونس هنا مُسْتثنون ؛ لأنهم آمنوا قبل أنْ يأتيَهم العذابُ. أي: أن الذي منع يونسَ عليه السلام أنْ يظلَّ في بطن الحوت إلى يوم البعث هو التسبيح.

وهنا يبيِّن الحقُ سبحانه الاستثناءَ الذي حدث لقوم يونس، حين يقول: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس]

أي: أن الإيمان نفع قريةَ قومِ يونس قبل أنْ يقعَ بهم العذابُ.

ونحن نعلم أن كلمة (قرية) تعني: مكاناً مُهيّأً، أهله مُتوطِّنون فيه، فإذا ما مَرَّ عليهم زائرٌ في أيِّ وقت وجدَ عندهم قِرىً. أي: وجبة طعام.

ونحن نجد مَنْ يقول عن الموطن كثير السكان كلمة (بلد)، وهؤلاء مَنْ يملكون طعاماً دائماً، أما مَنْ يكونون قلَّةً قليلةً في موطن، ففي الغالب ليس عندهم من الطعام إلا القليلُ الذي يكفيهم ويكفي الزائر لمرة واحدة.

وتُسمَّى مكة المكرمة (أم القرى) لأن كلَّ القرى تزورها.

وقرية قوم يونس اسمها (نينوَى) قد حكى عنها النبي ﷺ في قصة الذهاب للطائف، وهي قرية العبد الصالح يونس بن متَّى، وهي في العراق ناحية الموصل.

ويونس هو منْ قال عنه الله سبحانه: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء]

وكلمة (مغاضب) غير كلمة (غاضب)، فالغاضب هو الذي يغضب دون أنْ يُغضبه أحدٌ، لكن المغاضبَ هو مَنْ أغضبه غيره. والمغاضبة تكون من جهتين، وتسمى (مفاعلة).

وسُمِّي سيدنا يونس –عليه السلام– بذى النون لأن اسمه اقترن بالحوتِ الذي ابتلعه.

وكلنا نعرف القصة، حينما دعا قومه إلى الإيمان وكفروا به في البداية؛ لأن الرسولَ حين يجيء إنما يجيء ليُقوِّمَ الحياة الفاسدة؛ فيضطهده مَنْ يعيشون على الفساد؛ لأنهم يريدون الاحتفاظَ بالجبروت الذي يسمح لهم بالسرقة والاختلاس وإرواء أهواء النفس، فلما فعلوا ذلك مع سيدنا يونس خرج مغاضباً، أي: أنهم أغضبوه.

وأبو الطيب المتنبي يقول في هذا المعنى:

إِذَا ترحَّلْتَ عن قومٍ وقد قَدرُوا   ألاَّ تُغادِرَهم فَالرَّاحِلون هُمُ

أي: إنْ كنتَ تعيشُ مع قوم، وأردتَ أنْ تُفارقهم وقد قدروا أنْ تعيشَ معهم، فالذي رحل حقيقةً هم هؤلاء القوم.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد خروج يونس مغاضباً: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ.. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] أي: أنه رجَّح أن الحقَّ سبحانه لن يُضيِّقَ

عليه الأرضَ الواسعة، وسيُهيِّىء له مكاناً آخر غيرَ مكان المائة الألف أو يزيدون الذين بعثه الله تعالى إليهم.

وكان من المفروض أنْ يتحمَّلَ الأذى الصادر منهم تجاهه، لكن هذا الظنَّ -والظنُّ ترجيحُ حُكْم- يدلُّنا على أن معارضةَ دعوته كانت شديدةً تُحْفِظ وتملأ القلبَ بالألم والتعب. وكان عليه أنْ يُوطِّنَ نفسه على مواجهة مشقاتِ الدعوة.

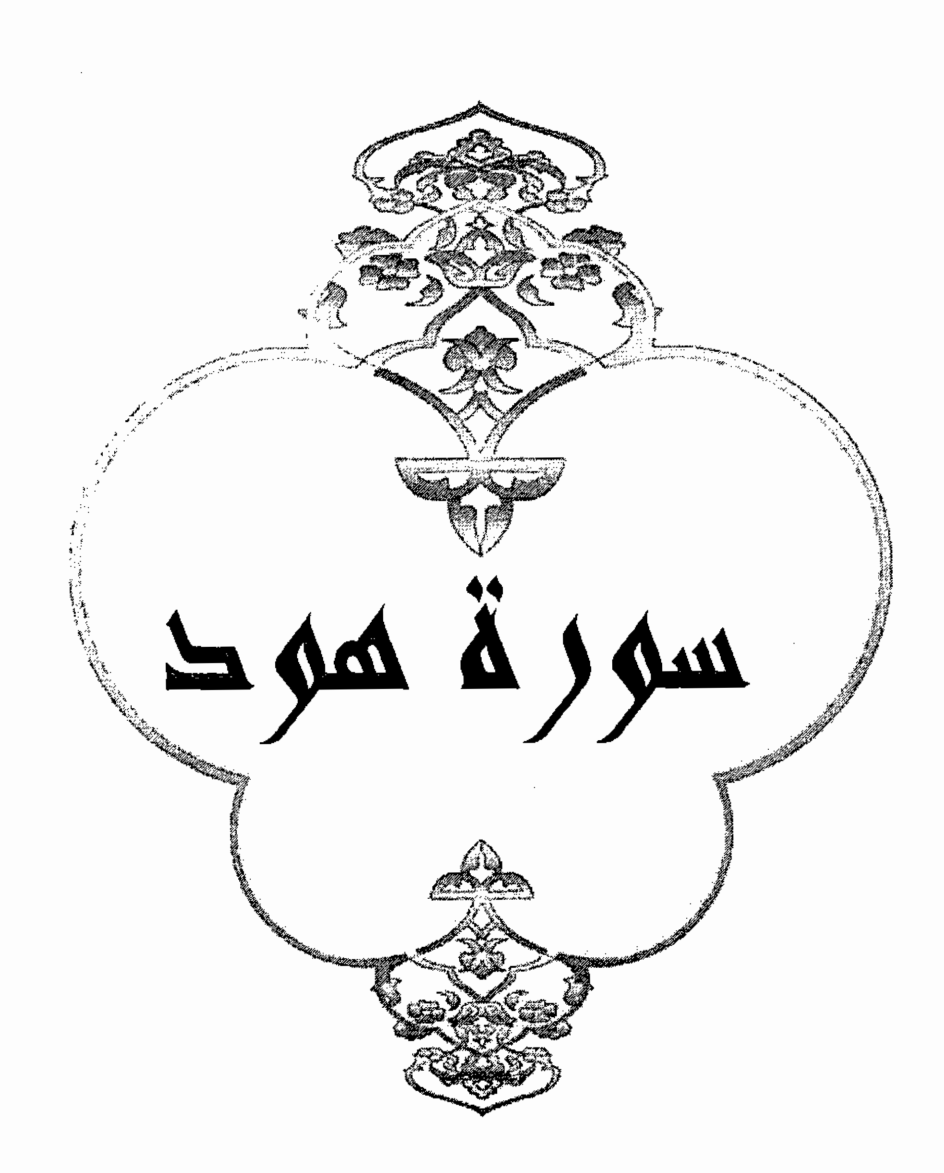
ونحن نعلم أن العبدَ الصالح يونس -عليه السلام- قد تأثَّر وحَزن وغضب من عدم استجابة قومه لرسالته الإيمانية، إلى أنْ رأوْا غَيْماً يملأ السماء وعواصف.

وألقى اللهُ تعالى في خواطرهم أن هذه العواصف هي بدايةُ عذاب الله لهم فَهُرعوا إلى ذوي الرأي فيهم، فأشاروا عليهم بأن هذه هي بوادرُ العذاب، وقالوا لهم: عليكم بإرضاء يونس؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله، فآمِنوا به ليكشفَ عنك الغُمَّة.

وهُرعَ الناسُ إلى الإيمان بالحيِّ الذي لا يموتُ، الحيُّ حين لا حيّ، والقيوم والمُحيي والمُميت.

وذهب قومُ يونس -عليه السلام- لاسترضائه ؛ وحين رضي عنهم بدأوا ينظرون في المظالم التي ارتكبوها، حتى إن الرجل منهم كان ينقض ويهدم جدار بيته ؛ لأنه فيه حجراً قد اختلسه من جار له.

وكشف اللهُ سبحانه وتعالى عنهم العذاب، وهنا يقول سبحانه: ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس]


سورة هود

سورة هود

الجدال.. والمِراء

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [هود]

الجدال هو قَوْل كلام يقابل كلاماً آخر، والقصد عند كلِّ متكلم أنْ يُزحزحَ الطرف الآخر عن مذهبه بحجة أو بشبهة بقصد إسقاط رأيه وما ذهب إليه. أي: أن الجدال يكون بمناقشة بين طرفين يتقاسمان الكلام، بهدف أن يُقنع أحدُهما الآخرَ بأنْ ينصرفَ عن مذهبه هو إلى مذهب القائل.

لذلك فإن قومَ نوح عليه السلام يقولون له كما حكى القرآن: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

[هود]

وقد عاش سيدنا نوح ألفَ سنة إلا خمسين، ومعنى ذلك أن جداله معهم أخذ وقتاً طويلاً.

الجدال يختلف عن المرَاء الذى حذَّر منه الرسول بقوله: ((أنا ضمينٌ ببيت فى ربَض الجنة لمَنْ تركَ المراءَ ولو كان مُحقاً)) لأن المُمارى هو مَنْ يعرف الحق ولكنه يُجادل بالباطل، ويظل فى لجاج عقيم لا هدفَ منه سوى تخطيء آخرين وهو يعلم أنهم على الحق.

أما الجدال فإنه مناقشةٌ يُقدِّم فيها كلُّ طرف حُججه للوصول إلى الحق. ومن هنا فالجدال مطلوبٌ وهو ما نجده فى قوله تعالى: ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ.. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل]

أى: أن الشرط فى إقامة الجدال أو حوار الحجج أن يكون بأسلوب يسيطر عليه أدب الحوار واللطف فى تقديم الأدلة والبراهين، حتى لا يندفع الخصمْ بعد أنْ يدرك أنه على غير الحق إلى الدخول فى دائرة المراء بسبب سوء منهج خَصْمه فى الجدال، فتأخذه العزة بالإثم وتأبى عليه نفسه أنْ يعلنَ خطأ مسلكه.

أما إذا كان الحوار فى إطار من أدب الحوار واحترام رأى الآخر فإن رجوع أحدهم إلى الحق لا يتم دون شعور بالغلبة.

الاستغفارُ.. إعلانٌ للتوبْة

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود]

الاستغفارُ هو إقرارٌ بالتقصير، وارتكابْ الذنوب، وإعلانٌ من المستغفر بالإيمان، واعترافٌ بأن تكليفَ الله هو تكليفُ حَقٍّ.

وما دام الإنسانُ يطلب من الله تعالى أنْ يغفر له الذى فاتَ من ذنوب، فعليه ألاَّ يرتكب ذنوباً جديدة، وبعد التوبة عليه أن يحرص على

تجنُّب المعاصي، لأن لذلك نتائج مهمة للإنسان، يذكرها القرآن فيما حكاه عن قول هود عليه السلام لقومه في قوله تعالى:

﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود]

وهنا تكون الدعوة إلى الاستغفار تتبعها دعوةٌ إلى توبة تعني عدمَ العودة إلى المعاصي أبداً، وإذا تمَّ ذلك تكون النتائجُ بركات من السماء، فينزل المطرُ الذي يُنبت الأرض ويخرج الخير منها فيزداد الناس قوة.

وفي ذلك إشارة إلى أن عبادةَ الله لا تقتصر على الأركان الخمسة فقط، والتي هي الشهادة بوحدانية الله وبأن محمداً رسوله إلى خَلْقه، وإقام الصلاة، وايتاء الزكاة، وحج البيت، وإنما تشمل كلَّ أركان الحياة، فلا يجوز عَزل الدين عن الحياة.

لذلك أوضح الرسولُ ﷺ أن هذه الأركانَ بُنيَ عليها الإسلام، وليستْ هي كل الإسلام، ولا بُدَّ أنْ تنتظم حركاتُ البشر تبعاً لمنهج الله.

وقد فهم البعضُ خطأً أن العبادةَ تنحصر في باب العبادات في تقسيم الفقهاء، وأغفلوا أن بابَ المعاملات هو من العبادة أيضاً، واستقامةُ الناس في المعاملات تُؤدِّي إلى انتظام حياة الناس.

ولأن الاستغفار والانسجام مع منهج الله هو البداية التي تُحقق الخير للإنسان، فإن عدمَ الاستغفار والتولِّي يُحقق عكس ذلك، حتى ولو نزل المطرُ، وسارتْ الأمور كما هي.

لذلك نجد في موقع آخر أن الكافرين عندما رأوا غمامة ظنُّوا أنها المطرُ الذي يجلب الخيرَ حسب منطق الأشياء، ولكنها كانت العذاب

لهم، يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف]

إصْرارٌ عَلَى الكُفرِ

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [هود]

هُم هنا ينكرون أن هوداً قد أتاهم بِبَيِّنة أو مُعجِزةٍ. والبيِّنة هي الأمَارَة الدَّالَّة على صِدْق الرسول. وصحيح أن هوداً هنا لم يذكر معجزته وتَناسَوْا أن جوهرَ أيِّ معجزة هو التحدي، فمعجزة نوح عليه السلام هي الطوفان، ومعجزة إبراهيم عليه السلام أن النارَ صارتْ بَرْداً وسَلاماً عليه حين ألقوْهُ فيها.

ونحن نلحظ أن المعجزة العامة لكلِّ رسول يُمثِّلها قولُ نوح عليه السلام:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ [يونس]

أي: إنْ كنتم أهلاً للتحدي، فها أنا ذا أمامكم أحارب الفساد، وأنتم أهلُ سيطرة وقوة وجبروت وطغيان، وأحْكِموا كيدكم لكنكم لن تستطيعوا قَتْلَ المنهج الرباني؛ لأن أحداً لن يستطيعَ إطفاءَ نُور الله في يد رسول من رُسله أو أنْ يخلِّصوا الدنيا منه بقتله.. ما حدث هذا أبداً.

إذن: فالبيِّنة التي جاء بها هود عليه السلام أنه وقف أمامهم ودعاهم إلى ترك الكفر، وهو تحدِّي القادرين عليه لأنهم أهلُ طغيان وأهل بطش، ومع ذلك لم يقدروا عليه، مثلما لم يَقدر كفارُ قريش على رسولنا ﷺ.

ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ قد جاء ومعه المعجزةُ الجامعةُ الشاملةُ وهي القرآن الكريم، وسيظل القرآنُ معجزةً إلى أنْ تقومَ الساعةُ.

ونعلم أن غالبية الرسل -عليهم جميعاً السلام- قد جاءوا بمعجزات حِسِّية كوْنية انتهى أَمَدُها بوقوعها، ولولا أن القرآنَ يُخبرنا بها ما صدَّقْناها مثلها مثلُ عُود الثِّقاب يشتعل مرة ثم ينطفىء.

فمثلاً شَفَى عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص بإذن ربه فمَنْ رآه آمن به، ومَنْ لم يَرَه قد لا يؤمن، وكذلك موسى عليه السلام ضرب البحر بالعصا فانفلقَ أمامه؛ ومَنْ رآه آمنَ به، وانتهت تلك المعجزات، لكن القرآنَ الكريم بَاقٍ إلى أنْ تقومَ الساعةُ.

ويستطيع أي واحد من أمة محمد ﷺ قبل قيام الساعة أنْ يقول: محمد رسول الله ومعجزته القرآن؛ لأن محمداً ﷺ جاء رسولاً عامّا ولا رسول من بعده ؛ لذلك كان لا بُدَّ أنْ تكون معجزته من الجنس الباقي ومع ذلك قالوا له ﷺ:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء]

وكلُّ ما طلبوه مسائلُ حِسِّيَّة؛ لذلك يأتي الرد:

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت] ومع ذلك كذَّبوا.

وأضاف قوم عاد: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [هود]

هُم –إذن– قد خدعوا أنفسهم بتسميتهم لتلك الأصنام (آلهة)، لأن الإله مَنْ يُنزل منهجاً يُحدِّد من خلاله كيف يُعْبَد، ولم تَقُل الأصنام لهم شيئا ولم تُبلغهم منهجاً.

إذن: فالقياس المنطقي يُلغي تَصوُّر تلك الأصنام كآلهة، فلماذا عبدوها؟ لقد عبدوها؛ لأن الفطرةَ تنادي كلَّ إنسان بأنْ تكون له قوةٌ مَألوهٌ لها، والقوةُ المَألوهُ لها إنْ كان لها أوامرْ تَحدُّ من شهوات النفس، فهذه الأوامر قد تكون صعبةً على النفس، أما إنْ كانت تلك الآلهةُ بلا أوامرَ أو نواهيَ فهذه آلهةٌ مُريحةٌ لمَنْ يخدع نفسه بها، ويعبدها مظنَّة أنها تنفع أو تضر.

وهذه هي حُجَّة كل ادِّعاء نُبوة، أو ادِّعاء مهديَّة في هذا العصر، فيدَّعي النبيَّ الكاذب النبوَّة، ويدعو للاختلاط مع النساء، وشُرْب الخمر، وارتكاب المُوبقات، ويُسمِّى ذلك ديناً.

وتجد مثل هذه الدَّعاوَى في البهائية والقاديانية وغيرها من المعتقدات الزائفة.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ.. ۝ ﴾ [هود] يعني: وما نحن بتاركي آلهتنا بسبب قولك.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود] أي: وما نحنُ لك بمُصدِّقين، لأن (آمن) تأتي بمعانٍ متعددة:

فإنْ عدَّيتها بنفسها، مثل قولِ الحقِّ: ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش].

وإنْ عدَّيتها بـ (الباء) مثل قوله الحق: ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة].

فالمعنى يتعلّق باعتقاد الألوهية.

وإنْ عدَّيتَها بـ (اللام) مثل قولِ الحقِّ سبحانه: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس]. تكون بمعنى التصديق.

آفَةُ المُجتَمعَاتِ البَشَريَّة

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود]

حرص الإسلامُ على محاربة الظلم بكلِّ أشكاله، بل إنه ما جاء إلا لإقامة العدل الذى هو اسمٌ من أسماء الله فى مجتمعات كان الظلمُ فيها قد بلغ مداه، ولذلك لم يطالب مُعتنقيه بعدم الظلم فقط، بل طالبهم بمطاردة الظالم أيضاً ومنعه عن ظلمه، بل نبذه ليشعرَ بالتحقير له فى مجتمعه.

ومن هنا كان قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود]

والركون هو الميل والسكون والمودة والرحمة، وعلّة التحريم أن الميل إلى الظالم يُدخل فى نفسه أن لقوته شأناً، وأن هناك رضى عاما لما يصنع.

ومن الركون أيضاً مجاملة الظالم والتعامل معه بلا تأفف أو اشمئزاز لما يصنع، وآفة الدنيا هى الركون للظالمين، لأن فى ذلك تشجيعاً لهم غير مباشر على التمادى فى الظلم والاستشراء فيه.

وتعتبر أعلى مراتب الركون إلى الظالم هى إقراره على ظلمه وتزيينه له وتزيينه أيضاً للناس، وأدنى مراتب الركون إلى الظالم ألاّ نمنعه من ظلم غيره.

والإنسان إذا تأمل المجتمعات البشرية يتأكد أن آفاتها تنشأ من الركون إلى الظالم، لأن الركون إليه يُقوّى عوامل تدميره، ويخلق أمثالا له فى المجتمع يتأسّوْن به ويسيرون على نهجه لما رأوه من إكبار للظالم ومساعدته وعدم الوقوف فى وجهه لردّه وإعادته إلى صوابه.

كما أن الركون إلى الظالم هو وقوع فى عداء مع منهج الله الذى يأمر بالعدل، ويأمر المؤمنين بأن ينهوا عن المنكر بل تغييره بكل وسائل التعبير، لذلك فإن الله يُحذِّر الذين يركنون إلى الظالم بأنهم سينالون نصيباً من النار فى قوله سبحانه: ﴿ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [هود]

مجتمع بلا توبة!!

﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود]

لتشريع التوبة مَغزَى سَام من مغازى إعلاء القيم الإنسانية وتهذيب النفس الآدمية والسمو بها، لأن الإنسان حين يذنب ذنبا ينفلت من قضية الإيمان، ولو لم تُشرع التوبة والعفو من الله لزاد الناسُ فى معاصيهم وغرقوا فيها.

فإذا لم تَكُنْ هناك توبة فإن الذنبَ الواحد يؤدى إلى النار، والعقاب سينال الإنسان ويجعله يتمادى فى المعصية، وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعبده.

وفى الحديث الشريف: ((الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة)).

ومعنى الحديث أن رجلاً معه بعير يحمل ماله وطعامه وشرابه وكل ما يملكه، وهذا البعير تَاهَ فى صحراء جرداء، فبحث عنه صاحبه فلم يجده، وبذا فقد معه كلَّ مُقوِّمات حياته ثم نظر فرآه أمامه.. كيف تكون فرحته؟ هكذا تكون فرحةُ الله تعالى بتوبة عبده المؤمن، بل أشدّ من ذلك.

إن الله تبارك وتعالى حين يفتح باب التوبة يريد لحركة العالم أن تسير لأنه لو نفسٌ غفلتْ مرة أو قادتْها شهوتُها مرَّة إلى معصية أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء، لو لم تَكُنْ هناك توبةٌ ومغفرة لانقلبَ كلٌّ هؤلاء إلى شياطين.

إن أعمال الخير تأتي من الذين أسرفوا على أنفسهم، فهؤلاء يُحسنون كثيراً ويفعلون الخير كثيراً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود] وقوله جلّ جلاله ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة]

لذلك فإن الله سبحانه -كما حكى القرآن- تاب على بنى إسرائيل مع أنهم كفروا قمة الكفر، بأنْ عبدوا العجل، فذلك لأن الله يريد استبقاء الخير فى كَوْنه، وللأسف فإن بنى إسرائيل لم يستفيدوا بعفْو الله عنهم. بل عادوا إلى معاصيهم وعنادهم.


سورة يوسف

سورة يوسف

أحسنُ القصَص

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف]

لم يقُصّ علينا القرآنُ قَصَص السابقين ويصفه بأحسن القَصص لكى يُخبرنا بأحداث الماضى فقط، أو يمنحنا أسباب التسلية والترفيه، وإنما جاء بها للموعظة ولتكونَ عبرةً إيمانية.

ذلك أن القَصَص القرآنى يتكرر فى كلّ زمان ومكان، ففرعونَ هو كلُّ حاكم طغى فى الأرض، ونصَّب نفسه إلهاً، وقارونُ هو كلُّ من أنعم اللهُ عليه فنسب النعمةَ إلى نفسه، وتكبَّر وعصى الله.

وقصةُ يوسف هى قصة كلّ إخوة حقدوا على أخ لهم وتآمروا عليه، ثم العفة عن اقتراف الإثم، وأهل الكهف هم كلّ فتية آمنوا بربهم فنشر اللهُ لهم من رحمته فى الدنيا والآخرة، ما عدا قصة واحدة هى قصة مريم وعيسى عليهما السلام، فهى معجزة لن تتكرر، لذلك عرَّف الله أبطالها، فقال: عيسى ابن مريم. وقال فى مريم: ابنة عمران.

يقول الله تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [يوسف]

ولم يأت القَصص من أجل القَصص كالذين يقولون: الفن من أجل الفن. وهى دعوة غريبة، إذ كلّ نشاكات الإنسان فى الحياة إنما تهدف إلى إصلاح شأنه وتحقيق مهمته في الأرض وبسهولة ويُسْر.

لكن الذين أرادوا أنْ يُغلقوا باب النقد على الأدب والفن الهابط الذى يدعو إلى الرذيلة، ولا يُعلى من شأن القيم إنْ لم يَحُطْ من شأنها. فقد قالوا: إن الأدب للأدب فقط، والفنّ من أجل الفنّ، أو أنه صورةٌ للحياة فقط، وانتشرت دعاواهم وروَّج أصحابُ النفوس المريضة لما يدعون إليه دون حرج أو نقد استناداً إلى تلك الدعوى.

تأوِيلُ الأحْلامِ

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۝٦ ﴾ [يوسف]

أي: كما آنسَكَ اللهُ بهذه الرُّؤيا المُفْرحة المُنْبئة بأنه سيكون لك شأنٌ كبيرٌ بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك، فلسوف يجتبيك ربُّك؛ لا بأنْ يحفظك فقط ولكن بأنْ يجعل كيدهم سبباً لصالحك، ويُعلّمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحابَ الجاهِ والنفوذ يلتفتون إليك.

ومعنى تأويل الشيء أيْ معرفة ما يؤول إليه الشيء، ونعلم أن الرُّؤى تأتي كطلاسم، ولها شَفرةٌ رمزية لا يقوم بحلّها إلا مَنْ وهبه اللهُ

قدرةَ على ذلك، فهي ليستْ عِلْماً له قواعد وأصول؛ لأنها إلهاماتٌ من الله سبحانه وتعالى.

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً لمَا وهبه الله ليوسف عليه السلام من تأويل الرُّؤى، قال تعالى:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف]

فقد دخل معه السجن فَتَيان، وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن، وبعد مُعايشة يومية له تكشّف لهما سلوكُ يوسفَ كواحد من المحسنين.

وحدث أنْ رأى كُلٌّ منهما حُلْماً، فقرَّرا أنْ يطلبا منه تأويل هذين الحُلْمين، والسجين غالباً ما يكون كثيرَ الوساوس، وغيرَ آمنٍ على غده؛ ولذلك اتجها إليه في الأمر الذي يُهِمُّهم:

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

[يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حُلْمين، فواحد منهما رأى في منامه أنه يعصر خمراً، ورأى الثاني أنه يحمل خُبْزاً فوق رأسه تأكل منه الطير، واتجه كلاهما -أو كُلٌّ منهما على حِدَة- يطلبان تأويل الرُّؤيين المناميتيْنِ، أو أنهما قد طلَبا نبأ تَأويل هذا الأمر الذي رأَياه.

وحيثية لُجُوئهمَا إليه هو قولُهُما: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف]

وهذا يدلُّ على أن الإحسانَ أمرٌ معلومٌ لكلِّ البشر، حتى أصحاب النفوس المُنحرفة، فلا أحدَ يمكن أنْ يحكم على اخر أنه محسن إلا إذا وافق عملُه مقاييسَ الإحسان في ذِهْن مَنْ يُصدر هذا الحكم.

فكلُّ نفس تعرف السُّوء، وكُلُّ نفس تعرف الإحسان، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السُّوء بذاتية أنفسهم، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحرِّكين في الكون، ونظروا إلى أيِّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم لعرَفُوا أن الإحسانَ قَدْرٌ مُشتركٌ بين الجميع.

ونجد اللصَّ -على سبيل المثال- لا يُسيئه أنْ يسرق أحداً، لكن يُسيئه لو أن أحداً قام بسرقته، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفضَ في أعماقه حين يتوجه السُّوء إليه، ويعرف حينئذ مقامَ الإحسان، ولكنه حين يمارس السرقة ويكون السوءُ مُتوجِّهاً منه إلى الغير، فهو يغفل عن مقام الإحسان.

إذن: إنْ أردتَ أنْ تعرفَ مقامَ الإحسانِ في مقاييس الفضائل والأخلاق فافْهَمْ الأمرَ بالنسبة لك إيجاباً وسلْباً.

فقد رأى فيهما شبهةَ الإيمان بالإحسان والإيمان بالمحسنين، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما قبل أنْ يُعطيهما حاجتهما منه؟

وكأنه قال لهما: ماذا رأيتُما من إحساني؟ هل رأيتُم حُسْنَ معاملتي لكم؟ أم أن كُلا منكما قد رأى دقةَ اختياري للحسن من القول؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندي -بفضل الله- ما هو أكثر.

وهو ما يقوله الحقّ سبحانه بعد ذلك في الآية التالية: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف]

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يَريانِ منه إلا الظاهرَ من السلوك، ولكن هناك أمورٌ مَخْفِيَّة، وكأنه يُنمي فيهما شُعورهما بمنزلته وبإحسانه وبقدرته على أنْ يخبرَهما بأوصاف ونوع أيِّ طعام يُرزقانه قبل أنْ يأتيَ هذا الطعام.

وهذه ليستْ خُصوصية في يوسف أو من عِنْديَّاته، ولكنها من علم تلقّاه عن الله، وهو أمر يُعلِّمه اللهُ لعباده المحسنين، فيكشفْ الله لهم بعضاً من الأسرار.

وهما -السجينان- يستطيعان أنْ يكُونا مثله إنْ أحسَنا الإيمانض بالله، ولذلك يتابع الحق سبحانه: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يوسف]

وكأنه بذلك يَهديهما إلى الطريق الذي يجعلهما من المُحسنين الذين يعطيهم اللهُ بعضاً من هِبَات الخير، فيعلمون أشياء تَخْفى على غيرهم.

وهذا يدلُّنا على أن المؤمنَ إذا رأى في إنسان ما مخيلة خير فَلْينمي هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر، وبذلك لا يحتجز الخُصوصيةَ لنفسه حتى لا يقطع الأسْوةَ الحسنة، ولكي يُطمِع العبادَ في تجليّات الله عليهم وإشراقاته.

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك ملّة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثوابا بالجنة، او عقابا في النار.

وقد فسّر رؤيا منْ يسقي الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقي سيده، وأما الآخر فلسوف يُصلّبُ وتأكلُ الطَّيرُ من رأسه، لأن رمزية الرؤيا تقول: إن الطير سيأكل من رأسه، وهذا يعني أن رأسه ستكون طعاماً للطير.

وتأويل الرؤيا علمٌ يقذفه اللهُ في قلوب مَنْ علّمهم تأويلَ الأحاديث، وهي قُدرة على فكِّ شفْرة الحُلْم، ويعطيها الله لمنْ يشاء من عباده.

وقد قال يوسف عليه السلام لمَنْ قال: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ.. ﴾

[يوسف]

قال له: ﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

[يوسف] أي: أنه سوف ينال العفوّ ما أظهرتْه الرؤيا التي قالها، وأما الآخرْ فسيأكل من رأسه الطيرُ. أي: سيُصلب كما أوحَتْ بذلك رموز الرُّؤيا.

ونلحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذي أوضحته الرؤييان عن الاثنين صاحبي الرؤيين، وهذا دليلٌ على أن القاضي يجب أنْ يكون ذهنُه مُنصبًّا على الحكم، لا على المحكوم عليه، فقد سمع يوسفُ منهما وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة، ومَنْ الذي سوف يُعاقب.

فنزع يوسفُ ذاته من الأمر، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه ؛ لأن الهوَى يُلوِّن الحكمَ، ولا أحدَ بقادرٍ على أنْ يسيطر على عاطفته، ولا بُدَّ للقاضي لحظةَ أنْ يصدر حكماً أنْ يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات.

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرُّؤيا متجرِّداً من الذاتية، وأنهى التأويل بالقول: ﴿ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ۝٤١ ﴾ [يوسف] أي: أنه لا مجالَ للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذي وصل إليه من تأويل، فقد جاء التأويل وفْقاً لمَا علَّمه اللهُ له.

حتى كانت الرؤيا التي كانت سبباً في نجاته، وجعل مَنْ رأى انه يسقي سيده خمراً يتذكر من أمر يوسف عليه السلام في السجن وكوْنه من المُحسنين وكوْنه قد وهبه اللهُ القدرةَ على تفسير الأحلام والرُّؤى.

قال الحق سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ۝٤٣ ﴾ [يوسف]

هذا يعني أنها رُؤيا منامية. وكلمة: ﴿ سِمَانٖ ﴾ أي: مُمْتلئة اللحم والعافية وكلمة ﴿ عِجَافٞ ﴾ أي: الهزيلة. كما يُقال عند العامة (جلدها على عظمها) فكيف تأكل العجاف السمان، مع أن العكسَ قد يكون مقبولاً؟

وأضاف الملك: ﴿ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ.. ۝٤٣ ﴾ [يوسف]

ولم يَصِف الملك أيَّ فعل يصدر عن السنابل.

ثم سأل مَنْ حوله من أعيان القوم الذين يتصدّرون صُدور المجالس، ويملأون العيون: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف]

وكلمةُ ﴿ تَعْبُرُونَ ﴾ مأخوذةٌ من: عبر النهر. أي: انتقل من شاطيء إلى شاطيء، وكأنه يطلب منهم المراد المَطْويّ في الرّؤيا.

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة (العبْرة)، وهي التجربة التي نستفيد منها، ومنه أيضاً (العبارَة) وهو أنْ يكون هناك شيءٌ مكتومٌ في النفس ونؤدّيه، ونُظهِره بالعبارة.

ومنه (العَبْرَة) وهو الدَّمْعَة التي تسقط من العين تعبيرا عن مشاعر ما، سواءٌ كانت مشاعرَ حُزْنٍ أو فَرحٍ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم.

هكذا يفعل مُفسِّر الرُّؤْيا حين يَعبُر -من خلال رموزها- من الخيال إلى الحقيقة، ولم يعرف الملأ الذين حول المَلِك تفسيراً للرّؤيا التي رآها في منامه.

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم: ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف]

وهكذا أعلن الملأُ أن رؤيا المَلكِ ليستْ سوى أخلاط أحلام بلا معنى.

و الضِّغْث هو: حِزْمةٌ من الحشائش مختلفة الأجناس، فكأن رُؤْيا الملك لا تأويلَ لها عندهم؛ لأنهم ليسوا من أهل التمييز في التأويل.

وهذا صِدْقٌ من البطانة في ألاَّ يخبرَ أحدُهم بشيء، إلا إذا كان على علم به، ولا يضير أحدهم أنْ يعلنَ جهله بأمر ما لا يعلمه.

والذي يعلن جهله بأمر لسائله ¯ويكون قد علمه¯ يجعله يسأل غيره، أما إنْ أجاب بجواب فربما جعله يَتْبُتُ على هذا الجواب.

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصِّدْق في الفُتْيا: مَنْ قال لا أدري فقد أفتى. لأنه حين يقول: لا أدري. سيضطرك إلى أنْ تسأل غيره.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف]

وبعد أن افتعل ساقي الملك واجتهد ليتذكَّر ما حدث له منذ فترة هي بضع سنين، أيامَ أنْ كان سجيناً ورأى رُؤيا منامية أوّلها له يوسف، قال الساقي للملأ وللملك عن تلك الرؤيا: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [يوسف]

وبذلك استأذن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رُؤيا الملك.

وقوله: ﴿ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾ يعني أن التأويلَ ليس من عنده، بل هو يعرف منْ يستطيع تأويل الرُّؤى، ونلحظ أن القرآنَ لم يحمل على لسان هذا الرجل: إلى مَنْ سوف يذهب؛ لأن ذلك معلومٌ بالنسبة له ولنا، نحن الذين نقرأ السورة.

وانتقل القرآنُ من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام، فيقول الحقُ سبحانه ما جاء على لسان ساقي الملك:

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

[يوسف]

أي: أفتِنَا في رُؤيا سَبْع بقرات سِمَان يأكُلهنّ سَبْعُ بقرات شديدي الهُزَال، وسبع سُنْبلات خُضْر، وسبع أُخر يابسات، لعلِّي أرجع إلى الناس لعلَّهم يعلمون.

وقوله: ﴿ أَفْتِنَا ﴾ [يوسف] يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصّه، بل هي تخصُّ رائياً لم يُحدده، وإنْ كُنَّا قد عرفنا أنها رُؤيا الملك.

وقوله: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ هو تحرُّز واحتياطٌ في قضية لا يجزم بها، وهو احتياطٌ في واقع قَدرِ الله مع الإنسان، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ؛ ليُخرجه من أنْ يكون كاذباً، فهو يعلم أن أمر عودته ليس في يده.

ولذلك يُعلمنا الله:

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝ ﴾

[الكهف]

وساعةَ تقول: (إن شاء الله) تكون قد أخرجتَ نفسك من دائرة الكذب، وما دُمْتَ قد ذكرتَ الله فهو سبحانه قادرٌ على أنْ يهديك إلى الاختيار المناسب في كلِّ أمر تُواجه فيه الاختيار.

فكأنَّ اللهَ يُعلِّم عباده أنْ يحافظوا على أنفسهم، بأنْ يكونوا صادقين في أقوالهم وأفعالهم؛ لأنك مهما خططت فأنت تخطط بعقل موهوب لك من الله، وحين تُقدِم على أيّ فعل فأيّ فعل مهما صغر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرة، لا تملك منها شيئا ؛ لذلك عليك أنْ تردَّ كلَّ شيء إلى مَنْ يملكه.

وهنا قال الساقي: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف]

وبذلك يُعلِّمنا الحقُّ سبحانه الاحتياط، وأضاف الحقُّ سبحانه على لسان الرجل: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف] وكأن الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه السلام ويعود به إلى الناس، فهو لا يعلم كيف يستقبلون هذا التأويل؟

أيستقبلونه بالقبول، أم بالمُحاجَّة فيه؟ أم يستقبلون التأويل بتصديق، ويعلمون قَدْرك ومنزلتك يا يوسف، فيُخلِّصوك مما أنت فيه من بلاء السجن.

وقوله تعالى: ﴿ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ.. ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف] قد يدفع سائلاً أن يقول: منِ الذي كلَّف الساقي بالذَّهاب إلى يوسف: أهو الملك أم الحاشية؟

ونقول: لقد نسبها الساقي إلى الكل للاحتياط الأدائي.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك: ﴿ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف]

وهذه بداية تأويل رُؤْيا الملك. والدَّأْب معناه: المُواظبة فكأن يوسف عليه السلام قد طلب أن يزرع أهلُ مصر بدأبٍ وبدون كسل.

ويتابع: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف] أي: ما تحصدونه نتيجة الزرع بجدٍّ واجتهاد، فلكم أنْ تأكلوا القليل منه، وتتركوا بقيته محفوظاً في سنَابله.

والحفظ في السنابل يُعلِّمنا قَدْر القرآن، وقدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه، وما آتاه الله جلَّ عُلاه ليوسف عليه السلام من علم في كل نواحي الحياة، من اقتصاد ومُقوِّمات التخزين، وغير ذلك من عطاءات الله، فقد أثبت العلمُ الحديث أن القمح إذا خُزِّن في سنابله؛ فتلك حمايةٌ ووقايةٌ له من السُّوس.

وبعض العلماء قال في تفسير هذه الآية: إن المقصود هو تخزين القمح في سنابله وعيدانه. وأقول: إن المقصود هو تَرْك القمح في سنابله فقط ؛ لأن العيدانَ هي طعام الحيوانات.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا أخبر يوسف عليه السلام الساقي الذي جاء يطلب منه تأويل رؤْيا الملك بما يجب أنْ يفعلوه تحسُّباً للسنوات السبع العجاف التي تلي السبع سنوات المزدهرة بالخُضْرة والعطاء، فلا يأكلوا مِلْء البطون بل يتناولوا من القمح على قدْر الكفاف: ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف]

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التأويل لحُلْم الملك: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ [يوسف]

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث في مصر من جَدْب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذي يتطلب هِمَّة لا تفتر.

وقوله سبحانه في وصف السبع "سنوات" بأنها: ﴿ شِدَاد ﴾ يعني: أن الجَدْب فيها سوف يُجهِد الناس، فإنْ لم تكُنْ هناك حصيلةٌ تَمَّ تخزينها من محصول السبع السنوات السابقة، فقد تحدُث المجاعة، وليعصم الناسُ بطونهم في السنوات السبع الأولى، وليأكلوا على قدْر الضرورة؛ ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْب.

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقي حياته بالتنفس والطعام والشراب؛ والطعام إنما يَمْري على الإنسان، ويُعطيه قوةً يواجه بها الحياة.

ولكنَّ أغلب طعامنا لا نهدف منه القوة فقط، بل نبغيَ منه المتعة أيضاً، ولو كان الإنسانُ يبغي سَدَّ غائلة الجوع فقط، لاكتفى بالطعام المسلوق، أو بالخبز والإدام فقط، لكننا نأكل للاستمتاع.

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول: ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤) ﴾

[النساء]

أي: بدون أنْ يضرك، ودون أن يُلجِئك هذا الطعام إلى المُهْضمات من العقاقير، وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه: ﴿ هَنِيئًا ﴾.

أما المقصود بقوله: ﴿ مَّرِيٓـًٔا ﴾ فهو الطعام الذي يفيد ويمدُّ الجسم بالطاقة فقط، وقد لا يُستساغ طعمه.

وهنا قال الحق سبحانه: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال نفهم أن السَنوات ليست هي التي تأكل؛ بل البشر الذين يعيشون في تلك السنوات هم الذين يأكلون، ونحن نفهم ذلك ؛ لأننا نعلم أن أيَّ حدث يحتاج لزمان ولمكان؛ ومرة يُنسب الحَدث للزمان؛ ومرة يُنسب الحَدث للمكان.

والمثال على نسبة الحَدث للمكان هو قول الحق سبحانه: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف]

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التي كانوا فيها، وأصحاب القوافل التي كانت معهم.

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد الحدث منسوباً للزمان، وهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً ؛ لأنهم بعد أنْ يأكلوا لا بدّ لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبُذُور لاستخدامها كتقاوي في العام التالي لسبع سنوات موصوفة بالجدب.

وقوله تعالى: ﴿ مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يوسف]

نجده من مادة (حصن) وتفيد الامتناع. ويقال: أقاموا في داخل الحصن. أي: أنهم إنْ هاجمهم الأعداء يمتنعون عليهم ولا يستطيعون الوصول إليهم.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف]

ونلحظ أن هذا الأمر الذي تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرُّؤيا؛ لأن ما احتوته رُؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف يأكلْنَ سبع بقرات سِمَانٍ، وسبع سُنبلات خُضْر وأُخَر يابسات.

وأنهى يوسف عليه السلام تأويل الرُّؤيا، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأمور حيث يعود الخِصْب العادي ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك.

وهذا يمكن أن يطلق عليه (غَوْث)؛ لأننا نقول: أغِثْ فلاناً. أي: أعِنْ فلاناً، لأنه في حاجة للعون، والغيث ينزل من السماء لِيُنهِي الجَدْب.

وقوله: ﴿ يُغَاثُ النَّاسُ... (٤٩) ﴾ [يوسف] أي: يُعانون بما يأتيهم من فضل الله بالضروري من قُوت يمسك عليهم الحياة.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله: ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف]

أي: ما يمكن عَصْره من حبوب أو ثمار. مثل: السمسم، والزيتون، والعنب، والقصب، أو البلح، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قُوت ذاتك وقُوت مَنْ تعول.

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزَقُونَ بخير يفيض عن الإغاثة، ولهم أنْ يدخروه، وما سبق في آيات الرؤيا وتأويلها هو حوارٌ بين يوسف الصديق عليه السلام وبين ساقي الملك.

ولاحظنا كيف انتقل القرآنُ من لقطة عَجْز الحاشية عن الإفتاء في أمر الرؤيا، وتقديم الساقي طلباً لأن يرسلوه كي يُحضِر لهم تأويل الرؤيا، ثم جاء مباشرةً بالحوار بين يوسف والساقي.

الفهم الحقيقى للموقف
بين يوسف وامرأة العزيز

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ .. (٢٤) ﴾

[يوسف]

ينبغى على المؤمن حينما يقرأ القرآنَ أنْ يفهمه فى ضوء الثوابت المقرّرة فى الإسلام من ناحية تنزيه الله عن كلِّ ما يشبه الحوادث وعصمة الأنبياء من الخطأ والزلل.

ومن الأمور التى يشطح فيها تفكيرُ الناس موقف سيدنا يوسف عليه السلام من امرأة العزيز، والذى يتعلّق بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ .. (٢٤) ﴾ [يوسف]

ولنُحقّق هذه المسألة فالذين يستبعدون على سيدنا يوسف عليه السلام هذا الأمر، يستبعدون على صاحب العصمة أنْ يفكر فى نفسه، وإنْ كان التفكيرُ فى النفس لم يبلغ العمل النزوعى، فهو محتملٌ، بل قد يكون التفكير فى الشيء ثم عدول النفس عنه أقوى من عدم التفكير فيه.

فشُغل النفس بهذا الأمر، ثم الكفّ عنه يعنى مقاومةَ النفس مقاومةً شديدة، ولكنهم يُجلّون ويُعظّمون أيضاً سيدنا يوسف عن أنْ يكونَ قد مَرَّ بخاطره هذا الأمر، فضلاً عن أن يوسف عليه السلام لم يكُنْ قد أُرسلَ. أى: أنه لم يكُنْ رسولاً آنذاك.

الآية تقول: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ [يوسف] أى: أن امرأة العزيز هى التى بدأت المراودة ليوسف عليه السلام، فهل تمَّ نزوعٌ إلى العمل؟ لا.. لأن النزوع إلى العمل يقتضى أنْ يشارك فيه سيدنا يوسف. إذن: فـ ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ أى: صارتْ تحب أنْ تصنع العملية النزوعية، وجاء المانعُ من سيدنا يوسف.

وبالنسبة للمُراود، وهو سيدنا يوسف قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ.. ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف] ونضرب لذلك مثلاً حتَّى نفهم هذا، فإذا قال لك قائلٌ: أزورك لولا وجود فلان عندك، فهذا يعنى أن القائلَ لم يزُرك، وبالقياس نجد أن يوسف عليه السلام رأى البرهان فلم يَهمّ.

فمَنْ أراد أنْ يُنزّه يوسف حتى عن حديث نفسه، نقول: الأمر بالنسبة لها أنها هَمَّتْ به، وحتى يتحقَّق الفعل كان لا بُدَّ من قبول لهذا الأمر، ثم صار الامتناعُ لكنه ليس من جهتها، بل جاء الامتناع من جهته، وهو قد هَمَّ بها لولا أنْ رأى برهانَ ربه.

لماذا جاء اللهُ بأنه هَمَّ بها لولا أنْ رأى برهانَ ربّه؟ جاء اللهُ بتلك الحكاية ليدلنا على الحكمة فى امتناع يوسف عن موافقته على المُراودة، فلم يكُنْ ذلك عن وجود نقص طبيعى جسدى فيه، ولولا برهانُ ربّه لَكانَ

من الممكن أنْ يحدثَ بينهما كل شيء، وأراد الله أنْ يُخبرنا أن رجولته كاملةٌ وفُحولته غير ناقصة، واستعداده الجنسى موجودٌ تماماً، والذى منعه من الإتيان لها هو برهان ربِّه·

إنه امتناعٌ دينى لا امتناعٌ طبيعى، وبذلك يكون إشكال الفَهْم لمسألة الهَمّ عند امرأة العزيز ويوسف قد وَضُحَ تماماً·

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة . ت : ٢٤٨٢٧٨٥١